

اصول الحيات

بقلم

محمد زكي أبو شادي

ECHOES OF LIFE

BY

A. Z. ABUSHÁDY

مختارات

من جمع وتنسيق

محمد صبيح و محمد العروسي

(١٩١٠ - ١٩٢٥)

— ❦ —

الطبعة الثانية

١٩٣٧

مقدمة

في هذه الصفحات التالية مختارات من قلم الدكتور أحمد زكي أبي شادي ليس لي من أثر فيها سوى حظ الانتخاب بمعاونة صديق الأديب محمد أفندي العروسي الذي كان مستمراً المغفور له محمد أبي شادي بك وموضع ثقة ولده الدكتور الشاعر ، فتهيأ له بذلك أن يجمع عنده الكثير من آثارها نظماً وثرأ ما بين مخطوط ومطبوع ، ولولا عنايته الشخصية بهذه الآثار لتبددت وضاعت لا محالة كما ضاع غيرها .

وما كان أحرى هذا الكتاب بأن يصدر باسم الصديق العروسي وحده لأنه ثمرة عنايته الأدبية ووفائه ، ولكنه أبي إلا أن يشرفني بذلك ، مع أنني لم أصنع إلا ما أوحته مشورته واهتمامه وذوقه الجميل . وإذا كان في الكتاب عيب من الأيجاز فرجعه الي ، لأنني راعيت ذلك فيما اقتطقتُه من « الأصول » حرصاً على تمدد الموضوعات ووفرة الاختيار في حدود الفراغ الميمور .

أمّا عن اسم الكتاب فقد خلعه عليه الدكتور أبوشادي نعمة تلبيةً لوغبتنا ، وأمّا عن رسالته فهي رسالة الحياة المتنوعة النقاء ونقداً ، ولذلك نرجو أن ينتفع به الأدباء والمتأدّبون .

قدوة الأمير

كتب الصديق سليم سركيس في مجلته الشائقة فصلاً طريفاً عن عادات الجناب العالي الخديوي ومعيشته استرعت انتباهي منه ثلاثة أمور : (١) أولها قوله في معرض الكلام عن سمو الأمير والموسيقى إنَّ سموه مواعٍ بها كثيراً ويحمن الضرب على البيانو ، ولدى سموه جوقة خاصة (عدا عن جوقة الموسيقى الخديوية الرسمية) مؤلفة من نحو ٨٠ تقرأ ولها رئيس نماوي ، وكثيراً ما يتولّى ترتيبها وتدريبها بذاته . (٢) وثانيها قوله إن سموه لم يشرب الخمر إلا مرة واحدة إذ شرب جرعة من الشمبانيا متورطاً على مائدة المرحوم قيصر روسيا السابق . (٣) وثالثها إشارته الى أن سموه من يوم تولّى العرش الخديوي الى الآن وهو يدوّن بخط يده في مذكرات خاصة جميع الحوادث الهامة التي مرت أو تمرّ عليه والأحداث الكبيرة الشأن بينه وبين العظماء والساسة وكبار الرجال .

فأما عن عناية سموه بالموسيقى فهي القدوة المثلى لأعياننا الذين لا تزال أغلبيتهم في جهل مطبق بقيمة الفنون الجميلة كالموسيقى والشعر والتصوير والنحت ، ولولا ذلك لما بقيت الحياة الثقافية في مصر عاطلة من هذه الفنون البعيدة الأثر في تهذيب النفوس وترقية المشاعر والتسامي بغاياتها . وقصارى ما يفهمه بعضهم من الموسيقى أنها أنعام للتسلية لا أنها غذاء روحى ومادة لا يُستغنى عنها في شحذ المواهب الأدبية وإشباع المشاعر الحساسة وإرهاف النزعات النبيلة ، وأنها ترجمانٌ لأمانى الأمة وآلامها عن طريق الألحان فتنتقل بالأيحاء والألحان الخواطر المثالية للأمة من فكرٍ الى فكرٍ ، وتوحد بينها يرباط الأناشيد ، وتنفس عنها في همومها وأحزانها وتقودها وتشجّعها في كفاح الحياة . فالموسيقى العبقري رسول من الرسل ، وهكذا كان أمثال بيتهوفن ووجيز وشوبرت ، ومنزلته في الأمة ليست بأى حالٍ دون منزلة صاحب الرسالة الدينية بل قد يرى بعضهم أنّها أعظم باعتبار أن معظم الأديان بل كلها قائمة على الثواب والعقاب في حين أن رسالة الموسيقى تعتمد على تهذيب الاحساس وتجميل الذوق وبث روح الحسان والرحمة في النفوس وإشعارها بمعانى الحق والخير والجمال . فمتى نرى للموسيقى

نصيبها المشروع في برامج التعليم ؟ ومتى نرى لرجالها المكاة الرفيعة بين أعلام الأمة ؟ ومتى نظفر بمعهد خاص بدراستها وترقيتها حتى نرى الموسيقى المصرية في مكائتها القديمة الرفيعة أيام القراعنة ؟ انّ الموسيقى المصرية الصميعة (أو ما تُسَمَّع عادةً بالموسيقى القبطية) كثرته فنيًا عظيمٌ لا تزال متوانين في استغلاله ، مع أنها أوحث ولا تزال توحى لنوابح الأوروبيين بطُرف رائعة من إبداعهم . وقد جنى علينا تعلقنا بالموسيقى العربية الخالصة دون أن نعمل على جعلها تساير الموسيقى الغربية في الهارمونيا ، حتى كاد أملنا يتجه الى ظهور مستشرق موسيقى يأخذ بأيدينا في هذا السبيل مادمننا نحن طاجزين عن التقدم فيه بأي صورة من الصور .

وأما عن كراهية سموه للخمر ففضيلة عظيمةٌ ، فانّ السكر مضادٌ للطبيعة تمامًا ، ولا يصاب الانسان طبيعياً بالسكر الا في شدة المرض أو عند الموت . فالسكر إذن لا يتفق والحياة الصحيحة المقبولة ، ولن يرضى قافلٌ أن تقترن حياته بظاهرة من ظواهر المرض الفادح أو الموت . . . وما عرفت سكيراً الاً وسمعتُ العجائبَ عن اضطراب حياته في بيته وفي عمله وفي علاقاته الاجتماعية وفي أخلاقه بصورة محزنة منفرة أهونها الذبذبة القبيحة والميل الى الغدر والخيانة ! فأمر البلاد يضرب مثلاً آخر سامياً في نظام الحياة الشريفة الكاملة ، وهو يقدم خير نصيحة عملية لرجال البلاد ولشبابها الناهض .

وأما عن عناية سموه بتدوين مذكرااته الخاصة فقدوة أخرى جلية ، فانّ تاريخنا الحديث في حكم الضائع (ولا أقول شيئاً عن تاريخنا القديم) لأن عظماءنا يترفعون عن كتابة أمثال هذه المذكرات الحاسوبية لاختيارهم وتجاريهم وذكرياتهم الشخصية ، في حين تجمد العظماء الأوروبيين يفعلون عكس ذلك وينشرون مذكراتهم المفيدة حينما تتقدم بهم السن أو يوصون بنشرها بعد مماتهم ، وبذلك يساهمون في إذاعة الحقائق التاريخية عن وطنهم وينتفع المؤرخ في المستقبل من مجموع كتاباتهم وتحقيقاتهم . أما في مصر فعظماءنا حلفاء للخموس والكسل والتراخي ، ومن كان منهم في الحكومة وأحيل الى المعاش فعنده أن بدء حياة المعاش نهايةً وجوده بالمعنى الصحيح ا ويندر أن تجمد عند أحدهم مكتبة خاصة به للاطلاع والبحث ، فمن الظلم المرهق إذن

أن نطالبهم بالتحقيق التاريخي والتأليف !
يبد أن هذه الأمثلة العالية التي يقدمها سمو الأمير لشعبه في حياته
الخاصة لن تذهب سدى بين ناشئة البلاد التي هي عدة المستقبل ، وكفى بها ذخراً .
(١٩١٠)

الشعر الجديد

شرفت اللغة العربية أخيراً بظهور (ديوان الخليل) لإمام الأدب الحديث
أستاذي الخليل خليل أفندي مطران ، وقد حذرني من أفنديه بنفسى من
التأثر بشعر مطران لأن عربيته في رأى ناصحي العزيز مشوبة بالكثير من
العجمة ، شأنه في ذلك شأن سليم عنجورى صاحب (آية العصر) . ولكنى
رجعت الى ديوان عنجورى وقد صدر منذ خمس سنين فوجدت شاعرنا
الناطقة العربية الاسلوب حافظ أفندي ابراهيم يشارك أستاذي مطران في تحية
(آية العصر) بهذا الشعر الصريح :

نقلت الى مصر روض الشام بشعرك قبل أوان الربيع
وضوءت فيها نسيم الغياض فثلت للنفس تلك الربوع
وحلته بنفيس الممانى ووشيته بالطراز البديع
وأجريت فيه رحيق البيان فأحمل قارنه والسميع
وقرب للذهن إدراكه فحن إليه الصبى الرضيع
وذلك من معجزات القريض وغاى الكلام وآى البديع
فله أنت وما تمجيدٌ لله أنت وما تستطيع
وله نظمك بين النظم وله فضلك بين الجميع !

وما أحسب هذا الشعر من باب التقاريط الفارغة المألوفة ، وقد تضامن
شاعران كبيران في إهدائه ، وقد عللّا فيه أسباب إعزازها لشعر عنجورى .
وهكذا شأن مطران وشعره : فقد قرب الى الذهن إدراك معاني الشعرية
مهما سمعت ، وقد نحاشى اللجوء الى الاساليب العنجهية ، كما أنه في الوقت

ذاته قد تحاشي الأخيلة والمعاني المكرورة والمواضيع المبتذلة التي ملأها الدهر
كما ملأها الناس .

لقد جاء مطران إماماً لمدرسة جديدة ولكن معظم تلاميذها حتى الآن
من اخواننا السوريين في موطنهم وفي المهجر . ولست أنكر أن جيلاً
جديداً من أدباء مصر قد أخذ يتأثر بأدب مطران تراثاً ونظماً - وتكفي
الإشارة الى روائعه الفاتنه في (المجلة المصرية) - وفي طليعتهم الشاعر الفاضل
عبد الرحمن شكري ، كما لا أنكر أن نخبة من كبراء شعرائنا يمايرون
مطران في اتجاهاته الجديدة وفي مقدمتهم شاعر سمو الأمير أحمد شوقي بك ،
ولكن يصح أن يقال بالاجمال إن الأدب المصري الشعري ما يزال تحت تأثير
البارودي على أحسن تقدير ، فهو أدب عربي في جلته يمت بصلة الى الماضي
أكثر مما يمت الى الحاضر ، ولعل لم أنصف البارودي بنسبة هذا الأدب اليه ،
فشعر البارودي وإن يكن تقليدياً الأسلوب شعره عصري في كثير من
خواطره وتفاعلاته . وواجبنا نحن الأدباء الناشئين أن نبشّر بتعاليم مطران ،
وأن نمهد السبيل لنهضة شعرية شاملة في مصر على الأقل ، فقد اتخذ
مطران وطن الفراعنة وطناً ثانياً له ، وهو في أدبه وروحه مصري صميم ،
فأستاذيته لنا شرف عظيم .

يقول اسماعيل صبرى باشا في تحية مطران :

أنتَ مطرانُ أيُّ شعرٍ جديدٍ أعجزَ المسلمينَ قبلَ النصاري !

وصبرى باشا من أعلام المدرسة الوسط التي من زعمائها شوقي بك والتي لا
تنكر تأثيرها الى حدٍ بعيدٍ بتعاليم مطران ، فما هي هذه التعاليم ؟ وما هو
هذا الجديد في شعر مطران ؟

لأدعُ مطران نفسه يتكلم أولاً ، فهو يقول في تصدير ديوانه :
« ليست هذه الكلم القلائل كل ما نظمته الى الماعة بل هي منه كبقايا
السفينة الفريقة ، أو كالتقطع السائلة من الأنار العتيقة ، فقد استخدمتُ
الروي ولم أشب عن طقولة الروية ، فرأيتُ في الشعر جوداً وبداءي تطريز
الأقلام على الصحف البيضاء كتطريس الأقدام في تيه البيداء ، فأنكرتُ

طريقته لجهلى حقيقته ، وقضيتُ سائر أيام الصبي وأوائل ليالى الشباب وأنا لا ألوى عليه حتى دعت بعضُ تمداعى الحياة فعدتُ اليه . عدتُ اليه وقد نضج الفكر واستقلتُ لى طريقة فى كيف ينبغى أن يكون الشعر ، فشرعتُ أنظمه لترضية نفسى حيث أتخلى أو لثربية قومى عند وقوع الحوادث الجلى ، متابعاً عرب الجاهلية فى مجارة الضمير على هداة ومراعاة الوجدان على مشتاه ، موافقاً زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب ، لا أخشى استخداها أحياناً على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب ، ذلك مع الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعدم التفريط فى شىء منها إلا ما فاتنى علمه أو تجاوز إدراكى فهمه ، ولم أكن مبتكراً فيما صنعتُ فقد فعل العربُ فى كل زمان قبلى ما لا يُقاس اليه فعلى ، فانهم توسّعوا فى مذاهب البيان توسّع الرشد والحزم ، وجاريتهم فى تصريف الكلام على ما اقتضاه هذا العهد من أساليب النظم .

« قال بعض المتعنتين الجامدين من المنتظسين الناقدين : ان هذا شعر عصرى » او هموا بالابتسام ، توهمَ أن من بوارق أسرتهم ما يسكون أشد من وقع السهام ! فيا هؤلاء نعم ا هذا شعر عصرى وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر . هذا شعر ليس ناظمه بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده . يُقال فيه المعنى الصحيح باللفظ النصيح ، ولا ينظر قائله الى جمال البيت المفرد ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام ، بل ينظر الى جمال البيت فى ذاته وفى موضعه ، والى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها وفى تناسق معانيها وتوافقها ، مع ندور التصوّر وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعور الحرّ وتحرمى دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر . كذلك حاولتُ أن أصنع شعرى وأعرف أنني لمتُ من العلم واقتدار الفكر فى المكان الذى يبلغنى منه أدنى المرام ، ولكننى تيقنتُ أن ما أردتُه به من الأغراض قد نقد الى قلوب قارئيه وأحدث فيها ما أبتغيه من الأثر ، وكفى بذلك سروراً لى ورضى الى أن يجىء فى زمانى أو بعدى من يدرك من طريقي الشاؤ الذى قصرتُ عنه ويصل الى المقام الذى لم أدنُ منه .

« على أنني أصرح غير هائب أن شعر هذه الطريقة - ولا أعنى منظوماتي الضعيفة - هو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعاً . وللدلالة على صعوبة الوصول الى الاتقان في مثل هذا النوع من النظم نشرتُ في هذا الديوان القصيدة الأولى من شعر الصبي وعدة قصائد أخرى كان في وسعي أن أضرب عنها صفحاً وأن أكتفي بما أستجيده من قولي ولا آخذ على نفسي فيه شيئاً ، غير أنني آثرتُ أن يدارجني القارئ مدارجة على كونها غاية في الایجاز تمثلني لديه تمثيلاً إجمالياً في كل حال مرت بها من أحوال هذه الطريقة . وليس أكثر شعري هذا بين الطرس والمداد إلا مدامع ذرفتها وزفرات صعدهتها ، وقطع من الحياة بددتها ، ثم نظمتها فتوهمتُ أنني استعدتُها ، وقد عرض لي أن أبقى في هذا الديوان خليطاً من المذهب القديم ولكنني لم أفعل إلا وقد طاوعتُ ضميري وسأرتُ اعتقادي ، ولم أتكلف المبالغة في النثر اليسير من المدح إلا لأقيس به شاسع ما أصبح بيني وبين الشعراء الذين ألفوا هذه الخطة من قبل ، ولا لوم في الشعر على البدوات . على أنني لم أخل - الى الآن شعري من كل ما آخذتُ عليه السابقين بسيري على هذه الطريقة القطرية الصحيحة ، ولكنني أرجو أن أقدم على ذلك في المستقبل إن كان في الأجل فسحة . وغاية ما آغناه لدى القراء من الجزاء على هذه العسر المروية والغرائب المحكيمة والنوادر المثقلة والصور الخيلة ، التي نظمتُ أكثرها مسارقة من وقتي وبين سفري وحضري وبين مذاهي الى أعمالى ومشاركاتي لشواغلي وأشغالي ، أن يشاركوني في وجداني أثناء مطالعتهم لهذا الكتاب فيرضوا عن التفضيلة كما رضيتُ ، ويأسوا من الرذيلة كما أسيتُ ، وأن يستفيدوا من مناصحاتي ، ويتخذوا أدوية جراحاتهم من جراحاتي . لذلك عملتُ وذلك منتهى ما أمّلتُ ، فان الناس ركبُ شقاء وسفرُ هباء ، فما أسعد حاديبهم - وهو الشاعر - اذا حدا ، أن يحسّ لنغماته عند اخوانه في الميرنة وصدي . »

آثرتُ أن أقلّ بأسهاب هذه الكلمات الذهبية بل التورانية لأنها الأصلُ الرائع الذي يُغنى عن الشرح الطويل في هذا المقال ، وقد جاءت متألقةً بالنفن والحكمة ، غنية عن كل تعليق . ومع ذلك فمأحول ترديد تقطعها البارزة

على طريقة التلخيص لتأملها اخواني الأدباء الناشئون بل وغيرهم تأملاً وافياً
كما سأحاول بيان شعورى الخاص نحو تعاليم مطران واتجاهاته :-

(١) يرى مطران أنَّ عرب الجاهلية كانوا موفقين في مجازاة الضمير على
هواه ومرآة الوجدان على مشتواه ، وهو يكبر إرسال النفس هكذا على
سجيتها ، وقد جعل ذلك ديدنه منذ نضوج شاعريته ، موافقاً زمانه فيما
يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب بدل المحاكاة العمياء لأساليب المتقدمين
حينما عصرنا العجيب بالمسرة والتلغراف وحاكى الصدى والطيارة وأمثالها من
المخترعات المحيرة أولى من القرون المدفونة بإحياء الأنسب الأصح من تعابير
وأخيلة ونزعات وأمثلة . وقد كان العرب أنقسم يتوسعون في التصرف
باللغة واستعمالها على الأصول المعقولة ، فكيف ينكر علينا الفقهاء الجامدون
في القرن العشرين ما كان مباحاً منذ عشرة قرون بل أكثر ؟ !

(٢) يفتخر مطران بأنه ليس عبد شعره الذى يرضخ لضرورات الوزن
والثقافية ، وليس بالصانع السخيف الذى لا يفهم وحدة القصيد وتسلسل معانيه
وانسجامها الحقيقى وضرورة مطابقتها للحقيقة وشفوفها عن الشعر الحرّ
الصادق ، خلافاً للمذهب البالى الذى يدعى أن أعذب الشعر أكذبه ، وقديماً
وقف ابن الرومى هذا الموقف فلم يُنصف أدبه ولكن تنبه اليه المستشرقون
والخاصة أخيراً وبدأ أعلام الأدب المثقفون يرون فيه الشاعر العبقرى الفذ .

(٣) يرتاح مطران الى ما أدركه من نفاذ مراميه فى شعره الى قلوب
قارئيه وإحداثه فيها ما يبتغيه من الأثر متمنياً أن يحىء فى زمانه أو بعده من
يتابع خطته ويكمل مذهبه . ونحن تلاميذه الناشئين أولى الأدباء بتلبية
دعوته ، خصوصاً وقد زادنا الاطلاع على الأدب الأوروبى طلاقة فى الفكر
ومشاحة فى الفن فاقنننا بأن دعوة مطران مطابقة لأنصح التعاليم الفنية التى
طلع بها علينا نقدة الأدب فى الغرب .

(٤) يرى مطران فى إيمان عميق وفى تواضع جميل أن الشعر الذى يبشّر
به هو فى طريقته شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعاً .
ولا مشاحة فى أنه صادق فى نبوءته . وكيف لا يكون كذلك والشعر الذى

يباعده هو في الواقع نظم الصنعة والتلفيق والوهم الكاذب . فمثل هذا النظم لا يمكن أن يعمر طويلاً إلا في بيئات الفقهاء الجامدين ، ولكن هيئات له أن يعيش ويتزعرع حينما تسيطر الثقافة الفنية الحرة في المستقبل .

(٥) ينوء مطران بأنه إنما نظم شعره ارضاءً لوجدانه ما بين ترويح عن نفسه وتهذيب للامة ومناصحة لها في الحوادث الجلى ، فهو في آت يعزز نظرية « الشعر للشعر » ونظرية « الشعر للحق والخير » جامعاً بين المذهبيين في نظرتهم الفنية الموحدّة . وهو يجده جزاءً فنياً كريماً في محض إحساسه بأن لنغماته عند مرديه رنةً وصدى .

(٦) يدعو مطران الى احترام أصول اللغة وعدم التفريط في شيء منها ، وفي الوقت ذاته يدعو الى الابتكار في التناول الفني للموضوعات وفي تصريف الكلام حسب ذوق العصر ولو أدّى ذلك الى استخدام الألفاظ والتراكيب أحياناً على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب ، كما كان العرب أنفسهم يفعلون إبان نهضاتهم .

وانى إذ أنتقل بالقارىء بعد ذلك الى التطبيق العملى لهذه المبادئ في شعر مطران نفسه كما يتجلى في (ديوان الخليل) أجد معه المعجب المرقص .
وُلد الاستاذ خليل أفندى مطران سنة ١٨٧١ فهو الآن لم يتجاوز الأربعين من عمره ، ومع ذلك فهو مكثراً منجّباً ، وقد أنشأ (المجلة المصرية) وهو في الثامنة والعشرين ، وآتم الجزء الأول من (ديوان الخليل) بعد ذلك بعشر سنين على حين أنه لا يحوى إلا قطرةً من فيض شعره ، وقد حرّر صحيفة (الأهرام) وأمس (الجوائب المصرية) وله كتاب (مرآة الأيام) وهو سفر شائق في التاريخ العام . خياله الأدبية كلها نشاطاً وبركةً وصلاتٌ طيبةٌ منوعةٌ ، وقضى وفاقوه لفقيد السيف والأدب البارودى باشا بأن جمع (مراثى الشعراء) له في كتاب أدبى قيّم . ولئن وُلد مطران في بعلبك فحنينه الى القاهرة لا يقلُّ عن حنينه الى موطنه الأول إن لم يُربِّ عليه ، وهو في تحاياها اللطيفة في صدر ديوانه يُنبت كرم أرومته وتعلقه بالصدقات المصرية العزيزة لديه ، كما أنه بمرثيته الرائعة لفقيد الشرق مصطفى باشا كامل يجود على الشعر العصري بأية من الاعجاز الفنى . استمع اليه يقول :

أعظيم يومك في الزمان ، ومن له بك واصفاً ذاك الجلال فيوصفاً
يوم الملائكة الكرام تنزلوا حانين حولك في المرير وعكفاً
وتحملوك على الأشعة وارتقوا سرباً يجوز بك الدراري موجفاً
فوردت وردك في الخلود منعماً والأرض مائدةً عليك ناسفاً !

ويقول :

(مصر) العزيزة قد ذكرت لك اسمها وأرى ترابك من حينٍ قدهقا
وكأني بالقبر أصبح منبراً وكأني بك مؤشك أن تهتفاً !

ويقول :

إني أراك ولا تزال كعهدنا بك في جهادك أو أشد وأشفنا
ثابراً على تلك العزائم ذاتاً عن (مصر) تضرب في البلاد مطوفاً
أصدر صحائفك التي تحيي بها يعضو الطريق وتدفع المتخلفاً
تجري بها الأنهار وهي دوافقهم وهما وتوشك أن تطم فتجرأ
وتكاد أسطرها تهب نواطقاً ويكاد يعزف كل حرف معزفاً
فاذا حنوت على الحي متحسباً فهو النسيم وقد ذكا وتلطفنا

ويقول :

قم للخطابة في الجامع وامتلك تلك النفوس مروّعاً ومشتفاً
أعد القديم من الممالك والقرى ذكرى وعرفنا الحياة لنعرفنا
ما هذه الآيات يرمي لفظها شرراً ، وتهوى الشهب فيها أحرفاً !
ما ذلك الترصيع ليس مرصعاً ! ما ذلك التفويف ليس مفوقاً !
وحى بأحجية إذا ما أطلقت هبطت رواسب عنه والمغزى علقنا
محي حرارتها ويهدى نورها متاهل الإشراق أو مستخطفاً
تأله ما أنت الخطيب ، وانما وقف القضاء من المنصة موقفاً

عن تُعْتَقِرُ تَعَمُّ الصرُوفُ مَوعَظًا وَكَاثِرَهُ أَمْرُ الزَّوْمَانِ مِصْرَفًا
فهذه المرثية الفريدة التي تُعَدُّ أبلغَ وأروعَ ما قيل في رثاء مصطفى
كامل باشا (دون أن أستثنى مرثيتي شوقي بك وصبري باشا) هي أظهرُ الأمثلة
على وحدة التصيد في شعره، وعلى الامتزاج الطبيعي القوي بين فنِّ الواقع
وفنِّ الخيال في النجم وتسلل بديع، وهي كذلك أظهرُ الأمثلة على وفاء
لا يُحَدُّ. ولذلك أردتُ أن أصدرَ تعليقي على شعر مطران وتعليمه بهذه الملاحظة
المنصفة ليتدبَّرها المعرضون الذين يريدون أن يتخذوا من سورتيه مطران حجة
لانتقاص أدبه وفضله على الشعر الجديد! فإذا لم يفهم هؤلاء أن الفنَّ كالعلم
لا وطن له ولا دين، فيجب على الأقل أن يفهموا مبلغَ وفاء مطران لمصر
في أدبه الحَيِّ، فهو بحقِّ القدوة الصالحة لهم في ذلك .
ولأَعُدُّ بعد هذا إلى مناحي شعره .

إن الناقد المستقل الذي يتفرَّس شعر مطران يحكم فوراً بأن شاعرية هذا
الاستاذ العبقري هي التي تخلق لموضوعاته قيمة شعرية وتكسيها طرافة، ومن
أظهر الأمثلة لذلك قصيدته « حلوى العيد » (ص ٢٢٧ من ديوان الخليل)
التي تفيض رقةً وظرفاً ينتهيان إلى الحكمة الرائعة إذ يقول:
أنتِ الحقيقةُ في الحياةِ ، وكاذبٌ غيرُ الهوى للمائتِ الملهودِ
إنَّ أسعفتنا ساعةٌ منه فقد أربتُ بغبطتها على التخليدِ
أما العظامُ والعُلَى فشاغلٌ خُلقت من التفكيرِ والتسديدِ
لا تملأُ القلبَ الخلى ، ودأبها نَهكُ القُوسى في شقوةٍ وسُعودِ
أدواتُ هوىٍ نستعين بها على سيرِ عميرِ في الحياةِ كؤودِ
أشباهُ ما يُعطى من الثمرِ امرؤٌ في زادِ نرحاله عليه شديدِ
ولعلَّ غايةَ كلِّ طالبِ رفعةٍ إرضاءُ ذاتِ سلاسلِ وعُقودِ
فيكون عيدُ العمرِ ساعةً ملتقىً وعظامُ الآمالِ حلوى العيدِ
وقصيدة « العالم الصغير مرآة العالم الكبير » (ص ١٢٩) - وهي قصيدة
متفلسفة تدور حول فنجان قهوة ١ - هي آيةٌ من الوصف الباهر في طرافةٍ
جذابةٍ تحلِّيها العاطفةُ النبيلةُ ماطفةُ الحبِّ المتسامي . واني لا أعرف

شاعراً من شعرائنا الشيوخ أو الكهول يمكن أن يجد في فنجان قهوة
موضوعاً صالحاً للشعر العالى ، ولكن مطران يبهرنا كما يبهر حبيبتة بقوله :

أرأيت صوغ الدر في العقيان ؟ هذا حباب البُن في الفنجانِ
فلك تمثّل شمسه ونجومه أفلاكنا في السير والدورانِ
(ليلى) أجيلى الطرف فيه تنظرى سر الكيان وآية الأزمانِ
تجدى سماوات وسعن عوالمنا فتاة الإبداع والاتقانِ
منشورة أفرادها ، منظومة جماعاً بما لا تُدرك العينانِ
سيارة خلل الجهات حوائراً مرتادة في البحث كل مكانِ
كلّ يصير إلى حبيب مرتجى حتى يدانيه فيلتصقانِ
فيذوب كل منها في صنوره (١) وكذلك يحيا بالهوى الصنوانِ
جسمان يغتديان جسماً واحداً كتوحد الحبيبتين يقترنانِ
روحان تمتزجان حتى تُصبعا شبه الصبا والطيب يمتزجانِ !

* * *

تلك الحياة عتيدها (٢) ومصيرها حتى يكون الحب آخر طاني
إذ تنتثر الشهب المنيرة مثلها تنهل أدمع عاشق ولهان
وتذوب في لهب الشمس هوائاً (٣) وبها الشمس تذوب وهى هوانى
ويكون يومئذ شفاء غليلها وهناؤها وفناؤها فى آنِ
قالت : أذاك مصيرنا ؟ فأجبتُها ؟ السعد آخر شقوة الانسانِ
وهو الحياة نعيشها فى لحظة مجموعة الأفراح والأحزانِ
عودى الى الفنجان : أين شمسُه والطائفتُ بها من الأكوانِ :
عاشت على شوق ، فلما أدركت أوطارها من ملتي وقرانِ
زالت وما أبقى الهوى منها سوى عطر يذوق هنيئة ودخانِ !

(١) مثله (٢) حاضرهما (٣) مهنة

نظم مطران هذه القصيدة الفريدة في نهاية العقد الثالث من عمره فكان غريباً في سبقة سنه بهذه النظرات الفلسفية الدقيقة الى الكون والحياة ، وقد استخرج من أتفه الموضوعات أجل الحقائق ... فأين قصيده « نالت على يدها ما لم تنله يدي » من مثل هذا الشعر العالى الجامع بين الغزل اللطيف والحزين المهذب والتأمل القوى في لغةٍ سمحةٍ بعيدةٍ عن كل تكلف أو تقليد ؟ وهل كنتُ مبالغاً حينما نبّهتُ زملائي أدباء الشباب الى أن شعر مطران أحرى بالدرس والحفظ من الكثير من أشعار المتقدمين التي لا يكسبها حُرمةٌ سوى أثريتها ؟!

نبّهتُ الى هذه الميزة الخاصة بشعر مطران ، وهي نظرتهُ الشاملةُ الى الحياة ، بحيث أنه يجد أيّ موضوع — مهما كان تافهاً في ظاهره — صالحاً لأن يكون مادةً شعريةً قيمةً ، فالشاعرُ هو الذى يخلق الموضوعَ الشعرى ، وليس الموضوعُ هو الذى يُنجب الشاعرَ .

وأنبّه بعد ذلك الى لغة مطران التي تمتاز بتحرُّرها وبطلاقتها الفنّية ، فهو لا يضع مَشقاً أمامه ينسج على منواله لينال بعد ذلك تصفيقَ الدرامعة والأزهريين ، ولكنه وقد تمكن من أصول العربية يرسل نفسه على سجيبتها فتجىء ديباجته خاليةً من التصنع سليمةً من قيود التعابير المألوفة . خُذْ مثلاً هذه الأبيات (ص ١٣١) :

انما الترجسُ ابتسامهُ فجره ألفتُ نسجها يدا (نيسان)
قام في حلّةِ البياضِ فكانت ثوبَ رُوحٍ لا ثوبَ جسمٍ فاني
واستزادَ الحلى سواها فجاءتُ حيث زادتُ علاممَ النقصانِ !
هكذا مرُّ كلِّ حىٍّ زاه خللَ الشكّل بادياً للعيانِ -
فترى أنفَسَ الحِمانِ حماناً حينما هُنَّ عن حُلَى غوانى
ونرى أنفَسَ الأزاهرِ مُغرّاً إذ زاهها عفيفةَ الألوانِ -

فكلُّ بيتٍ منها أصيلٌ في ديباجته كما أنه أصيلٌ في روحه — هو نسجُ مطران ، وهو فيضٌ وجدانه المستوعب لسرّ الطبيعة . تقرّوه فلا تذكر أنك رأيتَ مثلَ هذا النظم من قبل ، ولا تذكر أن مثل هذه المعاني تمرّت

بك في شعر سابق ، بعكس حال البحترى مثلاً فان شعره مرآة الطراز
المحبوب في عصره من مختلف التراكيب الخلوة الرنين لشعراء كثيرين . فهذه
النقطة ليست بالهيئنة في تكوين شخصية الشاعر ، وحرص مطران عليها حرص
في موضعه . وكيف لا يحرص عليها وطابعُ القرن الحى استقلال الشخصية
وتحررها وروح الابتكار ؟

أما عن وحدة القصيد التي تجعل منه كائناً حياً متناسق الأجزاء لا
يمكن التحوير أو التبديل في كيانه ، بل كل ما فيه على قدر ونظام وتركيب
منسجم فن الأهمية أيضاً بمكان ، وعكس ذلك القوضى الشائعة في كثير
من الشعر العربي قديمه وحديثه على السواء . ومن تحصيل الحاصل الاستشهاد
بمناذج من شعر مطران في هذا الباب فجميع شعره من هذا القبيل ، وإذا
كان الاستشهاد منشوداً فحسبي هذه الأبيات في غير اختيار ، وهي رسالة
بعث بها الى صديق متهم جار عليه قضائه (ص ١٥٨) :

مَعْرَةٌ الظُّلْمِ عَلَى مَنْ ظَلَمَ وَحُكْمٌ مَنْ جَارَ عَلَى مَنْ حَكَمَ
وَإِنْ مَا أُوْحِدَتْ زُورًا بِهِ بَرَاءَةُ الصِّدْقِ وَغُرُّ الشِّيمِ
وَمَا عَلَى النُّورِ إِذَا سَطَّرُوا عَلَيْهِ عَيْبًا بِمَدَادِ الظُّلْمِ
وَفْتِيَةٌ إِنْ تَنَوَّرَ تَجِدُ زِيَّ قَضَاةٍ لِبَسْتِهِ خَدَمَ
تَهْمُوا بِأَنْ يَنْتَقِصُوا فِي الْوَرَى خُلُقًا عَظِيمًا فَسَمَا وَاسْتَمَ
وَحَاوَلُوا أَنْ يَصْمُوا فَاضْلًا بِمَا أَبَى اللَّهُ لَهُ وَالكَرَمَ
فَسَوَّدُوا أَوْجَهُ أَحْكَامِهِمْ وَابْيَضَّ وَجَهُ الْفَاضِلِ الْمُتَهَمِ

فهنا تلمس منطقي مقبول من البيت الأول الى البيت السابع ، وليست
هذه بأبيات منظومة على القوافي كيفما اتفق قابلة للتحوير والابدال كما نرى
في نظم كثيرين . وهذا التلمس طبعى ما دام للقصيدة وحدة ، وما دام
الشاعر يريد أن يعبر عن خواطر متناسقة في ذهنه وعن عاطفة متمشية مع
تفكيره . فالتفكك لا يصيب الا الشعر الصناعي ، وإن لم أنكر أن بعض
شعر الرثاء قد يناله شيء من التفكك لأنه فيض الخاطر المضطرب حينئذ ،
وهذا لا يعيبه فنياً لأنه يكون طبعياً في موضعه . ومطران لا يعنيه جمال

البيت المفرد « ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام ، بل ينظر الى جمال البيت في ذاته وفي موضعه ، والى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها وفي تناسق معانيها وتوافقها مع ندور التصوّر وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعور الحرّ وتحرّسي دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر » . وهذا المبدأ الهامّ يحتمل التكرار مراراً ليرسخ في أذهان مَنْ يتصدّرون للنقد من الأدباء الجامدين القليلي الاطلاع بل العديعي الاطلاع على الأدب العربي أو قل الأدب العالمي ، وهم لو تفتّحت أذهانهم واتسع اطلاعهم وفهموا مقارنة الآداب لُججوا من مواقفهم الجامدة في الفهم والحُكم وتخلّوا عن إصغار ملاحظات الشباب وتطيفها لاعتبارات السن الواهية ونحو ذلك .

أمّا عن مطابقة الخيال والتصوّر للحقيقة فنقطة غير مفهومة لدى جبهة المتأدّين إذ أنهم يحسبون أنّ الشعر العالي يبيح الخيال الكاذب والوهم الضالّ ، وهذا خطأ كبير يجب أن نقضى عليه . فالحقيقة الشعرية لا تنافي بأى حال الحقيقة الواقعية ، وأظهر الأمثلة لذلك قصيدة « المساء » (ص ١١٩) التي قالها مطران وهو عليل في مكس الأسكندرية منذ ثمانية أعوام ، فهي من مفاخر الشعر العربي الحديث ، ومع هذا فلا أثر لها في محفوظ الطلبة لأن شيوخنا لا يقبلون تطرّق مثل هذا الشعر الى المعاهد الدراسية حتى لا يفسد الأذواق لأنه « لأماء له » (كذا) في نظرهم ، بل يعدونه كلاماً أعجمياً في حروف عربية يقول مطران من قصيدته الخالدة :

إني أقتُّ على التعلّة بالمني في غربةٍ قالوا تكون دوائى
 إن يشف هذا الجسم طيب هوائها أبلطف النيران طيب هوائه ؟
 أو يمك الحوبة (١) حسن مقامها هل مسكّة في البعد للحوبة ؟
 عبث طوائى في البلاد ، وعلة في علة منفاى لاستشفاه
 متفرّد بصباتى ، متفرّد بكآبى ، متفرّد بعنائى
 شاك الى البحر اضطراب خواطرى فيجيبنى برياحه الهوجاء

(١) يحفظ الروح .

ثاور على صخرة أصم ، وليت لي قلباً كهذي الصخرة - الصماء
ينتابها موجٌ كوج مكارهي ويفتأ كالتمم في أعضائي
والبحرُ خفاقُ الجوانبِ ضائقٌ كدأ كصدرى ساعة الامماء
تنشى البرية كدرة ، وكأنها صعدت الى عيني من أحشائي
والأفق معتكرٌ قريحٌ جفنه يُغضى على الغمراتِ والأقذاءِ

* * *

يا للغروبِ وما به من عبرةٍ للمتهمِ وعبرةٍ للرأى ا
أو ليس نزعاً للنهار ، وصرعةً للشمس بين جنازةِ الأضواء ؟
أو ليس طمناً لليقينِ ومبعثاً للشكِّ بين غلائلِ الظلماء ؟
أو ليس محواً للوجود الى مدى وإياداً للمعالمِ الأشياءِ
حتى يكون النورُ تجديداً لها ويكون شبه البعثِ عودُ ذُكاءِ (١) ؟

* * *

ولقد ذكركِ والنهارُ مودّعٌ والقلبُ بين مهابةٍ ورجاءِ
وخواطري تبدو نجمةً فواظري كلنى (٢) كداميةِ السحابِ ازأى
والدمعُ من جفنى يسيل نضارُهُ فوقَ العقيقِ - على ذُرَى (٣) سوداءِ
مرّت خلالَ غمامتين تحدراً وتقطّرتُ كالدمعةِ الحمراءِ
فكانتُ آخرَ دمعةٍ للسكونِ قد مُزجتُ بأخرِ أدمعى لرنائى
وكاننى أنتِ يومى زائلاً فرأيتُ فى المرأةِ كيف مسأى ا

فى هذه القصيدة العصماء من التصاوير البارعة والتهاويل المدهشة ما يحير
الألباب ، وقد يراها الأدباء السطحيون مبالغات فارغة لا صلة لها بالموضوع
أو قد لا تعجبهم لأنها بعيدة عن الترصيع والزركشة . أمّا الواقع فالشاعر

يرى في الطبيعة وقت الغروب مرآة نفسه الحزينة ، وكأنما جميع تلك الصور الطبيعية المروعة هي صور خواطره بالذات ، ومن ثمة تتطابق الحقيقة الشعرية والحقيقة الواقعية فننادى بالمبدأ الحق « أعذب الشعر أصدق » . فالحقيقة الشعرية مسألة نفسية بحتة ، والشعراء يختلفون في النظر الشعري وكيفية تناول ، ولكن لا يجوز أن يُعَدَّ من الشعر ما يستمدُّ نظمه من الصناعة المحضة ، وقد جاء مطران بتعاليمه وبالتماذج الرائعة من شعره يقرر هذه الحقيقة المجهولة أو المنسية .

وقد عيبَ على الشعر العربي إغفاله لشأن الأقصوصة الشعرية فجاء مطران يصحح ذلك بنماذج باقية من تصوّره أو اقتطافه من مطالعته التاريخية الواسعة . وهذا الجزء الأول من ديوانه مصطبغ بالصبغة القصصية في أكثر صفحاته ، ومن أجل هذه النماذج قصائده « نابوليون الأول وجندي يموت » (ص ٢٢) ، و « انّ من البيان لسحراً — حكاية شاعر في إحدى قبائل البادية » (ص ٣٧) ، و « شهيد المروءة وشهيدة الغرام » (ص ٦٤) ، و « وفاة » (ص ٨٤) ، و « العقاب » (ص ٩٢) ، و « مقتل بزرجمهر » (ص ٩٩) ، و « فنجان قهوة » (ص ١٢٣) ، و « الطفلة البويرية » (ص ١٣٧) و « فتاة الجبل الأسود » (ص ١٥٤) ، و « حكاية عاشقين » (ص ١٦٠ — ١٩٥) ، وهي جانبٌ عظيمٌ الأثر من حياة الشاعر) ، و « الجنين الشهيد » (ص ١٩٩) ، و « غرام طفلين » (ص ٢٢٣) . وهذه النماذج وحدها ثروة قصصية عظيمة للشعر الحديث ، فكان جهود مطران في هذا السبيل جهود عصبة من فحول الشعراء لا جهود شاعر واحد وإن يكن كبير الخطر في جراته وهمته . وقد أطلت سابقاً في سرد بعض الأمثلة الشعرية ، ولكنني غير مستطيع ذلك في هذا المقام لأن الأقصوصة الشعرية لا تجزأ والمجال لا يتسع لأكثر مما قدّمْتُ . ومن حقّ مطران على قراء العربية وعلى قراء مصر قبل الديار السورية أن يكون ديوانه في يد كل أديب مثقف وفي يد كل شاعر ناشئ . يتوق الى تقويم شعره ، فخيرٌ لي أن اكتفي بالأمثلة المتقدمة وحمي الإشارة الى الدروس الفنية التي تُستخلص من إبداع مطران ، فان مطران يرمى دائماً الى مثلٍ عالٍ من عرض أفاصيحه المختارة سواء أكانت تاريخية أم عصرية مع تجنب للصور الوهمية والمنتحبة ، ولذلك تجمىء جميعها مطبوعة بطابع الصدق ،

وهو في كل هذا الشاعر المربى الرائد والتفنان الملهم والملميم . وقد سَدَّ مطران بهذا الجهد الرائع فراغاً هائلاً في الشعر العربي لا يمكن أن يجده منصف^١ وإن لم يعرف الجاحدون قيمته بعد ، ولعلمهم يعرفونها يوماً ما عندما يتدبرون رسالة الشعر الحقيقية التي تسمو فوق التسلية الرخيصة والرزين-النظمي^٢ والبرقشة اللفظية .

ومن شيوخنا الأجلاء من^٣ يُعجب غاية الإعجاب بالغزل الصناعي المتجمع في دواوين صفي الدين الحلي والأبيوردي والأرجاني وأمثالهم ، فإلى هؤلاء الكرام أوجه رجاء تلميحهم الصغير بأن ينظروا نظرة مستقلة كريمة في شعر الحب النبيل الذي يتألق أو يتفرق في صفحات (ديوان الخليل) ، وعلى الأخص في القسم المعنون «حكاية عاشقين» (ص ١٦٠ - ١٩٥) ، فإن هذا الحب بسروره وأتراحه كان غذاءً فنياً عظيماً لمطران لم يشأ أن يتفرد به ، فحوّل رحيقه المنوع إلى شهد مصفى هو الذي نستمرؤه في شعره الغزلي وفي شعره القصصي الغرامي المنبث في ديوانه النابض بالحياة . فاذا كان شيوخنا الأجلاء لا يحبون الأقصوصة الشعرية الفنية مع أن مجد الشعر الأوروبي يقوم عليها فلا عذر لهم في إغفال الشعر الغزلي الصادق وشعر الحب العفيف النبيل الذي يزدان به (ديوان الخليل) فهو أكرم من معظم شعر الحب الذائع في الأدب العربي القديم العزيز لديهم .

وقريب^٤ من شعر الحب الشعر الوجداني العام ، ولمطران في هذا الباب آيات أشهرها «المرأة الناظرة أو عين الأم» (ص ١٣) ، و «وداع وسلام» (ص ٧٤) ، و «قلعة بعلبك» (ص ٧٦) وفيها ذكريات مؤثرة من طفولته وصباه في مسقط رأسه ، وعندى أنها من عيون الشعر الجدير بالاستيعاب ، وقد استعدتها من ذاكرتي مراراً فما شبت منها ، ويشق عليّ أن أصدّق قلبي عن رواية بعض أبياتها إذ يقول :

إيه آثارَ (بعلبك) ، سلام^٥ بعد طولِ النَّوى وبُعدِ المزارِ
ووثقت العفاء من عرصات^(١) مقويات^(٢) ، أو اهلِ بالفخارِ

(١) ديار (٢) خاليات من السكان

ذَكَرْنِي طُفُولِي وَأَعْبَدِي رَمَمَ عَهْدِي عَنْ أَعْيُنِي مَتَوَارِي
مَسْتَطَابِ الْحَالِينِ صَفْوًا وَشَجْوًا مَسْتَحَبِّ فِي النِّفَعِ وَالْإِضْرَارِ
يَوْمَ أَمْشَى عَلَى الظُّلُولِ السَّوَاجِي لَا افْتَرَارَهُ (١) بَيْنَ الْإِافْتَرَارِي
نَزَقًا بَيْنَهُنَّ ، غَرًّا لِعُوبًا لَاهِيًّا عَنْ تَبْصُرِهِ وَاعْتِبَارِهِ
مَسْتَقْلًا عَظِيمًا ، مَسْتَخْفًا مَا بَهَا مِنْ مَهَابَةٍ وَوَقَارِهِ
يَوْمَ أَخْلُو (بِهِنْد) نَلَهُو وَنَزَهُو وَالْهَوِي بَيْنَنَا أَلَيْفٌ مُجَارِي
نَتَبَارِي عَدُوًّا كَأَنَّا فَرَانَا رُوضَةٍ ، مَا لَنَا مِنْ اسْتِقْرَارِهِ
نَلْتَقِي تَارَةً وَنَشْرُدُ أُخْرَى كُلُّ تَرَبٍّ فِي مَخْبَأٍ مَتَدَارِي
فَإِذَا الْبُعْدُ طَالَ طَرْفَةَ عَيْنِهِ حَسْنَا الشُّوقُ مُؤَذِّنًا بِالْبِدَارِ
وَعِدَادَ اللَّحَاطِرِ نَصَفُو وَنَشَقَى بِجَوَارِهِ فَرَقَةٌ جَوَارِي
لَيْسَ فِي الدَّهْرِ مَحْضٌ سَعْدٍ وَلَكِنْ تَلَدَ السَّعْدَ مَحْنَةً الْإِكْدَارِ
كُلَّمَا نَلْتَقِي اعْتَنَقْنَا كَأَنَّا جِدُّ مَفْرَةٍ (٢) طَادُوا مِنَ الْأَسْفَارِ
قُبُلَاتٌ عَلَى عَفَافٍ مُنْحَاكِي قُبُلَاتِ الْإِنْدَاءِ وَالْأَسْحَارِ
وَاشْتَبَاكَ كَضْمٌ غَصْنٍ أَخَاهُ بِأَيَادِهِ غُرٌّ مِنَ النَّشْوَارِ
قَلْبُنَا طَاهِرٌ وَلَيْسَ خَلِيًّا أَطَهَرَ الْحُبُّ فِي قُلُوبِ الصِّغَارِ
كَانَ ذَلِكَ الْهَوِي سَلَامًا وَبِرْدًا فَانْتَدَى حِينَ شَبَّ جَذْوَةً فَارِ
حَبِذَا (هِنْدُ) ذَلِكَ الْعَهْدُ ، لَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى الرَّدَى وَالْبُورِ
هَدَى عَزَمِي النَّوَى وَقَوَّضَ جَسْمِي فِدْمَارُهُ يَمْشِي بِدَارِ دِمَارِهِ
إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ الْقَوِيَّةِ الرُّوحِ وَالِدِيَابِجَةِ ، الْأَصِيلَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ،
كَالْمَعْبُودِ فِي شِعْرِ مَطْرَانَ الْمُطْبُوعِ . هُنَا الْوَصْفُ وَالْقِصَّةُ وَالْمِظَةُ وَالْحَنِينُ
الْبَالِغُ إِلَى أَيَّامِ طُفُولَتِهِ وَصِبَاهِ وَمَلَاعِبِ هَوَاهِ الْعَذْرَى ، وَمَعَ احْتِشَادِ الصُّورِ
وَتَنَوُّعِ الْأَخْيَلَةِ وَازْدِحَامِ الْمَعَانِي فَانْ مَطْرَانَ لَا يَعْثُرُ فِي تَسْلِسُلِهِ الْفَنَى وَلَا يَصِيبُ
دِيَابِجَتَهُ الرَّصِينَةَ أَيْ وَهْنٌ . وَهَذِهِ الْخَاصِيَّةُ تَسْمَى فِي جَمِيعِ شِعْرِهِ ، وَلَيْسَتْ

مقصورة على شعره الوجداني لحسب ، ولا أستثنى حتى شعره الجرىء
العلمي الصبغة .

إنّ (ديوان الخليل) - مع كونه لا يعدو جزءاً من شعر مطران الزاخر -
مجموعةٌ كاملةٌ لتماذج الشعر السامي كأنه متحفٌ عزيزٌ للفنون الرفيعة ،
فوضوحاته الطريفة كثيرة ، وجماله الفني منوّع ، ودقّة معانيه وأخيلته وطرافة
أساليبه وجدّتها غيرٌ محدودة . وستعرف الأجيالُ المقبلةُ فضلَ مطران
على الشعر العربي ، وستجلّ شعره فوق إجلالها للكثيرين من المتقدمين اذا
كان أبناء هذا الجيل الحاضر في غفلةٍ عن خصال أدبه وثروته ، ولو كان
مثله في أمةٍ أوروبيةٍ لكان شعره بل شخصيته من موضوعات الدراسة
الأدبية في كلياتها أثناء حياته العامرة وبمدها .

وإنّ أنسَ لا أنسَ لمطران صفته البارزة كشاعر انساني شامل الحبّ ذي
أفق واسع ونظرة عميقة بعيدة تنفذ من خلال الأهواء والأغراض وتعشق
اللباب الخالص بروح مسيحية جميلة تأبى التعصب المرذول والرياء الذي ندّد
به السيد المسيح أيّ قنديدر . وفي قصيدته « الطفل الطاهر والحق الظاهر »
(ص ٢٤٢) مثلٌ بليغٌ لهذه الصفة العالية .

كذلك لا يجوز أن أنسى التنويه الخاصّ بروحه الديمقراطية الحرة واتصاره
للضعيف المظلوم مما سرى في شعره الميامي الذي لا أعرف شاعراً متقدماً
ولا معاصراً بلغ مثلَ مبلغه فيه . وحبك أن تطلع على شعره الناريّ في
حرب البوير (أنظر قصيده « حرب غير عادلة ولا متعادلة » - ص ١٤٧)
فالمبرة منه موجّهة الى جميع الأمم المستضعفة وفي مقدمتها الأمم العربية وبخاصة
مصرنا المحكيّنة

وقد أشرتُ الى أنّ شعر مطران زاخرٌ بألوان الطبيعة والتصوير والفكر
والفلسفة والذكاء والتخيّل الروائي ، ما بين مستقلةٍ ومتدخّلةٍ بعضها في بعض ،
دون أن يسلبه هذا مزاياه الفنائية التي قد لا تروق لأنصار التبع والليونة
المفرطة ... وأيّ حلاوة غنائية سليمة أعذب من الحلاوة الشائقة في مثل
هذا الشعر على ما فيه من لوعةٍ ، وقد نظمه في مناسبةٍ مُشجبةٍ حين خرج
صباحاً من منزله فاذا في طريقه نعشٌ مكسوفٌ بالبياض محلىّ بالزهر يتبعه وهطٌ من

الفتيان الافرنج فمأل أحدهم عن ذلك التقيد فأجابه أنه شاب انتحر غراماً
فخرجوا يشيعونه فشيئته معهم على غير معرفة به ، وطفق يرثيه بهذه
الآيات (ص ١٢) :

قَرَّبْتُهُ فَا ارْتَوَى وَجَفْتُهُ فَا ارْعَوَى
غَادَةً مِّنْ سَعَى اِلَى فَايَةٍ عِنْدَهَا رَعَوَى
جُنٌّ فِيهَا وَقْبَلَهُ جُنٌّ (قَيْسٌ) مِّنْ اَلْهُوَى
وَقَضَى خَالِدَ النُّوَى (١) يَتَدَاوَى مِّنَ النُّوَى
فَبَكَيْنَاهُ مِّنْ اَسَى (٢) وَابُّكَا لِلْاَسَى دَوَا
وَدَفْنَاهُ ، بَرَدَ الْغَيْثُ (٣) قَبْرًا بِهِ تَوَى
مَا عَرَفْنَاهُ قَبْلَ اَنْ مَاتَ صَبْرًا مِّنَ الْجَوَى
اِنَّمَا نَحْنُ فِي الْهُوَى اِخْوَةٌ حُكْمُنَا سَوَا
كُلُّ طَائِفَةٍ عِنَانَا فَهَوَ مِنْ اَهْلِنَا هُوَا
كَلَّمْنَا يَطْلُبُ الرَّدَى حَيْثَا سَعَدُهُ التَّوَى
فَالشَّجَاعُ الَّذِى مَضَى قَبْلُنَا يَحْمِلُ الْاَلْوَا
وَالْجَرَى الَّذِى اَقْتَمَى وَابَطَى الَّذِى نَوَى !

ومن شعره الغنائى الفنان أبياتٌ مختارةٌ كثيرةٌ من قصته الشعرية
المشهورة « وفاة » (ص ٨٤) ، وفي مطلعها يقول فى فتاة عوادة جميلة
انتهت حياتها بمأساة :

أَمِيرِى اِلَى طاصِى الْمَوْسَى يَتَطَوَّعُ وَنَادَى الْمُتَسَّى تُقْبَلُ عَلَيْكَ وَتُسْرَعُ !
أَفْقَرًا فِتَاةَ الرُّومِ وَالْحَمْنُ مَعْنَمٌ وَطَهْرًا وَهَذَا الْعَصْرُ عَصْرٌ تَمْتَعُ
اِلَى كَمْ تَطُوفِينَ الْبِلَادَ تَمُوًّا تَبْعِينَ صَوْتَ الْعُودِ لِلتَّمْتَعِ ؟
لَقَدْ كَانَ عَهْدٌ لِلْفَضِيلَةِ وَانْقَضَى وَأَبْدَعَ هَذَا الْمَهْدُ أَمْرًا فَأَبْدَى
وَلَوْ شِئْتَ قَالَ الْحُبُّ إِمْرَةً قَادِرٌ لِحَدْبِ هَذَا الْعَيْشِ : أَرْهَرُ وَأَمْرَعُ !

وللقفر: كن صرخاً مشيداً لأنمها وللصخر: كن روضاً وأورق وأفرعاً
وللظلمة الخابي بها النجم: أطلعي لها أنجماً إن تغرب الزهر تطعراً

أمّا فنّ الرثاء في شعر مطران فهو في الذروة ، وهو جماع التصوير
الصادق لصفات الفقيد ومآثره مع العظات البليغة التي تُستخلص من جهوده
وحياته ، وقد أشرت من قبل الى مرثيته الفائقة لزعيم مصر الخالد وفقيد
الشرق مصطفى كامل باشا . وفي الديوان مرات أخرى بليغة أشهرها رثاء
الشيخ نجيب الحدّاد (ص ٥٨) ورثاء الشيخ ابراهيم اليازجي (ص ٢٧٤) ،
ورثاء بشارة تقلا باشا (ص ١١٧) ، ومرثية « مغيب في البروغ » (ص ٢٣٤)
ورثاء محمود سامي باشا البارودي (ص ٢٣٨) ، ورثاء أمين فكرى باشا (ص
٦١) . وفيها جميعها من العاطفة الحارة ما فيها ومن لفحات الحزن ما لا يخفى
بجمال ، ولا بدع فطران لا يمدح ولا يرثى الاّ من جمعت به صلوات المحبة
أو الإعجاب والتقدير . وبينما تجمد في شعر مديحه الجبور والاتزان ترى في
شعر رثائه اللفظة الصارخة أو اللوعة الحائرة . استمع الى قوله في فقيد
الأدب الشيخ نجيب الحدّاد :

إرباً (١) بنفسك أن تكون نجيباً وازجرّ خليلك أن يكون أديباً
فلقد أرى موت الأديب حياته والعيش موتاً يلتقيه ضروباً (٢)
وأرى جوائز فضله وعُلمه إعساره والداء والتعذيباً
يا لذّكاء يُنبرنا بضيائه ويكون للجسم المضيء مُذيباً !
وهيات أن تجمد لمطران مرثيةً ولا مديحاً يعتمد على رصف الألفاظ
وحشد الخواطر الفكرية ، وإنما شعره هذا فيض شعوره ، وهو يتلوّن
بصلاته الاجتماعية بالناس الذين يقوله فيهم في الظروف السارة أو الحزينة ،
وهو بلا جدال من أنبل شعره في كلتا الحالتين . انّ صلوات مطران الاجتماعية
عديدة فمقول أن تتعدد قصائده الاجتماعية ، وإذا كان كثير منها سواء في
المدح أم الرثاء متعلقاً بعيون الأمة وساداتها من أهل السياسة والادارة ومن
اليهم ، فإنه لم يفتنه أن يمدح كروان النيل الشيخ سلامة حجازي لمحض

إعجابيه بفتنه التمثيلي وبصوته الرخيم (ص ٢٨٥) ، كما لم يفته أن يقدر
الإعلام من رجال الأدب والعلم والدين في قصائد رثائية يزدوج فيها الفكر
والعاطفة أحسن الازدواج وإن لم يناسب ذلك إجمالاً أذواق المصريين .

ولا يسمح لي المجال بزيادة الاطالة فأقول إن الأدب العربي الحديث
بل الأدب العربي على الاطلاق قد غم من آثار مطران الشعرية فتحاً عظيماً
وتجديداً مباركاً ، فإن هذا الشاعر الناضج الحر يؤدي أسمى رسالة انسانية
بروحه التي تعبد الحرية والاخاء والمساواة والتسامح ، وبطبيعته الفنية التي
صقلها في مرآة الطبيعة نفسها ، وبفكره المتعمق الناقد الذي جال وجال في
في خفايا النفس الانسانية ، وبثقافته المستوعبة التي تفسح آفاق تأملاته
وموضوعاته . ولهذا كان فرضاً وحثاً علينا جميعاً أن نحفل بأدب مطران
وأن ندرسه بفهم صحيح وباعزاز ومحبة ، لا أن تنهيه ونحذره ثم نوصي
بالابتعاد عنه ، فما كل جديد يُعاب ويُجتنب وما كل قديم يُمدح ويُحب .
(١٩١٠)

التعاون المالي

في مثل هذا الأوان من العام الفائت ألقى سعادة العلامة المفضل خمر
بك لطنى في قاعة الكلية الأهلية الحرة بالأسكندرية محاضرة شائقة عن
« شركات التعاون المالي والنقابات الزراعية » لو تدبرناها لوجدناها دستوراً
لسلامتنا الاقتصادية . قال سعادته حفظه الله فيما قال : « إن التعاون في البلاد
الغربية قوة من قواها الحيوية سواء كان من جهة مساعدة الناس بعضهم
لبعض مساعدة خيرية ، أو من جهة تكافلهم في أمورهم المعاشية وتخفيف ويلاتهم
وأثقالها ، أو من جهة تآزرهم وتآلفهم لتحسين وإعلاء ثروة البلاد بمساعدة
الزراعة والتجارة والصناعة . وكذلك تعددت صنوف التعاون في تلك البلاد ،
فإنها ما هو خاص بعمل الخير ومساعدة الفقراء وهو ما يسمى بالمتواليته ، وأكثر
هذه الشركات يؤسسها العمال في البلاد الغربية ويكتتبون له برأس مال يدفعونه
على أقساط أسبوعية أو شهرية بقصد إطاعة من يتعطل عن العمل منهم بسبب
مرض أو بسبب تقدمه في السن أو إطاعة ورثته بعد وفاته . ومن هذه

الشركات ما يكون الغرض منه ترخيص أمان الحاجات المنزلية واللوازم الشخصية كاللحوم والخضر والبقول والزيوت والملابس وغيرها مما يحتاج اليه الناس وذلك بواسطة اكتتاب كالمابق تشتري به تلك الضروريات وتباع لأعضاء الشركة بأثمان السوق ، ولكن تُقَيَّد لكل مشتري مشترياته اليومية وعند نهاية السنة يُعطى بعد خصم النفقات العمومية حصة في الأرباح بنسبة كمية مشترياته في خلال العام فتقوم عليه أثمان حاجاته بسعر مشتراها جملة ، وهو لا يخفى أقل من سعر التفصيل بما يوازي عشرة أو خمس عشرة في المائة ، وخصوصاً اذا كان لتلك الشركات رأس مال كبير يمكنها من صنع اللوازم على نفقتها من الجبن والزبدة وتربية المواشى المعدة للذبح ، فان ذلك أيضاً يضمن خفض الأثمان عن قيعه مشتراها من المتاجر الكبيرة بالجملة . ومن هذه الشركات ما الغرض منه مساعدة التجارة والصناعة والزراعة بالمال والنقد الضروري لتحسينها . وهذه الشركات تتكون من رأس مال غير محدود يدفعه المشتركون اليها مع اشتراط التضامن بين الأعضاء فيما يقترضونه من الآخرين (كما هي الحال في ألمانيا) أو بغير تضامن (كما هي الحال في البلاد الايطالية) . والغرض من تكوينها هو إقراض الأعضاء بعضهم لبعض مع أخذ الضمانات التي تكفل السداد ، فاذا لم يقف رأس المال بحاجات الأعضاء اقتضت الشركة ما يحتاجون اليه من المصارف الكبرى بفوائد زهيدة . وبالطبع ان تلك المصارف تعتمد الشركات وتساعدتها بالمال أكثر مما تساعد فرداً واحداً يقترض منها مهما كان مثيرياً غنياً . فصدر الثقة إذن بالأعضاء هو اتحادهم وتكاتفهم الذي يفتح الأبواب المغلقة في وجه غير المتضامنين من الأفراد .

وانتقل سعادة عمر بك لطفى بعد ذلك الى عرض تاريخي وعملي لضروب التعاون المالى مما اطلع عليه القراء في وقته ، وكان يُنتظر أن يكون له أثره بليغ في النفوس في الوقت الذي نطالب بدستورنا السياسى ونريد لكرامتنا القومية أن تستعيد عزتها السابقة ، ولكن العام انصرم واكتفى المتحمسون بالكلام والنشيد وبيع المساعى التي تلاشت جميعها تقريباً كما تتلاشى الفصول ولكن بغير ثمرة مع الأسف الشديد ... نحن نؤمن من سيطرة الأجانب على مالية البلاد حتى لا يوجد مصر مصرف وطنى واحد بالمعنى الصحيح ، ومع

ذلك لا تتحرك حركةً جديةً للقضاء على هذه الحالة المزرية وذلك بالمساهمة في تأسيس مصرف وطني قوى أو بتأسيس شبكة من شركات التعاون المالي والنقابات الزراعية وفاقاً لدعوة سعادة الوطنى المهام عمر لطفى بك ولا مشاحة في أن شركات التعاون المالى على ممر الزمن أجدى على الشعب من المصارف المالية الاعتيادية التى قد تتحول مع الزمن الى هيئات رأسمالية جامدة لا تعطف على الشعب فى أعماله ومشاريعه الاصلاحية والانتاجية العطف الواجب ، وبذلك ينتقل الشعب من سيطرة الرأسماليين الأجنب الى سيطرة الرأسماليين الوطنيين ، فينتقل من عسف الى عسف لا يختلفان الا فى الصبغة والدرجة . . . أمّا الشركات التعاونية والنقابات الزراعية فهى ذات شعبية بالمعنى الصحيح ، وتقويتها تقوية لروح الأمة الاقتصادية ، وتحقيقها تحقيق لسلامتنا المالية وللديمقراطية العملية فى أهم مرافقنا . وما من شك فى أن المستقبل للتعاون الشعبى فى كل شىء وللديمقراطية الصحيحة ، لا للرأسمالية المفرضة ولا للدكتاتورية الجامحة .

وخيراً ما توجه اليه جرائدنا عنايتها بدل هذه الموضوعات الانشائية السخيفة التى تملأ بها أنهارها أن تكاتف على تربية جيل جديد يفهم أن السلامة الاقتصادية هى أساس السلامة السياسية ويقدر أن التعاون الشعبى فى كل شىء هو المقياس الصحيح لرقى الأمة ونهضتها وهو المعيار الصادق لتربيتها الوطنية بالمعنى الأوفى .

(١٩١٠)



ذكرى مصطفى

مرّت الشهور وقد فرغ الشعراء والخطباء أو كادوا من نظم المرائى وإلقاء خطب التأبين ، ودار الحول ثم الحول وهمس الناعبون أن الأمة ستنسى مصطفى كما نسيت غيره من الزعماء من قبل ، بل كما ارتضت زمناً طويلاً أن تشوّه لها ممة قادتها الوطنيين عرابى وصحبه ... فلن يكون مصطفى كامل وحده فى عصمة من الاغفال والنسيان ...

ولكن مصطفى جاء فى أمته كما جاء المسيح فى قومه ، فقد ترك كلاماً خيرة روحية يزداد تفاعلها مع الزمن قوةً ونفوذاً . وهيات لى أن أنسى

كفرد صغير الأثر البالغ الذي تركته في نفسى جنازة الفقيد وقد قام الشعب على بكرة أبيه يشيِّعه بأحرّ العبرات وأخلص الزفرات . إنَّ هذا الأثر العميق الذي تغلغل في صميم نفسى وأنا أسيرُ في جنازته ليس بالأثر الوقتى ، فلن ينقطع نفاذه الى أبواب عمرى طال أم قصر ، وسيزيدنى الاطلاعُ على سيرة الفقيد ومكارم أخلاقه عرفاناً لمبلغ تضحيته في سبيل أمته وإجلالاً لسيرته .

ذكرتُ هذا من قبل وأنا أقرأ المقالة البليغة التى دمجتها عنه يراعة أستاذى مطران فى (المجلة المصرية) ، وأذكره اليوم وقد حال الحولُ على استشهاده .

يقول مطران : « ... وانه كما كان يرذل الرذيلة كان يكرم الفضيلة ، بل كان يعمل فوق ما يُستطاع ليكون مثلاً لها بسيرته . وناهيك منه على توفير أسباب الجاه والمال والشهرة له أنه :

لم يجلس فى قهوة أو مجتمع مطروق

لم يعاقر الخمر ولم يقامر

لم ينطق مرة بلفظة مستهجنة أو كلمة هجر

لم تأخذ عليه الظنون انصرافاً الى شهوة

لم يقل غير الصدق فيما يتعلق بشعوره الوطنى وشعوره الاجتماعى

لم يجامل فى سياسته الا حيث المجاملة تكسب البلاد تحقيقاً أضعاف ما

يمكن أن تضر

لم يخلف عهداً أو موعداً

لم يُصاف على دخل

لم يكن يحادث الا فى المفيد ، وكان حديثه مطرباً جذاباً غلاباً

بل كان على الجلة رجلاً كامل السيرة تقيها شريفها ، وحبذا لو كان له فى شبيبة مصر أمثال فى هذا المعنى . ومما يؤثر عنه فى جانب استقامة الخلق وصراحة الضمير أنه دخل ندوة فى إحدى عواصم أوروبا ومعه صديق من الكبراء المصريين ، فاذا واحداً من المعدودين بين سراة هذا القطر لثروة آراها

بتملّقه من درجة الخدمة في بيتِ الى سريرية البيت قد أقبل عليه مسلماً محتفياً ، فأبى أن يضع يده في يده وباعته بقوله له : إنك فارقتَ عيلةً جيباً لتتنعم في أوروبا ، فمتى أشبعتمهم غفر الله لك بعض ما جناه طمعك عليهم وغفر لك الناس ، فان لم تفعل فليحيك الأمراء وليزدلف اليك من شاء ، أما أنا فلا أكون الاً حساب ضميرك وعقاب جورك ا »

بمثل هذه الاستقامة الخلقية الفذة الى جانب شجاعته الأدبية النيرة استطاع مصطفى كامل في شبابه أن يكون زعيمَ أمته . وقد روى مطران النوادر والمآثر عن هذه الشجاعة الأدبية الخارقة والصراحة الشريفة والفظانة والألمعية وغيرها من المواهب التي بوّأته مكانة الصدارة في الأمة بينما لم يظفر بشيء من ذلك الكهول والشيخوخ الذين اعتادوا تزويق الكلام والاعتماد على قوى مختلفة لا تمتّ بصلة الى ثقة الأمة ، ثم شغلوا أنفسهم الأعوام الطويلة في الكيد له وكانوا بعد ذلك في طليعة المؤمنين

لم تسمح لي ظروف التعليم كما لم تسمح للكثيرين من الطلبة بالاستماع الى مصطفى كامل خطيباً ، على اعتبار أن ذلك اشتغال بالسياسة والاشتغال بالسياسة لأماننا جريمة لا تُغتفر ... ولكني وغيري من الشبيبة قد استمعنا وما نزال نستمع الى مصطفى من منبر الدهر ، فنتشرب تكراراً مبادئه الحية العالية ، ونغذّي أرواحنا بوطنيته السامية ، ونقبس من سيرته الرفيعة نبراس الرائدین .

(١٩١٠)

ثمار القلوب

كتابٌ جليلٌ في الأدب واللغة ومرجعٌ هامٌ لا يستغنى عنه أديبٌ مطلعٌ ، وهو من مؤلفات الامام الثعالبي وأحد الكتب التي أخرجتها مطبعة الظاهر ، وكان لي الحظُّ في التعاون على إخراج أحدها من قبل وأعني به كتاب (المنهج السلوك في سياسة الملوك) ، وقد خرج بحمد الله قليل الأخطاء ، ولكن كتاب الثعالبي نُكب على الرغم من العناية الخاصة التي

وُجِّهت إليه ... ذلك أن مصححه الفاضل الأديب محمد أفندي حسين عهد في أثناء مرضه إبتان الطبع الى أحد الأدباء الأزهريين الذين لا يرضون عن شيء لا يخرج من بيتهم فتصرف بالتصحيح والشرح المعكوس في صفحات من الكتاب ، وكان الرجل موضع ثقة من المصحح الفاضل لتظاهره بالعلم والأدب ، فما كاد يبل من مرضه الشديد الطويل إلا وقد ذاع الكتاب وانتشر وفيه ما فيه من الأغاليط ، فلم يعد في الامكان تصحيحها في الكتاب نفسه ... واذا كان الاقبال العظيم الذي لاقاه من جبهة الأدباء سيدعو قريباً الى إخراج طبعة جديدة منقحة منه ، فليس هذا بمائل دون التنبيه منذ الآن الى بعض هذه الأغاليط من قبيل المسال لا من قبيل الحصر ، مع استخلاص العظة من كل ذلك .

إنّ الذوق الأدبي ليس وليد الدراسة قبل الطبع ، ولن تنضجه كثرة الحشو والحفظ بغير تفهّم . واخواننا الأزهريون في المادة لا يقدرّون هذه الحقيقة ، وكادوا ينتهون أخيراً الى أن الشهرة قرينة التفوّق الأدبي ولو أغنت الشهرة عن المواهب لما قال أحد مشاهير أدبائهم مثل هذا الهراء في مدح المغفور له الخديوي توفيق باشا مشيراً الى ناقته المتوجّهة بحضرته الى سموّ الأمير :

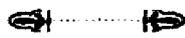
وأحجمت عن مسراى فارتاع قلبها وأنت أنين البكر في شدّة الطلّق !
فهذا الذوق الفاسد لا يمكن أن يتسرب الى شعرنا نحن الشبيبة ، ولا يمكن أن ينحدر ضعفنا الى شيء من هذا ولولم نتجاوز العقد الثاني من أعمارنا ، بل ان قصورنا هو الذي يدفعنا الى نشدان المعرفة الكاملة لا إلى مزالق الغرور والوهم . ولا يمعنا في الواقع إلا أن نضحك اذا اتّهمنا بجهل اللغة العربية أو التهاون في شأنها لمجرد أننا نعلم بالآداب العالمية حباً في استكمال معارفنا واستيفاء لتقافتنا لعلنا نستطيع في الوقت ذاته أن نسدى بعض الخدمات الى لغتنا الشريفة . نعم ، لا يسعنا إلا أن نضحك من ذلك الوهم والادّعاء ونحن نثبت بأعمالنا ذاتها عكس ذلك ، ويظهر أنه لن يبرئنا سوى لبس العمامة بدل الطربوش ، ولو كانت تحت العمامة رؤوس خاوية !

وهل غير رأس خاوي يمكن أن يفسد المنظوم في كتاب (ثمار القلوب)

ويرسم المنشور كأنه منظوم لولا الوزن الفاسد؟ وهل غير مثل هذا الرأس يمكن أن يسمّى بلدة البحتری وأبي فراس الحمداني (منبج) بدل (منبج) حينما هي أشهر من أن تُعرّف؟ ومن هذا اللفظ العبقرى الذى لا يستطيع أن يفسر كلمة ربداء بمعنى غرباء، ولا يفهم كلمة المشاجب بمعنى حمالات الثياب، ولا يعرف أن اظفور مفرد بمعنى ظفر، والضحضاح الماء اليمير أو القريب القمر، ثم شب وثبات جنونية في الحشو السخيف ثقلاً عن المعاجم لكلمات لا علاقة لها بموضوعاته مطلقاً لمجرد التشابه اللفظى؟! إن هذه مأساة وأية مأساة لولا أنها شائعة مع الأسف الشديد، حتى أصبح أى مأفون من هذا الطراز مستعداً لتكرار جنائته دون مبالاة، وإذا لم يُبجّز عُرماءه بالمكابرة بعد الاساءة فلا أقل من أن يقاطعهم!

ولا أعنى بشيء مما تقدم انتقاص فضل أعلام الأزهرين، فان هؤلاء لا يُشعر بهم وقلماً يزكّون عن معرفتهم، وانما أريدُ التنبية الى عنصر شائع من الأدعياء والى مناباتهم حتى يمكن استئصال شأفتهم، لأن تطفلهم على الأدب مسيء الى الأدب والى سمعة الأزهر والأزهرين، وهؤلاء جانون كذلك على سمعة العاملين المحسنين من غير الأزهرين بما يشونه من الدمايات التجارية لعلمهم الخاص كأنما اللغة أو الأدب وقف خاص عليهم، حتى اذا جاء وقت الامتحان الذى يُكرم فيه المرء أو يُهان لم يصمدوا للتجربة والاختبار ولم نغتم الا شرهم.

(١٩١٠)



تاريخ علم الادب

عند الافرنج والعرب

يشتمل هذا الكتاب على مقدمات تاريخية واجتماعية فى علم الادب عند الافرنج وما يقابله من ذلك عند العرب من إبان تمدنهم الى عصورهم الوسطى وما اقتبسه الافرنج عنهم فى الادب والشعر فى نهضتهم الاخيرة وخصوصاً على يد فيكتور هوجو، ويلحق بذلك ترجمة هذا الشاعر ووصف مناقبه ومواهبه

ومؤلفاته ومنظوماته وغير ذلك . وهو من تأليف أديب كبير اكتفى من اسمه بذكر « المقدسى » . وقد أصدرته ادارة مجلة (الهلال) منذ سبع سنوات تقريباً ، فلو كان مثل هذا الكتاب مما يُقرأ قراءةً جديةً ويُستفَع بتعاليمه لأحدث ثورةً اصلاحيةً في تفهّمنا العام للأدب . ولو كان لمثلي العاجز الصغير حقُّ البتِّ والتقدير لأمرتُ بتوزيعه على طلبة المدارس الثانوية والعالية ، ولنشرته بصفة خاصة في دار العلوم وفي المعاهد الدينية ولا سيما في الأزهر الشريف ، حتى يلمَّ الجميعُ بأسرار النهضة الأدبية وبعوامل انحطاطها ، ومن نعمة يُتاح لهم تقدير ما ينبغي لنا معرفتهُ وعملهُ لإعزاز لغتنا ورفع أديبنا ، بدل إلقاء القول على عواهنه وبدل التبرّع بالنقد المبهم لكل جديد مفيد .

وإذا كان محمد بك دياب في تأليفه (تاريخ آداب اللغة العربية) معذوراً ولو بعضَ العذر في إسقاط الموضوعات الخطيرة التي تناولها « المقدسى » لأن دياب بك جاء في زمن سابق ، فما عذرُ أساتذتنا الأجلّاء محمد عاطف بك والشيخ محمد نصار والشيخ أحمد ابراهيم وعبد الجواد افندي عبد المتعال في هذا الاغفال وقد أدركوا تأليف « المقدسى » ومفروض أنهم استوعبوه ؟ وما هي الطبعة الثانية من كتابهم (أدبيات اللغة العربية) أو على الأصح من جزئه الأول قد صدرت في العام الماضي فلم نجد فيها أية إضافة أو تغيير ، اللهم إلا إذا كان في النية إدخال ذلك في الجزء الثاني من الكتاب ، وهو أمرٌ مستبعدٌ لأن الدلائل تدلّ على حصر مادة الكتاب في الدراسات التقليدية المحضة .

إن أول ما يتبادر الى أذهان اخواننا الأزهريين والدراعمة كلمّا نهبناهم الى دراسة مثل هذا التأليف أننا نريد أن نحيد بهم عن الأدب العربي الخالص وأننا نحترق هذا الأدب ! وهذا وهمٌ باطلٌ ، فاعزازنا للأدب العربي لا يقلُّ عن إعزازهم من جميع الوجوه . وهم لو تدبروا تأليف « المقدسى » هذا بنفوس خالصة من شوائب التعصب الأعمى لوجدوا فيه الكثير الذي يشرف لغة الضاد الى جانب الكثير من العبر التي يجب أن نستفيد منها لتعاود النهوض بلغتنا . اقرأ مثلاً ما كتبه المؤلف عما اقتبسه الافرنج من قواعد الشعر العربي ومن أقاصيص العرب دع عنك العلوم العربية ، وما كتبه عن الطريقة

المدرسية والطريقة الرومانية في أدب الافرنج وما أخذوه من ذلك عن العرب أيضاً ، وهو في ذلك فياضٌ بالمعارف الغزيرة المشرقة .

وللتدليل على فضل هذا الرجل المحسن والمعلم الرائد أسوق على سبيل المثال هذا الفصل الوجيز من كتابه . قال : « لما حدث الانقلاب الكبير في انتقال الخلافة الاسلامية من الأمويين الى العباسيين وترجمت كتب العلم والحكمة الى لسان العرب قرأ أدباء المسلمين كتاب المنطق لأرسطو ورأوا فيه ذكرى أوميروس الشاعر والثناء عليه فلم يحفلوا بشعره ولا بشعر أحدٍ من الأماجم ، ولا التفتوا الى أساطير اليونان ولا لما وضعوه من الروايات التشخيصية ، ولا قدروا حرية فكرهم ولا ذوقهم في الكلام حقَّ قدره ، لاشتغالهم عن ذلك بما لديهم من فنون الشعر وأنواع الخطب والرسائل والدواوين والمعلقات ، ولا سيما ما أدهشهم من كلام الحديث والقرآن . فترجوا كتب المنطق والنجوم والطبيعات والطب والهندسة ، ولكنهم لم يترجوا لأديب من أدباء اليونان ولا أدباء الرومان لا قصيدة ولا خطبة ولا رواية ولا حكاية من حكايات أساطيرهم . ولعلمهم خافوا على الناس من الرجوع الى عبادة الأوثان إن بحثوا لهم في آلهة اليونان . ومع ذلك فترجمة كتب العلم والحكمة الى لسان العرب ظهر لها تأثير في توسيع أفكار الشعراء الاسلاميين ، وظهرت فيهم طبقة جديدة هي طبقة المتنبي والمعري في الشرق وابن هانيء في اشبيلية وهو المسمّى بمتنبي الغرب . فحيث كان لأهل هذه الطبقة نظرٌ في كتب العلم والحكمة فكلامهم أبدع معنى وأكثر فوائدا لاشتماله على آراء فلسفية وسياسية ومباحث عقلية وعلمية . غير أنهم خرجوا عن أساليب الشعر القديم ووضعوا من عندهم أساليب مخصوصة ، فقام عليهم المتعصبون لأساليب العرب الأقدمين وسلقوهم بألمنة حداد وشدّوا عليهم النكير كما فعل أصحابُ طريقة كلاسيك مع فيكتور هوغو حينما شهر طريقة (رومانتيك) . فالتمسكون بالأساليب القديمة من أدباء العرب يقولون إن نظم المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء لأنها لم يجربا على أساليب العرب المتخصصة إذ ليس كل كلام منظوم عند العرب يسمّى شعراً ، بل الشعر هو (الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصّل بأجزاء في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده

عما قبله وبعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة) ، فلا بد أن تجتمع هذه القيودُ في الكلام المنظوم حتى يُسمى شعراً . فما خلا عن الاستعارة والأوصاف مثل منظومات المتون العلمية والمدرسية والارجوزات الأخلاقية وقول العاصمى (أغلق الباب وائتنى بالطعام) ، أو ما خلا عن تساوى الأوزان واتحاد الروى كقولهم (ربَّ أخ كنت به مغتبطاً أشدَّ كفى بغرى صحبته تمسكاً منى بالود ولا أحسبه يغير العهد ولا يحول عنه أبداً فخاب فيه أملى ...) لأن الوزن لم تتساو أجزاءه في الطول والقصر والسواكن والحركات ، أو لم يجر على أساليب العرب المعروفة ، فهو حينئذ لا يكون شعراً منظوماً^(١) . أمّا الأسلوبُ في عرفهم فهو القالب الذى يفرغ فيه الشعر أو المنوال الذى الذى يُنسج عليه ، وذلك أنهم يقولون إذا أراد الطالبُ قرضَ الشعر ينبغى له أن يكثر من مطالعة أشعار العرب الأقدمين وأن يحفظها ويرتاض فيها حتى يصير له ملكة في كلامهم حينئذ يحصل في ذهنه قالبٌ كلُّى من التراكيب التى رآها في كل شعر من أشعارهم . وهذا القالب الكلى ينطبق على تلك التراكيب فسؤال الطلول قالب كلِّى يكون بخطاب الطلول كقوله (يا دار مية بالعلياء فالسند) ، ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله (قفا نسأل الدارَ التى خفَّ أهلها) ، أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله (قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل) ، أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله (ألم تسأل فتخبرك الرسومُ ؟) . وكذا تحية الطلول قالبٌ كلِّى يكون بالأمر لمخاطب غير معين بتحياتها كقوله (حىَّ الديارَ بجانب الغزل) أو بالدعاء لها بالمقيا كقوله :

أستى طلوهمو أجشُّ هزيمٌ وغدت عليهم نضرةٌ ونعيمٌ
أو بمؤاله المقيا لها من البرق كقوله :

يا برقُ طالعٌ منزلاً بالبرقِ واحدُ السحابِ لها حداءً الأنيقِ

وكذا التفجع في الجزع قالبٌ كلِّى يكون باستدعاء البكاء كقوله :

كذا فليجلَّ الخطبُ وليقدع الأمرُ وليس لعينٍ لم يفض ماؤها عُذرةٌ

(١) أنظر مقدمة ابن خلدون

أو باستعظام الحادث كقوله : (أرأيتَ مَنْ سَحَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ ؟)
أو بالتَمَجِّيعِ عَلَى الْإِكْوَانِ بِالصَّبِيَةِ لِقَوْلِهِ كَقَوْلِهِ :

مَنَابِتَ الْعُشْبِ لَا حَامٍ وَلَا رَاعٍ مَضَى الرَّدَى بِطَوِيلِ الرُّمَحِ وَالْبَاعِ
أَوْ بِالْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ لَمْ يَتَفَجَّعْ لَهُ مِنَ الْجَادَاتِ كَقَوْلِ الْخَارِجِيَّةِ :
أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لَكَ مَوْرِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَمْجِزْ عَلَى (ابنِ طَرِيفٍ) ١٤
أَوْ بِتَهْنِئَةِ فَرِيْقِهِ بِالرَّاحَةِ مِنْ ثَقْلِ وَطْأَتِهِ كَقَوْلِهِ :

أَلَى الرَّمَاحِ (رَيْبَعَةُ بْنُ نَذَارٍ) أَوْ دَى الرَّدَى بِفَرِيْقَتِكَ الْمَفْوَارِ
وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فَمَنْ أَرَادَ قَرْضَ الشَّعْرِ كَانَ هُوَ كَالْبِنَاءِ أَوِ النَّسَاجِ ،
وَالصُّوْرَةُ الذَّهِيْنَةُ الْمُنْطَبِقَةُ فِي ذَهْنِهِ كَالْقَالِبِ الَّذِي يُبْنَى فِيهِ أَوْ الْمُنْوَالِ الَّذِي
يُنْسَجُ عَلَيْهِ ، فَانْ خَرَجَ عَنِ الْقَالِبِ فِي بِنَائِهِ أَوْ عَنِ الْمُنْوَالِ فِي نَسْجِهِ كَانَ
فَاسِدًا . وَلِذَا رَأَى أَهْلُ الذُّوقِ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ :

لَمْ أَدْرِ حِينَ وَقَفْتُ بِالْإِطْلَالِ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ قَدِيمِهَا وَالبَالِي
كَلَامَ فَقِيهِ لِقَوْلِهِ (مَا الْفَرْقُ بَيْنَ قَدِيمِهَا) لِأَنَّ هَذَا مِنْ تَعْبِيرَاتِ الْفُقَهَاءِ
وَاصْطِلَاحَاتِهِمْ ، لَا مِنْ تَعْبِيرَاتِ الْأَدْبَاءِ ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْوُقُوفِ بِالْإِطْلَالِ . فَلَمْ
يَسْتَحْسِنْ أَهْلُ الذُّوقِ هَذَا الْبَيْتَ وَلَا وَجَدُوا فِيهِ رِقَّةً وَلَا بَهْجَةً وَلَا مَاءً ،
وَلِذَا لَمْ يَسْتَحْسِنُوا فِي الْأَدَبِ كَلَامَ الْفُقَهَاءِ وَلَا الْفَلَسْفَةَ مَعَ مَا فِي كَلَامِهِمْ مِنْ
الْمُنْطَقِ وَالْحِكْمَةِ ، تَخْلُوهُ مِنْ هَذَا النُّورِ الَّذِي يَتَلَأَلُ فِي كَلَامِ الْأَدْبَاءِ وَيَخْرُجُ
مِنْ نَفْسِ الْأَدِيبِ وَمِنْ قَلْبِهِ وَرُوحِهِ . وَأَمَّا كَلَامُ الْفُقَهَاءِ أَوِ الْفِيلَسُوفِ فَيَخْرُجُ
مِنْ عَقْلِهِ وَمَحَاكِمَتِهِ وَمَقَايِمَتِهِ . فَهُوَ وَإِنْ كَانَ بَرَهَانَهُ قَاطِعًا إِلَّا أَنْ تَأْثِيرُهُ عَلَى
النَّفُوسِ أَقْلُ مِنْ تَأْثِيرِ كَلَامِ الْأَدِيبِ . وَمِنْ كَثْرَةِ حَفْظِهِمْ لِأَشْعَارِ الْمُتَقَدِّمِينَ
رَسَخَتْ لَهُمْ مَلَكَةٌ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى كَادَ ذَوْقُهُمْ يَمِجُّ الْأَسْمَاءَ الَّتِي لَمْ تَرُدْ فِي
أَشْعَارِ الْجَاهِلِيَّةِ ! رُوِيَ أَنَّ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَخْبَرَ بَعْضَ خَلْفَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ قَصِيدَتَهُ :

بَانَ الْخَلِيْطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا أَوْ كَلَّمَا جَدَّوَا لِبَيْنِ تَمْجِزُ ؟
كَيْفَ الْعِزَاءُ وَلَمْ أَجِدْ مَذْبَنْتُمُوْ قَلْبًا يَقْرَهُ وَلَا شَرَابًا يَنْفَعُ ؟
قَالَ : وَكَانَ الْخَلِيْفَةُ يَزْحَفُ مِنْ حُسْنِ هَذَا الشَّعْرِ ، حَتَّى بَلَغَ قَوْلَهُ :

وَتَقُولُ (بُوْرَعُ) قَدْ دَبِيتَ عَلَى الْعَصَا هَلَّا هَزَيْتَ بَغَيْرِنَا يَا (بُوْرَعُ) ؟
فَقَالَ الْخَلِيْفَةُ : أَفْعَلْتِ شَعْرَكَ بِهَذَا الْاسْمِ ! لِأَنَّ مَعْمَعَ الْأَدِيبِ لَمْ يَأْلَفْ

اسم (بوزع) كما ألف (هند) و (عى) أو (فاطم) التي مشى بها أمرؤ القيس حتى أجاز ساحة الحىّ وهي تجرر أذيال المرط الموشى بالذهب ، ولا مشية فيكتور هوكو بمشوقته جوليت في مراقص باريس ومراسحها . ولم يزل الأدباء يبنون كلامهم في ذلك القالب وينسجون على ذلك المنوال حتى يومنا هذا كما فعل أصحاب المعلقات السبع التي نشرها صاحب (عكاظ) . وكلامهم السبع التي خصت بكرامة التعليق هي :-

كلمة نقيت الأشراف توفيق افندى البكرى ومظلمها :

أما وعين الله حلفة مقسم لقد قتت بالاسلام عن كل مسلم ،
وكلمة عبد الجليل افندى براده المدنى :

كذا فليكن ما يحرز المجد والفخر كذا فليكن ما يجمع الفتح والنصر
وكلمة جميل افندى الزهاوى البغدادى :

هو الفتح التي في قلوب العدى هولا وأثبت أن الحق يعلم ولا يعلم
وكلمة أحمد شوقى بك المصرى :

بسينيك يعلم الحق والحق أغلب ويُنصر دين الله أيتان تضرب
وكلمة مجد ولى الدين بك يكن المصرى :

أبت ضيمها في الناس ، كيف أضيّمها حياة تماوى بؤسها ونعيمها
وكلمة أحمد محرم افندى المصرى :

منازل (سلمى) لا عدتك الفنائم ولا درست بالجزع منك المعالم
وكلمة أبى النصر الملاوى باشا المصرى .

على مثلها فلتحمد الهمم الغر فما هي الا الحرب أعقبها النصر
فلتنبى والمعرى خرجا عن هذا القالب وذلك المنوال الذى وضعه شعراء
الجاهلية وجعل كل منها له مذهباً مخصوصاً فى الأدب وأساليب معروفة فى
الشعر ، ولذا قال ابن خلدون : (وكان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا فى هذه

الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء
لأنهما لم يجريا على أساليب العرب .

وبعد أن كان حسان يقول :

وانَّ أحسنَ بيتٍ أنتَ قائلهُ بيثُّ يُقال إذا أنشدتهُ : صدقًا
وعمر بن الخطَّاب رضى الله عنه يقول : كان زهيرٌ لا يمدح الرجلَ إلا
بما فيه - صار أهلُ هذه الطبقة من الشعراء المستنيرين بنور ما تُرجم
من كتب العلم يمدحون بأشعارهم أمراءَ العجم الذين لا يفقهون دقائقَ البلاغة
العربية طالبن معروفهم فقط لا سوى ذلك من الأغراض ، كما فعل حبيب
والبحتري والمتنبي وابن هاني ومن بعدهم ، فإنَّ حبيباً الملقب بأبي تمام
وُلد في قرية بجوار دمشق ونشأ في مصر وطاف الشام والعراق وخراسان ،
ومدح الخلفاء والملوك والأمراء بقصائد كثيرة ، والبحتري وُلد في قرية
بجوار حلب ثم ذهب لبغداد ومدح الخليفة المتوكل ثم طاف بلاد الشام
ومدح الأمراء واجتمع في حمص على أبي تمام ، والمتنبي وُلد في الكوفة
وأبوه سقاء من قبيلة جعف فجاء دمشق ومدح سيف الدولة من آل حمدان
ثم ذهب لمصر ومدح كافور الاخشيدى الخصى الأسود ، ثم ذهب لبغداد
وخراسان ومدح عضد الدولة من آل بويه وغيرهم ، وهو ممن حاول أن يأتي
بمثل القرآن كابن المقفع ولكنها عجزا وأبطلا ما كتباه ، ولنا هجا بعضهم
المتنبي فقال :

أى فضلٍ لشاعرٍ يطلب الفضلَ من الناسِ بكرةً وعشياً
طاش حيناً يبيعُ في الكوفةِ الماءَ وحيناً يبيعُ ماءَ المُعَبِّياتِ

وكذا ابنُ هاني متنبي الغرب وُلد في اشبيلية وطاف بلاد افريقية ومدح
أمراء البربر ، وهو القائل في المعز لدين الله :

ما شئتَ لا ما شاءتْ الأقدارُ فاحكم ، فانتَ الواحدُ القهارُ ا

فصار غرضُ الشعر في الغالب إنما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع
التي كانت فيه للأولين ، وصار يقال أحسن الشعر أكذبه ا وقد شعراء
العرب العجم في مبالغتهم وتملّتهم للأمراء دفعاً للشراً واستجلاباً للاحسان

والخيز . واستبدُّ الرؤساءُ بالأمر وقويت فيهم الشوكة والملطة فلم تبق بهم حاجةٌ لاستعمال فنِّ الخطابة وطلاقة اللسان لاجتذاب قلوب الأمة اليهم ، بل رأوا من المصلحة الذاتية قهرهم بالقوة وإرهابهم بحمدِّ السيف ، فاستخفوا بالأمة وبالرأى العام وتملأوا بقول أبي تمام :

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتب !

وبقول عمارة اليميني السياسي :

وشفرةُ السيفِ تمتغنى عن القلم ^(١)

وفعلوا بالأمة ما قاله لها الحجاج سابقاً : (لأعصبنكم عصب السلعة ، وألحونكم لحوَّ العصا ، ولأضربنكم ضربَ غرائب الأبل يا أهل العراق ! يا أهل الشقاق والتفاق ومساوىء الأخلاق ! أنى والله سمعتُ لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذى يُراد به الله فى الترغيب ، ولكنه التكبير الذى يُراد به التهيب ! يا عبيدَ العصا وأشباهَ الاماء ! إنما مثلى ومثلكم ما قاله ابن بركة الهمداني :

وكنتُ اذا قومٌ غزوني غزوتهم فهل أنا فى ذا يا اهل همدان ظالمٌ ؟

مضى تجمع القلب الذكى وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالمُ

وقال المعتضد عند وفاته فى سنة ٢٨٩ هـ . وهو سادس عشر الخلفاء العباسيين ، ولعله ندم على هذا الاستبداد :

ولا تأمنن ، الدهرَ إني أمنتُهُ فلم يُبق لي خلاً ولم يرعَ لي حقاً
قتلتُ صناديدَ الرجالِ ، ولم أدعُ عدوًّا ، ولم أمهل على طغيه خَلقاً
وأخليتُ دارَ المسلكِ من كلِّ نازعٍ فشردتهم غرباً ومزقتهم شرقاً
فلما بلغتُ النجمَ عزّاً ورفعةً فما أنا ذا فى حُفرتى ماجلاً ألقى !

(١) والشطرة الاولى (العلم مذ كان محتاج الى العلم) أو (العلم أول محتاج الى العلم) وهو مطلع نصيدة حرض فيها شمس الدولة على تملك اليمن . ومن أبحاثها للتلبية تلب الجمر قوله :
إن المالى عروس غير وامقة إن لم تخلق ردائها برشح دم
ومنها : وكان أول هذا الدين من رجل سعى الى أن دعوه سيد الامم

وقد طبع ديوانه الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ سنة ١٨٩٧ مع كتابه (النكت المصرية فى أخبار الوزاة المصرية) .

ولكن الرؤساء من الأاطجم فعلوا فعلاً بلا قولٍ لعجبة لسانهم ، وأصبح تعاطى الشعر هجناً في الرئاسة ومذمة لأهل المناصب الكبيرة ! وقدّموا الجهلاء على الشعراء ودعّوهم بالظرفاء وأُهملت فنونُ الأدب وبلغ التفريط في جانب الفصاحة اللسانية الى درجة كاد فيها الرؤساء لا يفوهون بكلمة في المجالس ويعتبرون السكوت عين الأدب ، واذا اجتمعوا في حفلة اکتفوا بسماع الدماء المأثور ! وكثيراً ما يتلوه أجهل المجتمعين ويكون قد حفظ الدماء من الصغر بالسماع ! شاهدتُ أحدَ الولاة انخدع بمن يتلو الدماء المأثور وظنه من العلماء لطول لحيته وكبر عمته ، فأراد تعيينه في منصب فقيل أمي ! فلم يصدق ودماه ليلةً وطلب منه أن يقرأ عليه ما كتبتّه جريدة (الجوائب) إذ ذاك ، فلما أمسك الجريدة بالعكس فهمّ الوالى وتلاهى عنه ولم يعيّنهُ ولقد دقق في هذا المبحث عبد الرحيم أفندى أحمد مبعوث مصر في مؤتمر المستشرقين الحادى عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧ ووجد نسبةً تامةً بين الحرية وبين ارتقاء لسان العرب ، فكلمها اتسع نطاقُ الحرية في الدولة اتسع معه نطاقُ الأدب في العربية وزادت فصاحة هذا اللسان وبلاغته وكلمها زاد الاستبداد تقيدت عقولُ الأدباء بالسلاسل وصاروا ينطقون بما يوافق الزمان والمشرّب لا بما يشعرون به ويعلمونه ويرونه . قال مبعوث مصر المشار اليه : (ولقد لاحظتُ في المتكلمين بلسان العرب أن الحرية إذا فُقدتُ منهم كثر في كلامهم تكرار الازمة مثل نعم ، وهاهم ، هكذا ، احلم ياسيدى ، الخلاصة ، النتيجة ، وأمثال ذلك من الكلمات التي يرددها المتكلم . هذا في المحاطبات بين اثنين ، وأما الاجتماعات العمومية كالأفراح والعزاء واستقبال الولاة والقضاة فأمّا أن ينقضى الاجتماع بالسكوت والهمس أو بتلاوة الدماء المأثور . وإن جُعِل للأدب حرمةٌ فيُتلى في ذلك الاجتماع قصيدة مدح أو تبريك أو عزاء ، وينفضّ الجمعُ بغير أن يفوه الرئيس بما يقتضيه الحال والمقام ويصوّر بكلامه حالة تلك الهيئه المجتمعة (ا. هـ . »

حقيقة ما أشبه اللبلة بالبارحة ! ألسنا نجد محرّماً أو شبه محرّماً على الموظفين الاشتغال بالأدب أو الفنّ الى جانب الاشتغال بالسياسة ؟ ألا تُباح

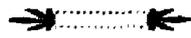
للموظف في حياته الخاصة كل موبقة حينما يجرم عليه اتفاق وقته الخالي فيما يجدى من تسلية ، وعلى الأخص إذا كانت أدباً أو فناً ؟ ألم يتدرج التحريم حتى بلغ طبقة الطلبة فصار شبه معرفة أن يعرف عن أحدهم أى تعلق بالأدب فضلاً عن الانتاج فيه ؟ وقد ذاق كاتب هذه السطور غير قليل من الانتقاص حتى في بيئات مفروض أنها متعلمة لمجرد أنه أديب من أدباء الشبان المنتجين ، وقد أجاد التاريخ نفسه أيضاً بالنسبة للعبودية للغة المتقدمين وطرز تعابيرهم ، فمن لم يفعل ذلك فليس من أهل القلم لا ثراً ولا نظماً ! أمّا الحرص على الشخصية الأدبية التي لا يمكن أن تقوم لها قاعة بغير الحرية المطلقة التي لا تسندها غير الثقافة الناضجة فأمره ناه لا يمرّ ببال النقاد المنتنعين ، وقياساً على ذلك يعدّ الرصافي شاعراً شبه كامل ، وأمّا مطران مثلاً « فحسوب ظمناً في عداد الشعراء » ... واني آخر من ينتقص شاعرية الرصافي ، فللرجل حسناته وخصوصاً في كونيّاته ، ولكنه مسلوب الشخصية في كثير من شعره ، ومثل هذا الشعر يولد ميتاً حتماً ، شأنه في ذلك شأن جميع النظم التقليدي العرفي .

سيمرّ هذا الجيل بل قد تمرّ أجيال قبل أن يتخلص الأدب العربي من هذه السموم ويبدأ حياة جديدة في طاقية تامة . فاعلينا الا أن نقنع بأداء الواجب دون أن نتنظر أى إنصاف في الحاضر ولا في المستقبل لا لأنفسنا ولا لمعلمينا الأحرار ... ولو وقّقنا لأداء واجبنا الأدبي بالرغم من العراقيل السكينة التي تفرضها البيئة والتقاليد لكان لنا من ذلك مكافأة عظيمة ، فانا في ظروف لا تُبشّر بغير الخذلان التام ، فالنجاح فيها بل بعض النجاح ليس بالحظ اليسير ولو اقتضى بلوغه جيلاً أو جيلين أو ثلاثة .

ولا يسعني في ختام هذا المقال الا تهنئة الأديب « المقدسي » بهذه الألمعية الجريئة الفيورة ، مناشداً في الوقت ذاته كلّ غيور على لغة الضاد أن يدرس بدقة هذا السفر البليغ ليعرف أسرار نهضتنا الماضية وأسباب تدهورها ، فان مقارنة الآداب خير معين على هذا الدرس ، يُضاف الى ذلك الإلمام الكافي بشاعر من أعظم شعراء الانسانية وحامل لواء الشعر الأوروبي في منتصف القرن الثامن ألا وهو فكتور هوجو ، فان الأديب « المقدسي » لم تفته شاردة ولا واردة بشأنه فذكر ما له وما عليه بأسهاب واف وفي أسلوب

جذاب مما يمتاز عن اطلاعه العظيم ويقرّبان الموضوع للقارئ العربي البحت على أحسن صورة ، كأنما هو يتأمل سيرة شاعر عربي صميم ، وهذه مقدرة فائقة لمؤلف الكتاب منشؤها بلا شك إيمانه التام بموضوعه ووقوفه الشامل على جميع تفاصيله وقدرته البيانية . فكيف يبقى كتاب رائع كهذا بمعزل حتى عن مكتبات المدارس وحتى عن الدراسات الأدبية في المجلات والصحف ؟ لقد كنت أحب أن مقاطع الصحف والمجلات مقصورة على آثارنا نحن الشباب الناشئين ، فإذا بي أجد هذا الحرمان شاملاً لخير الآثار الأدبية الجديدة التي لا أستطيع أن أعتبر في هذا عزاءً لأمتي لأنه شرٌّ عزاء ، ولكنني أعدّه مسبةً لمصر الحديثة التي لا تزال حتى في الأدب راضخة لأحكام المهائم ، وما أشبه معظمها بعامة قارئ (الجواب) المألقة الذكر !

(١٩١٠)



الاستسلام أم الكفاح ؟

طوت المنية في مستهل هذا القرن عبقرية فذة في شخص الفيلسوف الألماني الكبير فردريك ولهم نيتشه . كان نيتشه شاعريّ الروح فيلسوف التفكير ، وقد تأثر بداروين كما تأثر بكانت ، فاستغلّ نظرية داروين في تفكيره في « الانسان الاسمي » واستغلّ نظرية كانت في الحكم بأنه ليست عمّة معرفة بل معنى الصادق الأتم ، وانتهى بناءً على ذلك الى أن خير العقائد ما كانت أنفع للناس إذ لا يوجد منها ما هو صادق ولا ما هو كاذب فكلّها شروح وتفسيرات نسبية ووقتيّة مبنية على التخيل والوهم . ومع أن نيتشه من أسرة عريقة في تقاليدھا الدينية فانه فقد إيمانه بالله في الثامنة عشرة من سنه وطاش بقية حياته ملحداً ، كما أن فشله في حبّه حوّلته الى كارهٍ للمرأة يعشق العزلة والقوة ، ويعتبر الضعف مرادفاً للرذيلة ، ويتطلع في أحلامه الى ظهور الانسان الجبّار الممتاز أي الانسان الاسمي (السوبرمان) في مقبل الأجيال ... وعلى هذا كان نيتشه يُصغر الديمقراطية والمسيحية ويتعلق بالرغم من ضعفه الجسماني بمبدأ القوة العاشمة في صور من القسوة ازاء كل خائره

...ولكن اذا كان نيتشه قد انتهى به تفكيره الشاذ الجامح الى الجنون في
أواخر أعوامه ، فانه مع ذلك كان يسند بمنطق سليم نقاء الأصلح ومغالبة
الطبيعة بإيجاد (السوبرمان) تدريجياً ، فترتفع بذلك منزلة الجنس البشرى بما
لا تقاس بجانبها منزلته الحاضرة . كان نيتشه يؤمن « بالارادة » إيمان
شوبنهاور بها ، ولكن حينما كان شوبنهاور يريد بروحه البوذية أن تكون
هذه الارادة هدّامةً مُفنيةً للجنس البشرى ليستريح من الشقاء الدنيوى
كان نيتشه يبشر باستغلال هذه الارادة لخلق (السوبرمان) .

كان آرثر شوبنهاور شاذّ التفكير من ناحية هدّامةٍ كما قدّمَتْ ، وقد
ورث هذا المرض الفكرى أو بذرته عن والدته التى كان زوجها أكبر منها
سناً بمشرين عاماً ، فكان لذلك تأثير جنسى بالغ فيها انتقل الى ابنها آرثر
والى أخته أديل وأفسد تفكيرهما الطبيعى ، يُضاف الى ذلك العنصر الوراثى
من والدهما نفسه الذى مات منتحراً ... ومع كلّ فقد كان شوبنهاور فى ميدان
تفكيره عبقريةً خارقةً ولكنها عبقريةٌ هدّامةٌ . وقد كان الخلاف مستحكماً
بين شوبنهاور وأمه ، وكان من آثار ذلك كراهيته للمرأة عامة . وعاش
شوبنهاور يخشى السرقة والجريمة ويخشى حتى موسى الحلاق ناظراً الى الدنيا
جميعها بمنظار أسود ا وقد نفى نفسه بإرادته عن الانسانية نفيّاً تاماً ، واتخذ
من كراهيته للفيلسوف هيجل شعلةً فى ظلماته ، ولكنها شعلةُ الجنون لا
الهداية ا

كان شوبنهاور يعدّ « الارادة » الانسانية هى صاحبة السيطرة العليا حتى
فى تكوين الجسم وأنها جماعُ إرادات سابقة على تمرُّ الأجيال . ولكنه
يستنتج مخطئاً أنه اذا كانت الدنيا إرادة فلا بدّ أنها إذن إرادةٌ شقاء ، لأن
الحياة مزدحمة بألوان الشقاء حتى ليحتمى الانسان بالدين هرباً من هذا الشقاء
كما قد يحتمى العقل بالجنون لنفس السبب ، وقد عدّ العباقرة أنصافاً
مجانين لأنهم بتفكيرهم يسمون فوق « الارادة » ... أمّا وجه الخطأ فى
تفكير شوبنهاور فيرجع الى نظرتة المعكوسة التى ورثها عن مطالعته البوذية
التي ترمى الى هدم « الارادة » الحيوية والاندماج فى « الترفانا » ، وهى
الحالة النفسية التى تنعدم فيها « الارادة » الى أهونر قطرٍ وفيها يتخلى

الانسان عن المرأة تخلياً تاماً ، مغالياً في تقدير هذه « الارادة » ، ناسياً أن الانسانية ما تزال نسبية في طفولتها ، وهي كلما تعلمت ونظمت نفسها ضمنت السعادة لمجموعها تدريجياً في صور شتى ، وهي الآن في الواقع أهناً حالاً مما كانت منذ قرون ، والمهم هو النوع الانساني جملة لا فرد معين ، ومضى سعد النوع وتسامى فناءه الأفراد مرجوة . وخير من متابعة شوبنهاور أن نتابع أوجست كونت في دعوته إيانا الى اجتناب ما لا يقبل العلم من البحث المطلق وتوجيه عنايتنا الى خدمة الثقافة العامة ، وتمويل الحماسة الدينية الى الانسانية ذاتها وخيرها بدل توجيهها الى خالق مجهول ، وبذلك تقضى على التعصبات والفوارق الدينية السخيفة وتتخذ مملكة إيجابياً معقولاً .

ومع العيوب المموسة في مذهبي كل من شوبنهاور ونيتشه فعندى أن نيتشه هو الأصح خصوصاً اذا لطفنا مذهبه بتعاليم كونت المائقة الذكر ، لأننا حينئذ نجتمع بين سداد القوة وجمال الرحمة ، ونندمج في عزة الآلوهة الخلاقة المهدية للكون والحياة وإن جهلنا كلنا ولم يتجاوب معها معظمنا ! وبعد هذا وذاك فمن الفوارق العجيبة أن يدعونا الرشاد الى المفاضلة بين رأى مجنونين ، وأن نجد العصمة على كل حال في رأى أحدها !

(١٩١١)

شجاعة المعرفة

كان في جيرة حصن جواليو بالهند مستنقع تظهر عليه بعد انتهاء فصل المطر أضواء غريبة محيرة ، وكان الأهالي يتخيّلون عن بعد صوراً حاشية لأمير هندي ممن قتلوا في إحدى المعارك . كان ذلك في سنة ١٨٢٠ م . وكانت هذه العقيدة متسلطة على نفوس الهنود الى درجة تخوف شجعانهم من الكشف عن حقيقة هذه الأضواء ليلاً ، وكان عذر المنتحي أنه لا يهرب من ملاقات الفرسان ، ولكنه لن يقوى على ملاقات الأشباح ! أما الحقيقة فهي أن تلك الأضواء التي خلق الوهم منها موكباً للجن

لم تكن إلا ألقاً فسفورياً مصدره الأخشاب المتفحّنة ونحوها في المنتقع
وقد نمت فيه ملايين البكتيريا التي تحوى أجسامها فسفوراً مشعاً
هذه الخرافة التي خلقها الجهل وصارت مثلاً يُضرب به ليست شيئاً مذكوراً
بجانب الخرافات المركّبة التي حماها الجهل أو فقدان الشجاعة الأدبية فتغلّغت
في العقائد وأصبحت مسيطرة على الحياة الانسانية في وقاحة التحدّي حتى بات
يماؤها نمر غير قليل من العلماء خشية على أنفسهم من تعصب الدهماء لأساطير الأولين .
ولا مشاحة في أن سعادة الانسانية المقبلة تترتب على نشر المعرفة الصحيحة
القائمة على العلم الصادق وحده حتى لا يبقى الناس من عقائدهم وتقاليدهم
وإاداتهم غارقين الى أذقانهم في مثل خرافة حصن جواليور بل فيما هو شر منها .
ومما يُؤسف له أن الشبيبة المتعلّمة — ولا أستثنى غير قليل من
طلبة الطب — لا تزال ضحية التعليم الآلى وهو مرادف للجهل المركّب من
ناحية تكوين الثقافة الحرة ، فتكتفى بالحفظ دون التفهم ، بحيث أن النقاش في أى
موضوع يستدعى التفكير العميق يستحيل سريعاً إمّا الى هزيمة أو الى مكابرة
لحماتها وسداها سطحية التأمّل والقناعة بالقشور المألوفة . وكيف يحترم شخص
يقال عنه إنه متعلم اذا دلّ تعليمه عند المناظرة على التعصّب الأعمى لأساطير
الأولين وعلى مجرد الحفظ الآلى لما استوعب ؟ وكيف يربّجى التحرّر الفكرى
للمجموع ثم التنظيم المدنى الصالح اذا كان ذلك حال جبهة المتعلمين أنفسهم ؟
لقد بذل الدكتور شبلى شمىل مجهود الجبارة في نشر المعرفة الصحيحة .
ولو كانت عندنا جمعية قوية تُعنى بانقاذ الشعب من سيطرة الجهالة لقامت
بنشر ترجمة كتاب (لغز العالم) للعلامة إرنست هيكل ولأذاعته بعشرات
الآلاف من النسخ ، ولكننا بدل ذلك نرضخ لسيطرة مشايخ الصوفية ولألوان
الجهالات الخائقة للفكر والحرية الرأى حينما انجلترا المسيحية حامية البروتستانتية تسمح
في نفس عاصمتها بنشر ألوان التفكير الأدبى والفلسفى والدينى على السواء ولو خالف
ذلك العقيدة البروتستانتية كل المخالفة ، وبذلك قضت على روح النفاق وعززت
الأخلاق العالية .

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح

سحر الموسيقى

يُروى عن شوبن (Chopin) (١) الملحن البولندي العظيم أنه كان في مدرسة داخلية هاج تلاميذها في إحدى الامسيات . وكان ناظر المدرسة (وهو والد شوبن) متغيباً عن المدرسة في ذلك الوقت ولم يستطع مساعدته أن يسمع ذلك الاضطراب . فأقبل شوبن على الحجرة المضطربة وعرض على التلاميذ أن يحكى لهم حكاية موسيقية . فقبل الجميع هذا العرض وذهبوا الى أسرّتهم ، ثم أطفئت الأنوار ، وأخذ شوبن يعزف على البيانو التي لم تكن بعيدة عن حجرة النوم . وكانت الحكاية التي سردها بالسنة البيانو متعلقةً بأشارة لصوص استعملوا سلام من الجبال لبلوغ النوافذ ، وبينما كانوا يصعدون على السلام سمعوا صوتاً مفاجئاً (وقد عبّر عنه شوبن على البيانو بدهدهة فجائية) ، فذمروا منه وهربوا الى الغابة (وهنا عبّر شوبن عن فرارهم بأصوات سريعة على البيانو) حتى إذا ما بلغوها أخذوا يرقدون تحت الأشجار (أصوات بطيئة على البيانو) ثم ناموا ...

ولما بلغ شوبن بحكايته الى هذه النقطة لاحظ هدوء التلاميذ فتسلل الى والدته واخوانه وذهب الجميع بحذر الى حجرة النوم مستضيئين بالشموع ، فاذا بأولئك التلاميذ الصاخبين في نوم عميق ! ...

وقد قضيتُ سنوات في (المدرسة التوفيقية) سواء في التعليم الابتدائي والثانوي ، فكنتُ أشعر على الرغم من محبتي لمدرستي العزيزة بأنى أحياناً أعيشُ في سجن ، لولا أنى متطوعٌ للبقاء فيه إذ كان ذلك بمحض رغبتي ، وقد حاول أهلي مراتٍ إثنائى عن هذه الدراسة الداخلية فكنتُ أزداد تعلقاً بها وبذكرياتها وسط نخبة من أصدقائى الأدباء في القسم الداخلى والقسم الخارجى على السواء وفي مقدمتهم أحمد محمود عزمى وعلى توفيق شوشة والسيد أبو الفتوح ونجيب اسكندر وراغب اسكندر . ولكنى كنتُ أحسُّ بافتقار الى رياضتين نفسييتين ذهنيّتين إحداهما الموسيقى والأخرى السينما . ولستُ أدري لماذا تُحرّمُ المدارسُ الداخليةُ بل المدارسُ عامةُ البرامجَ الموسيقية والسينمائية

(١) كتاب (الملحنون العظماء) Great Composers تأليف C. E. Bourne طبعة ١٨٨٧ م .

لمتعة الطلبة وتهذيبهم الوجداني بين وقت وآخر ، اللهم إلا إذا كانت الفكرة القديمة عن أن هذه المتعة الفنية مجرد هورٍ وعبثٍ لا تزال مسيطرة على أفكار رجال التعليم سيطرتها على الأهلين ، وهو أمر من الغرابة بمكان ، إذ قرأ عن حفاوة الأوربيين والأمريكيين بكل من الموسيقى والسيناء بل والتمثيل أيضاً في مدارسهم . ولا أنكر أني وزملائي غنمنا بعض المشاهد السينمائية في المدرسة ، ولكنها جميعها كانت متعلقة بموضوعات علمية فقط كحياة النبات وبعض المشاهد الفلكية وحياة النحل . ولست أنكر أن دراسة النحل قد حببتني إلى تربيته والمحاضرات الفلكية قد زادتنى شغفاً بهذا العلم الذي أصبحت أعدّه لوناً من العبادة ، ولكني كثيراً ما كنت أحس بالحاجة إلى مشاهدة الصور المتحركة الراقية لموضوعات أدبية ممتازة تختارها المدرسة كما كنت أحس بالحاجة الملحة إلى المتعة الموسيقية من قطع راقية من الموسيقى العالمية كوسيقى وجنر وبيتهوفن وفردى ، على أن يكون أداؤها بواسطة الحاكى تحت إشراف ضابط المدرسة ولو مرة أو مرتين في الأسبوع . وها هو فردى قد لحن الأوبرا المصرية الجميلة (عائده) ومع ذلك كان أكثر الناس حرماناً من الاستمتاع بها طلبة المدارس الذين تحول ظروفهم التعليمية أو الاقتصادية دون وسائل هذا الاستمتاع البريء .

وأعود إلى الموسيقى بالذات فأقول إنه لا يوجد أكرم منها برّاً بالمشاعر الكلية وصقلاً للاحساس الفني فيجب أن تكون جزءاً أساسياً من الحياة التعليمية . لقد سبقت الموسيقى اللغات في النشوء من حيث اعتماد الإنسان الأول على الأصوات المنغمة للتعبير والتسلية . ولا تزال الموسيقى الشرقية تابعة لقرنونات أخرى كالرقص والشعر ، بعكس الموسيقى الغربية التي تطوّرت إلى فن مستقل ، وذلك بفضل إدخال الهارموني في تكييفها . فالحاجة التهديبية من الموسيقى هي حاجة الشعور بفن مستقل يغمر النفس ويثير فيها أنبل العواطف وأجمل الفرح ، وليست في الاستماع إلى ألحان لا تتجاوز في قيمتها أصدااء الكلام الشعري ذاته ولا شخصية مستقلة لها . فلا غبار إذن على تقديم برامج مختارة من الموسيقى العالمية لطلبة المدارس في أوقات فراغهم وفي مناسبات معينة فقيمتها لا تقل عن قيمة الرياضة البدنية التي غفغفنا بها أخيراً .

وانى إذ أجبر هذه السطور وقد فرغت من التعليم الثانوى وتركته خلفى
أرتفع فوق مظنة الأنانية ، لأنى أقدم هذه المقترحات برأ بغيرى بل برأ
روح التعليم والتهديب النفسانى فى مصر وبرأ برسالة الفن نفسه .
(١٩١١)



نهج البلاغة

يقول فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حمزة فتح الله أن كتاب (نهج
البلاغة) مكذوبٌ على سيدنا على (المواهب الفتحية ، ج ٢ ، ص ٢٢٨)
ويستشهد على ذلك بما ذكره الحافظ الذهبي جزماً . وأغلب الظن أنه من
تأليف الشريف الرضى أو أخيه المرتضى . ومهما يكن من شىء فالكتاب
ذخيرة أدبية لغوية لا يشبع منه الأديب ، ولا يجوز أن يغفله متأدب . وهو
أحرصى باطلاع الشعراء من دواوين الشعر القديم التى يحفظها بعضهم عن
ظهر قلب ، لأن مادته البيانية كافية لتغذية الملكة الأدبية من ناحيتى اللفظ
والبيان ، وأما اللجوء الى حفظ الشعر والادمان على ذلك فخطره عظيم فى
القضاء على شخصية الشاعر من ناحية الاسلوب لأن ذهنه يمتلىء بتعاير
نظمية محفوظة فتتغلب على طبعه وتفسد عليه بيانه الأصيل ومعانيه المبتكرة .
وقد أخرج هذا الكتاب فى طبعة مقبولة حجماً وشرحاً مجد افندى
سعيد الرافعى الكتبي ، وازدادت الطبعة بالشرح القيم البليغ لفقيد الاسلام
الامام الشيخ مجد عبده مفتى الديار المصرية سابقاً ، وقد ذكر فى ذيل الجزء
الثانى أن الشريف الرضى مسؤول عن جمع هذا الكتاب وأنه انتهى من جمعه
فى سنة أربعمائة وأبى أوراقاً بيضاً فى آخر كل باب رجاء أن يقف على شىء
يناسب ذلك الباب فيدرجه فيه .

ولا بدّ لى من وقفه أولاً عند مقدمة الإمام الشارح . قال رحمة الله
عليه : « ... ذلك الكتاب الجليل هو جملة ما اختاره السيد الشريف الرضى
رحمه الله من كلام سيدنا ومولانا أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله
وجهه . جمع متفرقة وسماه بهذا الاسم (نهج البلاغة) ولا أعلم اسماً أليق
بالدلالة على معناه منه . وليس فى وسعى أن أصف هذا الكتاب بأزيد مما دلّ

عليه اسمّه ، ولا أن آتى بشيء في بيان مزيته فوق ما آتى به صاحب الاختيار كما ستراه في مقدمة الكتاب ، ولولا أن غرائز الجبلة وقواضى الذمة تفرض علينا عرفان الجميل لصاحبه وشكر المحسن على احسانه لما احتجنا الى التنبيه على ما أودع (نهج البلاغة) من فنون الفصاحة وما خصّ به من وجوه البلاغة ، خصوصاً وهو لم يترك غرضاً من أغراض الكلام إلا أصابه ، وممرّاً إلا أجابه . إلا أن عبارات الكتاب لبعد عهدنا منها وانقطاع أهل جيلنا عن أصل لساننا قد نجد فيها غرائب ألفاظ في غير وحشية ، وجزالة تركيب في غير تعقيد ، فربما وقف فهم المطالع دون الوصول الى مفاهيم بعض المفردات أو مضامين بعض الجمل ، وليس ذلك ضعفاً في اللفظ أو وهناً في المعنى ، وإنما هو قصور في ذهن المتناول . ومن ثم همت بي الرغبة أن أصحب المطالعة بالمراجعة والمشاركة بالكاشفة وأعلّق على بعض مفرداته شرحاً وبعض جملة تفسيراً وشيء من إشاراته تعييناً واقفاً عند الحاجة ما قصدت ، موجزاً في البيان ما استطعت ، معتمداً في ذلك على المشهور من كتب اللغة والمعروف من صحيح الأخبار . ولم أتعرض لتعديل ما روى عن الإمام في مسألة الامامة أو تجريحه بل تركت للمطالع الحكم فيه بعد الالتفات الى أصول المذاهب المعلومة فيها والأخبار الماثورة الشاهدة عليها . غير أنى لم أتحمش عن تفسير العبارة وتوضيح الاشارة لا أريد في وجهي هذا إلا حفظ ما أذكر وذكر ما أحفظ تصوراً من النسيان وتحزناً من الجيدان . ولم أطلب من وجه الكتاب إلا ما تعلق منه بسبك المعاني العالية في العبارات الرفيعة في كل ضرب من ضروب الكلام . وحسبي هذه الغاية فيما أريد لنفسي ولمن يطالع عليه من أهل اللسان العربي . وقد عني جماعة من أجلة العلماء بشرح الكتاب وأطال كل منهم في بيان ما انطوى عليه من الأسرار ، وكل يقصد تأييد مذهب وتعضيد مشرب ، غير أنه لم يتيسر لي ولا واحد من شروحيهم إلا شذرات وجدتها منقولة عنهم في بطون الكتب ، فان وافقت أحدهم فيما أرى فذلك حكم الاتفاق وإن كنت خالفتهم فالى صواب فيما أظن . على أنى لا أعدّ تعليق هذا شرحاً في عداد الشروح ولا أذكره كتاباً بين الكتب ، وإنما هو طراز لنهج البلاغة وعلم توشى به أطرافه . وأرجو أن يكون فيما وضعت من وجيز البيان فائدة للشبان من أهل هذا الزمان ، فقد

رأيتهم قياماً على طريق الطلب يتدافعون الى نيل الأرب من لسان العرب ،
يبتغون لأنفسهم سلائق عربية وملكات لغوية ، وكل يطلب لساناً خاطباً
وقلماً كاتباً ، لكنهم يتوخّون وسائل ما يطلبون في مطالعة المقامات وكتب
المراسلات مما كتبه المولّدون أو قلدّم فيه المتأخرون ولم يراعوا في تحريره
الأرقّة الكلمات وتوافق الجناسات وانسجام السّجعات وما يشبه ذلك من
المحسنات اللفظية التي وسموها بالفنون البديعة وإن كانت العبارات خلواً من
المعاني الجليلة أو فاقدة الأساليب الرفيعة . على أن هذا النوع من الكلام
بعض ما في اللسان العربي وليس كل ما فيه ، بل هذا النوع اذا اقرّد يعدّ
من أدنى طبقات القول ، وليس في حلاه المنوطة بأواخر ألفاظه ما يرفعه الى
درجة الوسط . فلو أنهم عدلوا الى مُدارسة ما جاء عن أهل اللسان خصوصاً
أهل الطبقة العليا منهم لأحرزوا من بغيّتهم ما امتدّت اليه أعناقهم واستعدت
لقبوله أعراقهم ، وليس في أهل هذه اللغة الأفاضل بأن كلام الإمام علي بن
أبي طالب هو أشرف الكلام وأبلغه بعد كلام الله تعالى وكلام نبيه وأغزوه
مادة وأرفعه أسلوباً وأجمعه لجلائل المعاني . فأجدر بالطالبيين لنفائس اللغة
والطامعين في التدرّج لمراقبيها أن يجعلوا هذا الكتاب أهمّ محفوظهم وأفضل
مأثورهم ، مع تفهّم معانيه في الأغراض التي جاءت لأجلها وتأمل ألفاظه في
المعاني التي صيغت للدلالة عليها ، ليصيبوا بذلك أفضل غاية وينتهوا الى خير
نهاية ، وأسأل الله نجاح عملي وأعمالهم وتحقيق أمني وآمالهم .

ثم انتقل الاستاذ الامام من هذه المقدمة المتواضعة التي تتمّ عن مكارم
خلقه وغزارة علمه الى الترجمة للشريف الرضي مؤلف الكتاب الذي صدر
لكتابه بمقدمة بليغة قال فيها : « ابتدأتُ بتأليف كتاب في خصائص الأئمة
عليهم السلام يشتمل على محاسن أخبارهم وجواهر كلامهم . حداني عليه غرضٌ
ذكرته في صدر الكتاب وجعلته أمام الكلام وفرغتُ من الخصائص التي
تخصّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام ، وعاقت عن إتمام بقية الكتاب محاجزات
الزمان ومماطلات الأيام ، وكنت قد بوّبتُ ما خرج من ذلك أبواباً وفصلاً
فصولاً فجاء في آخرها فصلٌ يتضمن محاسن ما نُقل عنه عليه السلام من
الكلام القصير في الحكم والأمثال والآداب دون الخطب الطويلة والكتب
المبسوطة ، فاستحسن جماعةٌ من الاصدقاء والاخوان ما اشتمل عليه الفصل ،

المقدم ذكره معجبين ببدائعه ومتعجبين من نواصعه ، وسألوني عند ذلك أن أبدأ بتأليف كتاب يحتوي على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين — عليه السلام — في جميع فنونه ، ومتشعبات غصونه ، من خطب وكتب ومواظ وأداب ، علماً أن ذلك يتضمن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية وثواقب الكلمة الدينية والدينية ما لا يوجد مجتمعاً في كلام مجموع الأطراف في كتاب ، إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها وعنه أخذت قوانينها ، وعلى أمثلته هذا كل قائل خطيب وبكلامه استعان كل واعظ بليغ . ومع ذلك فقد سبق وقصروا ، وتقدم وتأخروا ، ولأن كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي ، فأجبتهم إلى الابتداء بذلك طاملاً بما فيه من عظيم النفع ومنشور الذكر ومذخور الأجر ، واعتمدتُ به أن أئين من عظيم قدر أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفضيلة مضافةً إلى المحاسن الدائرة والفضائل الجملة ، وأنه عليه السلام انفراد ببلوغ غايتها عن جميع السلف الأولين الذين إنما يؤثر عنهم منها القليل النادر والشاذ الشارد ، وأما كلامه فهو من البحر الذي لا يماجل والجمل الذي لا يحافل ، وأردتُ أن يسوغ لي التمثل في الافتخار به عليه السلام بقول الفرزدق :

أوثك أبائي فخني بمنهم إذا جمعنا يا (جري) المجامعُ ا
ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة : أولها الخطب والأوامر ،
وثانيها الكتب والرسائل ، وثالثها الحكم والمواظ . فأجمعت بتوفيق الله
تعالى على الابتداء باختيار محاسن الخطب ، ثم محاسن الكتب ، ثم محاسن
الحكم والأدب ، مفرداً لكل صنف من ذلك باباً ومفصلاً فيه أوراقاً لتكون
مقدمة لاستدراك ما عساه يشذ عنى عاجلاً ويقع إلى آجلاً ، وإذا جاء
شيءٌ من كلامه عليه السلام الخارج في أثناء حوار أو جواب سؤال أو غرض
آخر من الأغراض في غير الأنحاء التي ذكرتها وقررت القاعدة عليها نسبةً
إلى أليق الأبواب به وأشدّها ملاحظة لغرضه . وربما جاء فيما اختاره من ذلك
فصول غير متسقة ومحاسن كالم غير منتظمة لأنى أورد النكت واللمع ولا

أقصد التتالي والنمق . ومن عجائبه عليه السلام التي انفرد بها وآمن المشاركة فيها أن كلامه عليه السلام الوارد في الزهد والمواعظ والتذكير والزواجر إذا تأمله المتأمل وفكّر فيه المتفكّر وخلع من قلبه أنه كلامٌ مثله ممن عظم قدره ونفذ أمره وأحاط بالرقاب ملكه لم يعترضه الشكّ في أنه من كلام لا حظ له في غير الزهادة ولا شغل له بغير العبادة ، وقد قبع في كسر بيت أو انقطع في سفح جبل ، لا يسمع إلاّ حسّه ولا يرى إلا نفسه ، ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس في الحرب مسلطاً سيفاً فيقطّ الرقابَ ويجدل الأبطالَ ويعود به ينطف دماً ويقطر مُهجاً ، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد وبدل الأبدال ، وهذه من فضائله العجيبة وخصائصه اللطيفة التي جمع بها بين الأضداد وألّف بين الأشتات ، وكثيراً ما أذكر الاخوانَ بها واستخرج عجبهم منها ، وهي موضع للعبرة بها والفكرة فيها ، وربما جاء في أثناء هذا الاختيار اللفظ المرذد والمعنى المكرر ، والعدر في ذلك أن روايات كلامه تختلف اختلافاً شديداً . فربما اتفق الكلام المختار في رواية فنقل على وجهه ، ثم وجد بعد ذلك في رواية أخرى موضوعاً غير وضعه الأول إمّا بزيادة مختارة أو بلفظ أحسن عبارة ، فتقتضى الحال أن يُعاد استظهاراً للاختيار وغيره على عقائل الكلام . وربما بعد العهد أيضاً بما اختير أولاً فأعيد بعضه سهواً أو نسياناً لا قصداً واعتماداً ، ولا أدعى مع ذلك أني أحيط بأقطار جميع كلامه عليه السلام حتى لا يشذّ عنى منه شاذٌّ ولا يندّ نادٌّ ، بل لا أبعد أن يكون القاصرُ عنى فوق الواقع اليّ ، والحاصل في رقبتي دون الخارج من يديّ ، وما علىّ إلاّ بذل الجهد وبلاغ الوسع وعلى الله سبحانه نهج السبيل ورشاد الدليل إن شاء الله ، ورأيتُ من بعد تسمية هذا الكتاب (بنهج البلاغة) إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها ويقرب عليها طلابها ، فيه حاجة العالم والمتعلم وبغية البليغ والزاهد ، ويمضى في أثناءه من الكلام في التوحيد والعدل وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شبه الخلق ما هو بلال كل غلة وجلاء كلّ شبهة . الخ .

فمن نبذ تلك المقدمة للشارح ومن نخبه خطبة الكتاب هذه نلّم إلماماً كافياً بأغراض الكتاب ومزاياه الأدبية ، بغضّ النظر عما فيه من دقة أو عدمها . وإذا تركنا الجانب الفكري أو وضعناه في موضعه الصحيح بالنسبة

لزمه فلا شك أننا مستفيدون أجلّ الفوائد البيانية واللغوية من مطالعة (نهج البلاغة) ، ولا أذهب مذهب الحفظ منه وإنما يعينني الاطلاع الوافي صقلاً للملكة الانشائية ، وأمّا الحفظ فأراه من المزالق التي قد تؤدي بالتأدب الى ضياع شخصيته اذا ما عمد الى الكتابة ثراً أو نظماً في المستقبل . ولهذا أجتهد في أن أطرح من ذا كرتي ما استوعبته من شعرٍ أعجبتُ به سواء أكان شعراً قديماً أم حديثاً ، وأتحمّس على ما أراه من تفنّس البيغاوية اللفظية بل المعنوية أيضاً المفتونة برصف تعابير المتقدمين في غير حياء مع استجداء الثناء على ذلك واعتباره آية الألمعية في قوة الديباجة ومتانتها !

أمّا أولُ خطب الكتاب فتمتعة باعتبارها أسطورة رمزية لبدء الخليقة وظهور آدم مع صفات مبهمة للخالق لا تتمشى بطبيعة الحال مع أي تفكير فلسفي عميق . وتليها خطب كثيرة ما بين دينية واجتماعية وسياسية وأدبية مما أوحتها الظروف في ذلك العهد ، وطابعها جميعاً سموّ البيان اللغوي بحيث لا أتردد في إطارها للمسيحي والموسوي إطاراني إياها للمسلم ما دامت وجهة الجميع دراسة العربية دراسة منقفة . أمّا عن آراء الكتاب فلا أقيد أحداً بها بل أطارض في كثير منها . مثال ذلك الخطبة الموجّهة الى ذم النساء (ج ١ ، ص ١٤٥) : إذ يقول « معاشرَ الناس ، إنّ النساء نواقصُ الايمان نواقصُ الحظوظ نواقصُ العقول . فأما نقصان إيمانهنّ فقعودهنّ عن الصلاة والصيام في أيام حيضهنّ . وأما نقصان عقولهنّ فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد . وأما نقصان حظوظهنّ فمواريثهنّ على الأناصاف من موارث الرجال . فاتقوا شرارَ النساء وكونوا من خيارهنّ على حذرٍ ، ولا تطيعوهنّ في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر » . فهذه جميعها دماوى ظالمة ، ومع ذلك فانه عرضها في أسلوب لبق جزل .

ومن أبدع خطب الكتاب تلك التي يصف فيها الطاووس (ج ١ ، ص ٣٢٤) إذ يقول منها مُشيراً الى ما أوجده الله من مخلوقات عجيبة : « ... ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل ونضد ألوانه في أحسن تنفيذ بجناح أشرج قصبه وذنب أطال مسحبه . واذا درج الى الأنتى نشره من طيه وسما به مُسطلاً على رأسه ، كأنّه قلع داريّ عنجه نُوتشه يخال بألوانه ويميس بزيفانه ، يُفضى كافضاء الديكة ويؤرّ بملاقحة أرّ

الفحول المغتلمة في الضراب . أحييلاك من ذلك على معاينة لا كمن يحيل
على ضعيف إسناده ، ولو كان كزعم من يزعم أنه يُلَقَّحُ بدمعة تسفحها
مدامعه فتقف في ضفتي جفونه ، وأنَّ أُنثاه تَطَعَمُ ذلك ثم تبيضُ
لأمن لقاح خل سوى الدمع المنبجس لما كان ذلك بأعجب من مظالمة
الغراب . تخال قصبه مدارى من فضة ، وما أنبت عليه من عجيب
دارته وشموسه خالص العيقان وفلذ الزبرجد ، فإنَّ شِبْهَتَهُ بما أنبتت
الأرض قلت جنى جنى من زهرة كل ربيع ، وإنَّ ضاهيته بالملابس
فهو كموشى الحلل أو مونق عصب اليمين . وإنَّ شاكلته بالخلجى فهو
كفصوص ذات ألوان قد نطقت باللجين المسكّل . يمشى مشى المرح المحتال
ربتصّح ذنبه وجناحيه فيقهقه ضاحكاً بجهال سرباله وأصايغ وشاحه .
فاذا رمى يبصره الى قوائمه زقا مغولاً يكاد يُبين عن استغاثته ويشهد
بصادق توجّعه لأنَّ قوائمه ممّش كقوائم الديكة الخلاسية . وقد نجمت
من ظنبوب ساقه صيصية خفية ، وله في موضع العرف قزعة خضراء
موشاة ونخرج عُتْقَه كالأبريق ومغررزاها الى حيث بطنه كصبغ
الورسمة اليمانية أو كحريرة ملبسة مرآة ذات صقال ، وكأنه متلفع بمعجر
أسحم إلا أنه يخيل لكثرة مائه وشدة بريقه أن الخضرة الناضرة ممتزجة
به . ومع فتق سمعه خط كستدق القلم في لون الأقحوان أبيض يقق .
فهو بياضه في سواد ما هنالك يأتلق ، وقل صبغ الا وقد أخذ منه بقسط
وعلاه بكثرة صقاله وبصيص ديباجه وروثقه ، فهو كالأزاهير المبتوثة لم
تربها أمطار ربيع ولا شمس قيط . وقد يتحسّر من ريشه ويعرّى من
لباسه فيسقط تترى وينبت تباعاً ، فينحت من قصبه المحتات أوراق الأغصان
ثم يتلاحق نامياً حتى يعود كهيئته قبل سقوطه ، لا يخالف سالف ألوانه
ولا يقع لون في غير مكانه ، وإذا تصفحت شعرة من شعرات قصبه أرتك
حمرة وردية وتارة خضرة زبرجدية وأحياناً صفرة عسجدية ، فكيف
تصل الى صفة هذا عمائق الفطن أو تبلغه قرائح العقول أو تنتظم وصفه
أقوال الواصفين وأقل أجزاءه قد أعجز الأوهام أن تدركه والألسنة أن
تصفه ؟ فسبحان الذى بهر العقول عن وصف خلقه جللاه للعيون
فأدرسته محدوداً مكوّناً ومؤلفاً وملوّناً ، وأعجز الألسن عن تلخيص صفته

وقعد بها عن تأدية نعته .

والقارىء لهذا الوصف الشعرى البديع لا يسعه الا أن يعجب الاعجاب كله بما احتواه من قوة الملاحظة الدقيقة والمقدرة الفائقة على تطويع اللغة في غير تكلف لأداء المعانى والأخيلة ، مع الجراءة الموفقة في حمن الاستعارة والتشبيه ، ومع الاستقلال السكى في البيان . فهذا نموذج بارع للانشاء الوصنى ، وله من استقلاله البيانى أجل حلية . ولكنى ألاحظ أنه لو جاء أحدُ المحدثين من كتابنا أو خطبائنا الناشرين بشيء من مثل هذا الأدب بل بخير منه لقبل إن أسلوبه أعرج ، لا لعيب سوى أنه لا يحتذى سواء وإنما يجعل من ذخيرة اطلاعه سنداً لملكته الأدبية وحدها ! والمشايخ الذين ينادون بجمال القديم لا يفهمون شيئاً سوى المحاكاة الضريرة ، وأمثالهم الذين يتشدقون بالجمع بين جمال القديم وجمال الحديث لا يعنون بذلك غير السفسطة الكاذبة ، فالجمال الفنى له حرمة كنهما كان مصدره وعصره ، والفنان الأصيل لا يتصنع الترفيع والجمع بين القديم والحديث كما يرضى طوائف من الناس ، وإنما هو يرسل نفسه على سجيتها بعد أن تشبعت نفسه بموضوعه وبعد أن استكمل أدوات بيانه فيجىء أثره الفنى صورة صادقة لنفسيته وللعوامل المختلفة المتفاعلة معها . وانى إذ أقرأ ذلك الوصف الأصيل للطاووس في (نهج البلاغة) أشعر بغبطة عظيمة لأنى أعلمى أثراً فنياً صادقاً يمت لعصره بصلة طبيعية لا تكلف فيها ، ولا يحضرنى حينئذ سوى أنه أثر فنى حتى لا أنه قديم أو حديث . وكذلك الحال اذا قرأتُ وصفاً لدانتى أو شكسبير أو للشريف الرضى أو لابن حمديس مادام طابعتُ الصدق وما دام يستند الى طبيعة فنية سليمة . وسيان عندى أن أستمع بوصف الطاووس وصوته في (نهج البلاغة) أو في (أساطير لافونتين) فانى لا أعرف فى الجمال قديماً ولا حديثاً ولا أومن بالترفيع فيه ، وإنما أومن بالأصالة الطبيعية وحدها مع السماح للعوامل المكيفة له بحرية تفاعلها . وأرى من الانصاف للأدب العربى أن أنقل هنا الترجمة الانجليزية لشكوى الطاووس الى جيونو « ملكة السماء » من كراهة صوته وتوبيخها إياه كما عبّر عن ذلك لافونتين فى أسطورهته حتى يقدر معى اخوانى الطلبة نفائس أدبنا المنسى ، فبالمقارنة تُعرف قيم الأشياء ، وبمثل هذه المقارنة نفهم أن جوهر الجمال الفنى واحد كنهما كانت اللغة التى يتدثر بها :-



الطاووس يشتكى الى جنونو

(أصداء الحياة)

The Peacock complaining to Juno

The peacock to the queen of heaven

Complained in some such words :

“ Great goddess, you have given

To me, the laughing stock of birds,

A voice which fills, by taste quite just,

All nature with disgust ;

Whereas that little paltry thing,

The nightingale, pours from her throat

So sweet and ravishing a note,

She bears alone the honors of the spring.”

In anger Juno heard,

And cried, “ Shame on you, jealous bird !

Grudge you the nightingale her voice,

Who in the rainbow neck rejoice,

Than costliest silks more richly tinted,

In charms of grace and form unstinted ,

Who strut in kingly pride,

Your glorious tail spread wide

With brilliants which in sheen do

Outshine the jeweler's bow window ?

Is there a bird beneath the blue

That has more charms than you ?

No animal in every thing can shine.

By just partition of our gifts divine,

Each has its full and proper share :

Among the birds that cleave the air,

The hawk's a swift, the eagle is a brave one.

For omens serves the horse old raven,

The rook's of coming ills the prophet ;

And if there's any discontent,

I've heard not of it.

Cease, then, your envious complaint ;

Or I, instead of making up your lack,

Will take your boasted plumage from your back.”

ومن خطب الكتاب البديعة وصف الخفاش إذ يقول بعد الحمد لله وتقديس عظمته (ص ٢٩٩) : «... ومن لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القابض لكل حي ، وكيف عشت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدى به في مذاهبها وتصل بعلاية برهان الشمس الى معارفها ، وردعها تلالؤ ضيائها عن المضي في سُبجات إشراقها ، وأكثنها في مكائنها عن الذهاب في بلسج ائتلاقها ، فهي مُستدلة الجفون بالنهار على أحداقها وجاعة الليل سراجاً تستدل به في التماس أرزاقها ، فلا يرُدُّ أبصارها إسداف ظلمته ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دُجنته . فاذا ألتقت الشمس قناعها وبدت أوضاع نهارها ، ودخل من إشراق ثورها على الضباب في وجارها أطبقت الأجنان على مآقيها ، وتبذلت بما اكتسبت من آفة ظلم لياليها ، فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً والنهار سكوناً وقراراً ، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة الى الطيران كأنها شظايا الآذان ، غير ذوات ريش ولا قصب إلا أنك ترى مواضع العروق بينة أعلاماً ، لها جناحان لمّا يرقا فينشقا ولم يغلظا فينقلأ . تطير وولدها لاصق بها لاجئ إليها يتقع إذا وقعت ويرتفع إذا ارتفعت ، لا يفارقها حتى تشتد أركانها ويحمل للنهوض جناحه ويعرف مذهب عيشه ومصالح نفسه فسبحان الباري لكل شيء على غير مثالٍ خلا من غيره . »

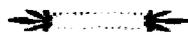
ووجه الإبداع هنا ليس في الدقة العلمية بقدر الثروة اللغوية وقوة الفصاحة والتناول الشعري للموضوع .

وإذا تركنا الجزء الأول من الكتاب بما فيه من خطب عديدة نفيسة جمة التنويع وانتقلنا الى الجزء الثاني الذي يحتوي على أنواع المراسلات وكلمات الحكمة فاننا واجدون كنوزاً شتى من بلاغة الكلام في شتى الأغراض فمن أحسنها كلمته في حالات قلب الانسان إذ يقول (ص ١٦٧) : « لقد علق بنياط هذا الانسان بضعة هي أعجب منه وذلك القلب . وله مواد من الحكمة وأضداد من خلافها ، فان سَخَّ له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه اليأس قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن أسعده الرضى نسي التحفظ ، وإن ناله الخوف شغل الحذر ،

وإن اتسع له الأمنُ استلبته الفرّة ، وإن أفاد مالاَ أطغاه الغنى ، وإن أصابته مصيبةٌ فضحه الجزعُ ، وإن عضته الفاقة شغله البلاءُ ، وإن جهده الجوع قعد به الضعفُ ، وإن أفرط به الشبع كظّته البطنةُ ، فكلُّ تقصير به مُضرٌّ وكلُّ إفراطٍ له مُفسدٌ .

وهكذا نجد (نهج البلاغة) اسماً على مُسمى ، سواء أَرْضِينَا أم لم نَرْضَ عن موضوعاته ، وإذا كانت الأغلبيةُ العظمى من الأحاديث المنسوبة الى النبيِّ (إن لم نقل جميعها تقريباً) موضوعةٌ ومنتحلةٌ فلا عجب إذا عُدَّ (نهجُ البلاغة) منسوباً ظلماً الى الامامِ علي ، ولكن كما أن كثيراً من الأحاديث البليغة تُدرس لبلاغتها فضلاً عن حِكمتها وإن عُدّها المحققون المستقلّون باطلةً من الوجهة التاريخية الدينية فكذلك ينبغي لطالب الأدب أن يدرس مثل هذا الكتاب لقيّمته اللغوية والبيانية فقط إلا إذا كان التحقيق التاريخي مما يعنيه ، وعلى أي حال لا يجوز أن ترتب مزاياه الأدبية على قيمته التاريخية .

(١٩١١)



ابن هانيء الاندلسي

من الجائز أن يفضّل كثيرون من الأدباء مجد بن هاني على غيره من شعراء الأندلس ولكني لا أرى في هذا ما يبرر تلقيبه بمتني الغرب لمجرد أنه حاصر المتني وكان قوياً الديباجة مثله بالنسبة لغيره من شعراء الأندلس ، اللهم إلا إذا التفقنا الى صفة التسهيل التي اشترك فيها فكتور هوجو من بعد ، وهي عيبٌ فني أخذ قسطه منه فانتقصهم من أجله نقادُ الأدب .

وشاعرٌ نا مثالي للعبقريّة الموروثة : فقد كان والده شاعراً فيلسوفاً ، وتجلت هذه المواهبُ فيه أيضاً فشغل بالشعر كما شُغل بالفلسفة وكان أبوه هانيء من شمال افريقية ثم انتقل ومعه ابنه الفتى الى اشبيلية فنعم بأزهي عصر لبني أمية في الأندلس ، والى شمال افريقية اتجه أبنته فيما بعد وإن كانت الظروفُ هي التي اضطرته الى مغادرة اشبيلية ، بعد أن اشتهر عنه اشتغاله بالفلسفة فحقد عليه من أجل ذلك ، واتّهم الملكُ نفسه بالتمسُّر عليه إذ كانت

الفلسفة ممقوتة في ذلك العهد وكان الناس يطاردون المشتغلين بها ، فأوعز إليه الملك بالتغيب الى أن تهدأ العاصفة ، فارتحل ابن هانيء الى المغرب فراراً من الأذى وله من العمر سبع وعشرون سنة . وهناك لقي جـوهراً القائد المشهور فشغل بمدحه وقتاً ثم بلغ المعز لدين الله أمره فأرسل في طلبه من الأعيان الذين فتنوا بأدبه واستبقوه لديهم ، فلما قدم الى المعز اغتبط بلقائه وأغدق عليه إحسانه وبالغ في إكرامه ، فحياه ابن هانيء بقصائد من أبلغ شعره السيار ومدحه غاية المدح . وسار المعز الى مصر بعد أن فتحها جوهر له ، وتخلّف عنه شاعره مؤقتاً حتى يتم معدّات الرحيل وحتى يصحب معه أسرته ، ولما تم له ذلك وسار يريد مصر عرّج على برقة حيث أضافه أحد أهلها فأقام عنده أياماً بين الشراب والقصف والعريضة مما آل في النهاية الى وفاته من شدة السكر وعواقبه وربما كان موته غيلة ، دون أن يتجاوز من العمر ستاً وثلاثين سنة . فكانت لوفاته رنة أسف عظيمة في محافل الأدب ، وخصوصاً عند المعز لدين الله الفاطمي الذي قال حينما نعى اليه شاعره العظيم : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك ، رحمه الله » .

وقد كان ابن هانيء يميل في شعره الى المذهب الشيعي حتى قال :
لى صارمٌ وهو شيعيٌّ كحامله يكاد يسبق كراي الى البطلـ
اذا المعزُ مُعزُّ الدينـ سلطه لم يرتقب بالمنايا مدّة الاجلـ ا
ويُعزّي تعلقه بالشيعة الى محبته للمعز وأثر فضله وفضل الأمراء
الشيعيين في نفسه ، وإن جاز أن تكون له سابقة عناية بالمذهب الشيعي
نظراً لتفكيره الديني الفلسفي من قبل وبسببه هاجر الى اشبيلية ، وهو تفكير
لم يحلّ دونه افتتانه باللذة والقصف في شبابه ... ولكن لا نزاع في أن
تهافت الأمراء الشيعيين على إرضائه وتشجيعه هو الذي ساقه أكثر من
سواه في سبيل مدح الشيعة من مبالغة سقيمة الى أخرى ، حتى بات شعره
لا يقل عن شعر أبي الطيب في الاسراف في المدح وفي التهويل بالوصف بل ربما
أرّجى عليه في مواضع ، وحسبك من هذا الغلو قصيدة ابن هانيء الراهية
في مدح المعز لدين الله وقد استهلها بهذا البيت العجيب :

ما شئتَ لا ماشاءتَ الاقْدارُ فاحْكُمْ فأنْتَ الواحدُ القهارُ !
وديوان ابن هانيء مكنظٌ بمدح المعزِّ وجوهر القائد ، ومدح كلِّ من
جعفر بن علي ويحيى بن علي بن أحمد بن حمدان الاندلسي أمير المسيلة واقليم
الزاب الذي كان يُعدُّ في طليعة محبي الأدب وأنصار العلم ، وبخيرهم ممن
عُنوا بشخصه وبأدبه فحقَّ عليه التقربُ اليهم وامتداح ما أثرهم . ولولا ما في
شعر مديحه من مبالغاتٍ سقيمةٍ ومن تحيُّزِ المجاملةِ لما عيبَ عليه توجيه
المديح الى هؤلاء السادةِ لجميعهم من عيون الناس ومن صفوة أهل الرأي
ومن حماة العروبة .

وإذا كنتُ أرى مثلَ ثر الجاحظِ و (نهج البلاغة) مُادهَ دسمةً لتغذية
الملكة البيانية عند الأديب ، فإِ من شكِّ في أن شعر ابن هانيء كشعر
الشريف الرضي يقدم نظيرَ هذا الغذاءِ البياني في مجال النظم ، فإن مفرداتها
اللغوية كثيرة وهي - إذا صحَّ لي هذا التعبير - أقربُ الى المدرسيَّة
من شعر ابن الرومي أو أبي الطيب مثلاً ، وإن كنتُ أؤثر الأخيرين من
الناحية الشعرية على كلِّ من الشريف الرضي وابن هانيء .

ومع هذا فإني لا أُنحسُ ابنَ هانيء حقَّه ، إذ يندر أن تفحص قصيدةً
له إلاَّ وتجدها زاخرةً بالمعاني الشعرية . ولنأخذ مثلاً قصيدته المشهورة
(فتكات طرفك أم سيوف أيبك) التي يمدح بها يحيى بن علي ويقول فيها
غزله الذائع :

فتكاتُ طرفكِ أم سيوفُ أيبكِ وكؤوسُ خمرٍ أم مراشفُ فيكِ ؟
أجلادُ مرهفةٍ وفتكُ محاجرٍ ؟ ما أنتِ راحمةٌ ولا أهلوكِ
يابنتَ ذا البرمِدِ الطويلِ نجادُه أكذا يجوز الحُكْمُ في ناديكِ ؟
قد كان يدعوني خيالُكِ طارقاً حتى دمانى بالقنا داعيكِ
عينكِ أم مَغناكِ موعِدُنَا ، وفي وادي الكرى ألقاكِ أو واديكِ
مَنعوكِ من سنَةِ الكرى وسروا فلو عثروا بطيفِ طارقِ ظنوكِ
ودَعوكِ نشوى ما سقوكِ مدامةً لما تمايلَ عطفُكِ اتهموكِ

حسبوا التسكُّحْلَ في جفونكِ حليّةً تافهٍ ما بأكفهم كحلوكِ
وجلوكِ لي إذْ نحنُ عمنا بآةٍ حتى إذا احتفل الهوى حجبوكِ
ولوى مقبلكِ اللثامَ وما دروا أن قد لُئِمَتِ بهِ وقُبِّلَ فوكِ
ومن هذا الغزل الرائع يتخلص الى مدح يحيى بن علي فيقول :

فضعى القناعَ فقبل خدكِ حُجرتُ راياتُ يحيى بالدم المسفوكِ
يا خيلَه لا تسخطى عزماتهِ ولئن سخطتِ فقلِّها يرضيكِ
إيهاً ، فمن بين الأسنانِ والظبي أن الملائكة الصكرام تليكِ
ومنها في مدحه أيضاً :

تلقاه فوق رحاله ، وأقبّ لا تلقاه فوق حشيةِ وأريكِ
ومنها :

ورأى الخليفةُ منك بأسَ مهتدٍ بيديه من روح الشعاع سبيك
وغدت بك الدنيا زبرجدةً جلتُ عن نغر لؤلؤةِ اليك ضحوكِ
يدك الحميدةُ قبل جودك ، أنّها يدُ مالكِ يقضى على مملوكِ
وأرى الملوكة إذا رأيتك سوقةً وأرى عُفاتك سوقةً كحلوكِ

فهذه القصيدة الشائقة بالرغم من أسلوبها التقليدي تمتاز بأصالتها الى حدٍ
كبيرٍ : فغزلها بعيدٌ عن أن يكون صناعياً ، وإنما هو مفتوح من حياة
القصف والمرح التي كان يحياها الشاعر كما استوحى أحمد شوقي بك أبياته
الغزلية (خدعوها بقولهم حسناء) من روح باريس ، وشعر المديح نفسه
تزجيه حماسة خاصة أكسبته قوته الملحوظة .

ومن أمثلة شعره الغنائى أبياته الكافية في مستهل قصيدته التي يمدح
بها ابراهيم بن جعفر إذ يقول :

قد مررنا على مغانبكِ تلكِ فرأينا فيها مِشابهَ منكِ
مارضتنا لها الخرائد أسرا بأجرعها فلم تسلُ عنكِ
لا يرعُ لها بذلكِ سِرْبٌ فلقد أشبهتكِ إن لم تكنكِ

مُسْعِدِي عَجْجٌ فَقَدْ رَأَيْتَ مَعَاجِي يَوْمَ أَبْكَى عَلَى الدِّيارِ وَتَبْكَى
خَفِينٌ مُرَجَّحٌ كَحِنِينِي وَتَشَكِّ مُرَدَّدٌ كَتَشَكِّي
فَاتَّئِدْ تَسْكِبَ الدَّموعَ كَسَكِّي ثُمَّ لَا تَعْفِكَ الدَّماءُ كَسَفَكِّي
وَهَلْ يَجُوزُ أَنْ أُنْسِي قَصِيدَتَهُ الدَّالِيَةَ فِي مَدْحِ الْأَمِيرِينَ طَاهِرٍ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ
الْحُسَيْنِ ابْنِي الْمَنْصُورِ وَفِيهَا يَقُولُ :

امسحوا عن ناظري كحلَّ السَّهادِ وانفضوا عن مضجعي شوكَ القتادِ
أَوْ خُذُوا مِنِّي مَا أَبْقَيْتُمُو لَا أَحَبُّ الْجِسْمِ مَسْلُوبَ الْفُؤادِ
هَلْ تَجِيرُونَ مَحَبًّا مِنْ هَوَى أَوْ تَفَكُونُ أُسِيرًا مِنْ صَفادِ
أَسْلَوْا عَنْكُمْ مِنْ هَجْرِكُمْ ؟ قَلَمًا يَسْلُو عَنِ الْمَاءِ الْعُوادِ
إِنَّمَا كَانَتْ خَطُوبٌ قَيَّضَتْ قَعْدَتَنَا عَنْكُمْ إِحْدَى الْعُوادِ
فَعَلَى الْأَيَّامِ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا عَلَى الظُّلَماءِ مِنْ لِبْسِ الْحِدادِ
أَمَّا مَدْحُهُ لِلْمَعزِ لَدَيْنِ اللَّهِ الْفَاطِمِي فَحَدَّثَ عَنْهُ وَلَا حَرَجَ ، فَهُوَ الَّذِي
أَكْسَبَهُ بُعْدَ الصَّيْتِ وَهُوَ الَّذِي اسْتَحَقَّ مِنْ أَجَلِهِ أَنْ يُقالَ فِيهِ :

إِنْ تَكُنْ فَارِسًا فَكُنْ كَعَمَلِيٍّ أَوْ تَكُنْ شاعِرًا فَكُنْ كَابْنِ هانِي
كُلُّ مَنْ يَدَّعِي بِمَا لَيْسَ فِيهِ كَذَّبَتْهُ شِواهِدُ الْامْتِحانِ
وَسَأَكْتَفِي بِمَآذِجِ قَلِيلَةٍ مِنْ هَذَا الْمَدْحِ السَّائِرِ لِلتَّذليلِ عَلَى أَصالةِ هَذَا الشَّاعِرِ
بِالرَّغْمِ مِنْ مَطَاوَعَتِهِ لِتَقالِيدِ بَيْتِهِ . فَمِنْ ذَلِكَ الْهُمَزِيَّةِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يَقُولُ
فِي مَسْتَهْلِهَا :

الْحُبُّ حَيْثُ الْمُعْشَرُ الْأَعْداءُ وَالصَّبْرُ حَيْثُ الْعِكاةُ السَّيراءُ
مَا لِلْمَهاريِ النَّاجِياتِ كَأَنَّهَا حَتْمٌ عَلَيْهَا الْبَيْنُ وَالْعُدواءُ
لَيْسَ الْعَجيبُ بَأَنْ يَبْيارِينَ الصِّبا وَالْعَدْلُ فِي أَسْماعِينَ حِداءُ
يَدْنُو مَنْالُ يَدِ الْمَحَبِّ وَفَوْقَها شَمْسُ الظُّهيرةِ خَدْرُها الْجِوزاءُ
بانتَ مودَّعةً خَيْدٌ مَعْروضٌ يَوْمَ الْوِدادِ وَنَظْرَةٌ شِزاراءُ
وَعَدَتْ مَمْنَعَةَ الْقِبابِ كَأَنَّها بَيْنَ الْجِجالِ فَرِيدَةٌ عَصْماءُ

حجبت ومحجب طيفها ، فكأنما منهم على لحظاتها رقباء
ما بانه الوادي تَشَنَّى خوطها لكنها اليزنية السمراء
لم يبق طرفٌ أجردٌ إلا آتى من دونها وطمره جرداء
ومفاضه مسرودةٌ وكتيبةٌ مدمومةٌ وعجاجةٌ شبيهة
ما ذا أسائل عن مغانى أهلها وضميرى المأهول وهى خفاء ؟
إلهٍ إحدى الدوح قادرة ولا لله محنية ولا جرعاء
باتت تنى لا الرياح تهزها دونى ولا أنفاسى الصعداء
فكأنما كانت تذكرنيكو فتميد فى أعطافها البرحاء !
ذمّ الليالى بعد ليلتنا التى سلفت كما ذمّ الفراق لقاء
لبست بياض الصُّبح حتى خلتها فيه نجاشياً عليه قباء !
ومنها :

طويت لى الأيام فوق مكابدٍ ما تنطوى لى فوقها الأعداء
ما تحمن الدنيا تديم نعيمها فى الصناعات وكفها الخرقاء
ومنها فى مدح المعز لدين الله وفى ذلك منتهى الغلو ، ولكنه يتحلل
من هذا الغلو لركة عقيدته إن كان له من الدين نصيب ، ومهما يكن من
شئ فلا يعنينا هنا سوى فن الشعر ذاته :

هو علة الدنيا ومن خُلِقَتْ له ولعله ما كانت الأشياء !
من شعلة القبس التى عرّضت على (موسى) وقد جازت به الظلماء
للناس إجماع على تفضيله حتى استوى اللؤماء والكرماء
ضرابُ هام الرُّوم منتقماً وفى أعناقهم من جوده أعباء
تجرى أياديه التى أولاهو فكأنها بين الدماء دماء
لولا انبعاثُ السيف وهو مملطٌ فى قتلهم قتلهمو النعماء !
ومنها :

أين المفرّ ولا مفرّ لهارب - ولك البميطان الثرى والماء ؟

ولك الجوارى المنشآتُ مواخرأ تجرى بأمرِكَ والرياحُ رخاءُ
والحاملاتُ وكلها محمولةٌ والناجياتُ وكلُّها عذراءُ
فأقلُّ حظَّ العربِ منك سعادةٌ وأقلُّ حظَّ الرومِ منك شقاءُ
فإذا بعثتَ الجيشَ فهو منيةٌ وإذا رأيتَ الرأيَ فهو قضاءُ
يكسو نذاكَ الروضَ قبلَ أوانِهِ وتحيدُ عنكَ اللزبةُ اللاواءُ
دانوا بأنَّ مديحهم لك طاعةٌ فرضٌ فليس لهم عليك جزاءُ
هيات منّا شكراً ما تولى فقد شكرتك قبل الألسنِ الأعضاء
لا تسألنَّ عن الزمانِ فإنه في راحتك يدور حيث تشاء !
وابنُ هاني شاعرُ فياض لا يعيبه اللفظ ولا المعنى ويصرُّ على التحليل
والاسترسال حتى لا يترك شاردة ولا واردة من موضوعه ، وأقرب الشعراء
إليه في هذه الخاصية الشاعر العبقرى ابن الرومى ، وإن كان ابن الرومى أعمق
بكثير في شاعريته وفي تناوله لجوانب الحياة المتنوعة .

ومن مدائمه للمعزِّ قصيدته الغائية الغراء التى يقول فى مطامها :

قد سار بى هذا الزمانُ فأوجفأ ومحا مشيى من شبابى أحرقأ
إن لا أكن بلغت بى السنُّ المدى فلقد بلغت من الطريق المنصفأ
فلئن طوت لألهون تصنعأ ولئن صبوت لأصبون تكلفأ
ومنها :

ولقد هزرتُ الكأسَ فى يدِ منلها وصحوتُ عمّا رقى منها أو صفأ
فرددتها من راحتيه مرّةً وشربتها من مقلتيه قرقفأ !
ومنها :

أسنى على الأحرارِ قلِّ حفاظهم إن كان يعنى الحرُّ أن يتأسفأ
لا يبعثُ الله إلا معشراً أضوا على الأصنامِ عنكم عكفأ
هلا استعان بأهل بيتِ محمدٍ من لم يجد للذلِّ عنكم تصرفأ؟
يا ويلكم ! أفا لكم من صارخِ الأء بنغرة ضاع أو دين عفا؟

فمدينة من بعد أخرى تُحتبي وطريقة في أثر أخرى تُعتني
حتى لقد رجفت ديارُ (ربيعه) وتزلزلت أرضُ العراقِ تخوفاً
فالشامُ قد أودى وأودى أهله إلا قليلاً ، والحجازُ على شفا
فعببتُ من أن لا تميدَ الأرضُ من أقطارها ، وعجبتُ أن لا تخفنا
أيسرُ قوماً أن مكة غودرتُ بمجرَّ جيشِ الرومِ قاعاً صنفصفاً ؟
أو أن ملحوذَ النبي ورمسه بمدارج الأقدام يُنصف منسفاً ؟
فتربصوا فالله منجزٌ وعده قد آن للظلماء أن تتكشفا
هذا (المعز) بنُ النبي المصطفى سيدبُ عن حرمِ النبي المصطفى !
وهذا الشعر من آيات نظمه السياسي في قوة الرصف وقوة الحجّة معاً . وقد
أشرتُ من قبل الى رائيته المشهورة (ص ٦٢ من ديوانه) التي أضن
بالاقتباس منها فهي تحفة فنية وصورة كاملة في ذاتها .

ولا بن هاني من قصيدة أخرى لامية في مدح المعز وذكر الفتح الذي
كان على يده في الروم آيات غرر متداولة كقوله :

قد تُستضافُ الأُسُدُ في أجماتها جهلاً بهن ، وقد يُزارُ الغيلُ
والظنُّ تفريرٌ ، فكيف اذا التقى في الظنُّ رأى كاذبٌ وجهولُ
والنصرُ ليس بينُ حقُّ بيانه إلا اذا لقي الكثيرَ قليلُ
جاؤوا وحشوا الأرضِ منهم جحفلُ لجب ، وحشوا الخافقين صهيلُ
ثم انتنوا ، لا بالرماحِ تقصدُ بدر ، ولا بالمرهفاتِ فلولُ
نزلوا بأرضٍ لم يمسوا تربها حتى كأنَّ وقوعهم تحليلُ
ومنها :

يرتاب منها الموجُ وهو غطامطُ ويُرَاعُ منه الخطبُ وهو جليلُ
تلك الشجا قد مات مخصوصاً بها من لا يكاد يموتُ وهو قتيلُ
ومنها

ولقد أتيتَ الأرضَ من أطرافها ووطئتها بالعزمِ وهي ذلولُ

واستشعرت أجيالها لك هيبةً حتى حسبنا أنها ستزول !
نامت ملوكٌ في الحشايا واثنتٌ كسلى وطرفك بالسهاد كحيلٌ
لن ينصرَ الدينُ الحنيفُ وأهلهُ من بعضه عن بعضه مشغولٌ
تليك صلصلة العوالي كلما ألته أولئك قينةً وشمولٌ
وبذاك حسبك أن تجرَّراً لامةً وبحسب قومٍ أن تجرَّ ذبولٌ
وكان دولتك المنيرة فيهمو ذهبٌ على أيامهم محلولٌ
من يهتدى دون المعزِّ خليفةً إن الهدايةً دونه تضليلٌ !
كلُّ الأئمة من جدودك فاضلٌ فاذا خصمت فكلهم مفضولٌ
فانخر فم إنشائك الفردوسُ إن عدت ، ومن إحسانك التنزيلُ
وأرى الورى لغواً وأنت حقيقةً ما يستوى المعلوم والمجهولُ
شهد البرية كلبها لك بالعلوى إن البرية شاهدٌ مقبولٌ
والله مدلولٌ عليه بصنعه فينا ، وأنت على الدليل دليلٌ !

وكل هذا من الشعر السياسى الذى كان له دوىّ أىّ دوىّ فى زمنه ، وما
يزال يُستشهد به فى مواقف الى زمننا الحاضر ، فللقاطمين وحضارتهم وثقافتهم
أنصار أوفياء حتى فى هذا العصر المتفرنج . ولعل أطول قصائده السيارة فى
المعزِّ ميميته التى أرسلها اليه فى القاهرة بينما كان الشاعر لا يزال فى المغرب .
وأكتفى فى هذا الباب أخيراً بالإشارة الى مقصوده البليغة :

تقدّم خطأً أو تأخّر خطأً فإنّ الشباب مَشَى القهقرى
وقد مدح بها المعزّ غاية المدح ووصف فيها الخيلَ وشدة شغفه بها . وأنى
لأعترف باعزازى لهذه القصيدة وإعجابى بمعانيها الوصفية على الأخص ، وهى
من مطولاته النفيسة . ومن مفاين هذه القصيدة فى وصف خيل الصيد
والسبق قوله :

فقُدنا الى الوحش أمثالها ورُعنا المها فوق مثل المها
صنعنا لها كلّ رخو العنا نر حيب اللبان سليم الشظى

يردّ الى بسطة في الالهة بـ اذا ما اشتكى شنجاً في النسي
كان قطعاً فوق أكفها اذا ما سرين يُثِرْنَ القطا
عواري النواهي شوس العيون ظاهُ المفاصل قبّ الكلى
تدير لطحر القذى أعيناً ترى ظلّ فرسانها في الدجى
ومحسب أطراف آذانها يراعاً برين لها بالمدى
وهنّ مؤللة حشرة منددة بخنى الصدى
تكاد تحسّ اختلاج الظنود بين الضلوع وبين الحشا
وتعلم نجوى قلوب العدى وسرّ الأحبة يوم النوى
فأبعد ميدانها خطوة وأقرب ما في خطاها المدى
ومن رفقها أنها لا تحسّ ومن عدوها أنها لا تُرى
جرين الى السبق في حلبة اذا ما جرى البرق فيها كبا!
ولم يبلغ المتنبي في وصف الخيل التي كان يعزّها إجازة فوق هذه الاجادة اللهم
الآ في نظره الفلسفية .

ومن شعر ابن هانيء الذائع في وصف الخيل أيضاً قوله :

وصواهلّ لا الهضبّ يوم مغارها هضبّ ، ولا البيدُ الحزونُ حزونُ
جنب الحمام وما لهنّ قوادمٌ وعلى الربود وما لهنّ وكونُ
فلهنّ من ورق العجين توجّسّ ولهنّ من مقلّ الطباء شفونُ
فكأنّها تحت النضار كواكبٌ وكأنّها تحت الحديد دجونُ
عرفت بساعة سبقها لا أنها علقّت بها يوم الرهان عيونُ
وأجلّ علم البرق فيها أنّها مرّت بمناحتيه وهي ظنونُ !
وله أوصاف أخرى محبوبة ك شعره في جنانار وفي جارية وفي قلعة كتامة وفي وصف
موكب عيد ونحو ذلك .

ولا أودّ أن يفوتني التنبيه قبل أن أترك الكلام على شعر المديح والوصف
الى قصيدته العينية المصماء في مدح القائد جوهر وذكر توديعه عند خروجه

من القيروان الى مصر، وفيها يصف الجيش ويذكر خروجه للتشييع، وذلك في سنة ٣٥٨ هـ. وقد استهلها بقوله:

رأيتُ بعيني فوق ما كنتُ أسمعُ وقد راعني يومٌ من الحشرِ أروعُ
غداةَ كأنَّ الأفقَ مُسدَّ بمنلهِ فعاد غروبُ الشمسِ من حيث تَطْلَعُ
فلم أدرِ إذْ سَلَّمْتُ كيفَ أشيِّعُ ولم أدرِ إذْ شَيَّعْتُ كيفَ أودِّعُ

فهذه القصيدة مما يجب على الأديب والمتأدبين أن يدرسوه من شعر ابن هانيء دراسة جديدة نظراً لنفاستها وقوتها، وهي من مطولاته الفخمة الماثورة. وليس يعيبها على ما أرى ما فيها من قعقة الألفاظ فهي من فطرته لا تكلف فيها. وما هذه الهنة - إن كانت هنة - بجانب سعة خياله ودقة معانيه؟

وإذا كنت من يعجب بشعر ابن هانيء الوصفي إعجابي به فاستمع الى قوله في مناجاة طائر:

وما راعني إلا ابنُ ورقاء هاتفٌ بعينه جرمٌ من ضلوعي مشبوبٌ
وقد أنكر الدوح الذي يستظله وسحَّت له الأغصانُ وهي أهاضيبٌ
وحتَّ جناحيه ليخطف قلبه عشاء سذانيق الدجى وهي غريبٌ
ألا أيُّها الباكي على غير الفهـِ كلانا فريدٌ بالسماوة مغلوبٌ
فؤادك خفاقٌ والفك نازحٌ وروضك مطلولٌ وبأنك مهضوبٌ
هلم على أنى أفيك بأضلعي فأملك دمي عنك وهو شايبٌ
تسكنك لي موشيةً عبقريةً كريشك إلا أنهن جلايبٌ
فلا شدوا إلا من رنينك شائقٌ ولا دمع إلا من جفوني مسكوبٌ

ولابن هانيء مواقف من حساده كما كان للعتبي ولابن الرومي ولكل شاعر عبقرى جهير في زمنه، وفي هذا يقول موجِّهاً خطابه الى المعز:

إذا ما مدحناكم تضيوع بيننا وبين القوافي من مكارمكم طيبٌ
فإنَّ ألكُ محسوداً على محرٍّ مدحكم فغيرٌ تكبيرٍ في الزمان الأعاجيبُ
أراني إذا ما قلتُ بيتاً تنكَّرتُ وجوهٌ كما غشَّى الصحائفَ ترتبُ

وما ظا ظ حُسادى سوى الصدق وحده وما من سجايا مثلى الا فكُّ والحُوبُ
أنى كلَّ عصرٍ قلتُ فيه قصيدةً على لأهل الجبل لومٌ وتثريبٌ
وما قصدُ مثلى فى القصيدِ ضراعةٌ ولا منِ خلالي فيه حرصٌ وترغيبٌ
أرى أعيناً خزرأ الى وإعما دليلاً نفوسِ الناسِ بشرٌ وتقطيبٌ
أبنٌ موضعى فيهم ليفخرَ غالبٌ بينُ بسماءٍ ويُدحَرَ مغلوبٌ
وقد أكثرُوا فاحكمٌ حاكمةً فيصلُ ليُعرفَ ربُّ في البديعِ ومربوبٌ
وهكذا كانت لابن هانىء مع المعزِّ مثل وقفة المتنبي مع سيف الدولة ،
ولكنَّ المعزُّ لم يخذل ابن هانىء فى حين أن سيف الدولة خذل أبا الطيب .
ومن لطائف شاعرنا فى الوصف قوله فى سيف :

وأبيضُ كلسانِ البرقِ مخترطُ من دونِ حقِّ معزِّ الدينِ إصليتِ
منية ليس تبغى غيرَ طالبها وكوكب ليس يبغى غيرَ عفريتِ
كما له فى سيف فرنجى :

وأبيضُ من غيرِ طبعِ الهندِ يجول بين حدِّه والحدِّ
أشبه بالماء من الفرندِ أقدم من رام وزيرِ جردِ
تراث يحيى عن أبِ وجدِّ من بعد ما قطع ألفَ غمدِ
جرده بين يدي معدِّ قد ينصر المولى بسيف العبدِ !
وله فيه أيضاً :

وذى شطب قد جلَّ عن كلِّ جوهرٍ فليس له شكلٌ وليس له جنسُ
كما قابلتُ عينٌ من اليمِّ لجةً وقد نحرثها من مطالعها الشمسُ
ومن أقرب شعر ابن هانىء شبيهاً بشعر أبى الطيب ميميته التى وجَّهها الى
أبى زكريا يحيى بن على بن غلبون الأندلسى وقد افتتحها بقوله :
أتظلم منها الحبُّ والحبُّ ظالمٌ فهل بين ظلامين قاضٍ وحاكمٌ ؟
ومنها :

وقالت : قطعاً سارٍ سمعتُ حفيفه فقلتُ : قلوبُ العاشقين الحوائمُ !

ومنها :

أخو الحربِ وابن الحربِ جبرَّ نجاهه إليها وما قدَّتْ عليه التمامُ
أمثله في ناظرٍ بعد ناظرٍ كأنِّي فيما قد أرى منه حالمُ
وليس كما قالوا المنية كأممها ولكنها في كفه اليوم صارمُ
ويعدل في شرق البلاد وغربها على أنه للبيضِ والشمرِ ظالمُ
ومنها :

أتوكُ فما خرَّوا إلى البيضِ سجِّدًا ولكنما كانت تخرُّ الجماجمُ
سبقت المنايا واقعًا بنفوسهم كما وقعت قبل الخوافي القوادمُ
تعود الكماة المعلمين إلى الوغى لهم فوق أصوات الحديد همائمُ
غزوا في الدروع السابغات كأنما تدير عيونًا فوقهن الأرقامُ
فليس لهم الآءُ الدماء مَشاربٌ وليس لهم الآءُ النفوس مَطاعمُ
يودون لو صبغت لهم من حفاظهم وأقدامهم تلك السيوفُ الصوارمُ
ولو طعنت قبل الرماح قلوبهم ولو سبقت قبل الأكف المعاصمُ
وكلها على هذا النسق من قوة السبك .

ومن شعره الوصفي الظريف هذه الأبيات في رجلٍ أكلٍ ، وقد جاءت
جامعة في بابها الساخر :

أنظرُ إليه وفي التحريك تسكينُ كأنما التقت عنه التنانينُ !
يأليت شعري إذا أوتى إلى فهِ أحلقه لهواتٌ أم ميادينُ ؟ !
كأنها وخبيثُ الزاد يضرُّها جهنمٌ قدَّفت فيها الشياطينُ
تبارك الله ما أمضى أسنَّته كأنما كلُّ فكٍّ منه طاحونُ
كأنَّ بيتَ سلاحٍ فيه مختزنٌ مما أعدَّته للرُّسلِ الفراعينُ
أين الأسنةُ ، أم أين الصوارمُ ، أم أين الخناجرُ ، أم أين السكاكينُ ؟
كأنما الحتلُ المشويُّ في يده ذو النونِ في الماءِ لما عضَّه النونُ
لفُ الجداءُ بأيديها وأرجلها كأنما افترستهنَّ السراحينُ

وفادر البط من منى وواحدة كأنما اختطفتين الشواهين
يخفف الرز من قرن الى قدم والبلاعيم تطريب وتلحين
كان في فكه أيتام أرملة أو باقيات عليهن التباين
كأنما ينتقى العظم الصليب له من تحت كل رحي فهرم وهاوون
كأنما كل ركن من طبائعه نار وفي كل عضو منه كآون
كأنما في الحشا من خمل معدته قرنفل وجواريش وكون
قوموا بنا ، فلقد ريعت خواطرنا وجاذبتنا أعتها البراذين
فليس ترويه أمواه الفرات ولا تقوته فلك نوح وهو مشحون !

ومن شعره الوصفي أيضاً قصيدته المشرقة التي وصف بها المجلس الذي
بناه إبراهيم بن جعفر وكأنك تراه وتلمسه من هذا الوصف :

الشمس عنه كليله أجفانها عبرى يضيق بسرّها كتائبها
لو تستطيع ضياءه لدنت له يعشو الى لمعانه لمعانها
وأراكها محبو على أيرحائها لم تخف مدعنة ولا إذعانها
إيوان (كسرى) لو رأته فارس ذعرت وخرت لسعك إيوانها
واستعظمت ما لم يخلد مثله (سابورها) قدماً ولا (ساسانها)
سجدت الى النيران أعصرها ولو بصرت به سجدت له نيرانها
بل لو مجادلها به البابها في الله قام بحسنا برهانها
أوما ترى الدنيا وجامع شملها صغرى لديه وهو يعظم شأنها
لولا الذي فتنت به لاستعبرت ثكلى تقض ضلوعها أشجانها
خضل البشاشة مونق من ماها فكأنه متهلل جذلانها
يندى فتنشا في تنقل فيه غر السحاب مسبل هطلانها
وكأن (قدس) و(يدبلاً) وفدا ذرى أعلامه حتى رست أركانها
تعدو القصور البيض في جناته صوراً اليه يجمل عنه عيانها

والقبة البيضاء طائرةً به تهوى بمنخرقِ الصبا أعنانها
ضربت بأروقة ترفرف فوقه فهوى بنخق قوادم خفقانها
علياء موفيةً على عليائه في حيث أسلم مقلةً إنسانها
بطنائها وشى البرود وعصبتها فكانما قوهيها ظرائفها
نيطت أكاليلها بها منظومةً فغدا يضاحك درهما مرجانها
وتعرضت طرر الشمول كأنها عذبات أوشحة يروق جانها
وكان أفواف الرياض تُنثرن في صفحاتها فتفوقت ألوانها
فأدر جفونك واكتحل بمنظر غشى فريد لجينها عقيانها
لترى فنون السحر أمثلةً وما يدرى الجهول لعلها أعيانها
مستشرفات من خدور أوانس مصفوفة قد فصلت تيجانها
مقابلات في مراتبها ، جنت حرباً على البيض الحسان حسانها
فاخلع حميداً بينها عذر العصبى وليبد سر ضائر إعلانها
وحباكها كلف الضلوع بحصنها ريان جانحة بها ملائها
تسلى الحب عن الحبيب وتجتني ثمر النفوس محرماً سلوانها
ردت على الشعراء ما حاكت لها غر القوافي بكرها وعوانها
وأنت تجرر في ذبول قصائد يكفيك من سحر البيان بيانها
أعيت لبيباً وهي موقع طرفه فقضى عليه بجهله عرفانها ؛

ألا ترى في هذه القصيدة ما يذكر بوصف البحترى لقصر المعتز بالله ،
أو وصف ابن حمديس لقصر المنصور بن أعلى الناس ببجاية ؟

وبعد كل هذا أراني مقصراً إذا لم أعترف بأن فن الرثاء عند ابن هانيء
هو أكرم شعره وأقواه ، إذ فيه من التفكير والتفجع والاعتبار ما ينزله منزلة
الأكبار ، وأشهر مرثيه تلك التي يرثي بها والده يحيى وجعفر ابني علي ، وفيها
يقول :

صدق الفناء وكذب العمر وجل العظمت وبالغ النذر

إنا وفي آمالِ أنفسينا طولٌ ، وفي أعمارنا قصرٌ
لنرى بأعيننا مصارعنا لو كانت الأبوابُ تعتبرُ
مما دهانا أن حاضرا أجنانا والغائب الفسكرُ
وإذا تدبرنا جوارحنا فأكلهنَّ العينُ والنظرُ
لو كان للأبوابِ ممتحنٌ ما عدَّ منها السمعُ والبصرُ
أى الحياة ألدَّ عيشتها من بعدِ علمي أنى بشرٌ ؟
خرستُ لعمر الله السنُّ لنا تكلم فوقنا القدرُ

وقد رثاها بقصيدة أخرى مؤثرة أذكر منها قوله الحكيم :

مهٍ اكلُ آتٍ قريبُ المدى وكلُّ حياةٍ إلى مُنتهى
وما عزَّ نفساً سوى نفسها وعمرُ الفتى من أمانى الفتى
فأقصرُ في العينِ من لفتةٍ وأسرعُ في السمعِ من لا ولا
ولم أرَ كالمرو وهو اللبيبُ يرى ملءَ عينيه ما لا يرى !
وليس النواظرُ إلا الغيوبُ وأما العيونُ ففيها العمى
ومن لي بمثل سلاح الزمان فأسطو عليه إذا ما سطا ؟
وله في رثاء ولد ابراهيم بن جعفر بن علي قصيدة أخرى عصماء تدل على
علو كعبه في هذا الفن . استمع إليه يقول في أولها :

وهبَ الدهرُ نفيساً فاستردتُ ربما جادَ بخيلٍ خسدتُ
خاب من يرجو زماناً دائماً تعرف البأساءُ منه والنكدُ
فاذا ما كدرُ العيشِ نعى وإذا ما ما طيبُ الزادِ نغدُ
فلقد أذكرُ من كان سها ولقد نبه من كان رقدُ
قل لمن شاء يقل ما شاء إن خصمى في حياتي لآلة
مُنْتَضِرُ نصلاً إذا شاء مَضَى رائسُ سها إذا شاء قصدُ
فاذا فوقه انقل له بين ضدّين فؤادٌ وكبدُ

ولئن كان شعرُ المرائي لابن هانيءَ قليلاً فإنَّ روحه الفلسفية المعتبرة التي تنسى وقتياً ما ألقه من حياة الناس العابثة تنعكس بصدقٍ في هذا الشعر . هذا ما سمح به المجالُ في درس ابن هانيءَ وشعره بالنسبة للعوامل التي أرتت فيه وفي حياته وأدت الى خاتمها السريعة . وهو بلا شك ثمرة من ثمار الحضارة الأندلسية الصاخبة باللهو والترف صخبها بالبحث والفلسفة ، فجمع ابن هانيءَ بين النعمتين وانقلبت ثابتهما نقمة عليه ازاء ما انتاب الجمهور من ردِّ فعلٍ ، مما اضطره الى الرحيل الى المغرب واتصاله بالقائد جوهر وأمرء الشيعة هناك ثم بالمعز لدين الله الفاطمي نفسه ، فكان ذلك دافعاً إياه للتعلق بالشيعة أي تعلق ولو في مظاهر شعره . ومهما انتقد ابن هانيءَ من هذه الناحية فحسبه أنه لم يكن متقلباً كالبحثري مثلاً الذي كان ينظم قصائد المدح في أشخاص معينين ثم يدول نفوذهم فيوجهها بعينها الى خصومهم بعد تحوير طفيف ! صحيحٌ انَّ ابن هانيءَ لم يعمّر طويلاً ولكنه مات مع ذلك في منتصف العقد الرابع من عمره فكان رجلاً ناضجاً ، فما يشرفه أن يخلو ديوانه من صور الذبذبة ومن المهاترة بالهجاء ، وليس في ديوانه سلكه إلا هجاء شخص واحد هو الوهراني لاعتبارات سياسية تتصل بإبراهيم بن جعفر بن عليّ ، وهو بصور هجاءه يمثل هذا الشعر :

طَلَبُ المجدِّ من طريقِ الشُّيُوفِ شَرَفٌ مؤنسٌ لنفسِ الشريفِ
إنَّ ذلَّ العزيزِ أقطعُ سَرائي بين عينيه من لقاءِ الحُتُوفِ
ليس للمجدِّ مَنْ يبيتُ على المجدِّ بسعيٍ وانٍ ونفسٍ عزوفِ
وعدتني الدنيا كثيراً فلم أظفرُ بغيرِ المطالِ والتسويقِ
كلَّما قلبتُ المجددُ فيها اللحظَ ولَّى بناظرٍ مطرُوفِ

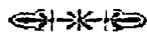
وما من شكٍّ في أنَّ هجاءه أعفٌ من هجاء المتنبي وأنه يرمى من ورائه الى غاية شريفة ، فهو أشبه بالتنديد الاجتماعي والسياسي وأقرب اليه منه الى الهجاء الشخصي المقذع . وقد كان لابن هانيءَ من بيئته الأدبية بفضل والده الشاعر الفيلسوف ما أعطاه القدرة اللغوية والدلاقة البيانية فهياً له ذلك أسباب الشهرة ، خصوصاً وقد تجلَّتْ له طبيعةٌ فنيةٌ قادرةٌ وذوقٌ أدبيٌّ

سليم حتى لنجد في شعره كثيراً من الصفات المنشودة في أرقى النظم كوحدة القصيد وظهور الشخصية واستقلالها وطلاقة البيان والجرأة على التصرف الأسلوبى مع النفور من المحاكاة، فاذا شابه شاعراً آخر في شيء فلا شك في أن هذه المشابهة مجرد اتفاق أو من أثر اطلاعه الشعرى الجم بعد أن توفر على الشعر وحده .

وبالرغم من أن الأدباء في زمنه حاولوا أن يخلقوا جواً للتناظر بينه وبين أبي الطيب المتنبي فاننا نحمده لا يتدنى للحسد والمنافسة الصبيانية ، بل نراه يقدر المتنبي في شعره خيراً تقديره ويدافع عنه (أنظر ص ٥٤ من ديوانه) ، وأعنى لو التفت القراء الى قصيدته هذه التفاتاً خاصاً ، وكأنه بدفاعه عن المتنبي يدافع عن مواهب نفسه أمام الجهة الناقدين .

هذه صورة طاجلته ولحمة خاطقة لابن هانيء وشعره لا أعتبرها مؤنسية ، فلملها تكون موحية لغيرى من الأدباء القادرين على إنصاف الناهيين . ومما يستحق الدرس الخاص أثر الثقافة الفلسفية في كل من أبي الطيب وابن هانيء لأنى أستبعد أن الأخير كان يتعمد محاكاة الأول فيما له من نقد اجتماعى وتفكير حر وآراء حكيمة ، وإنما الظاهر أن كليهما استقى من نبع الفلسفة فتشابه قليلاً ثم اختلفا لاختلاف الطبع والمزاج والبيئة ، ولكليهما منزلته وفضله وأثره الخالد في الأدب العربى .

(١٩١١)



الفلاسفة المسلمون

قد يُعَدُّ الاسلامُ ديناً فطرياً بعيداً عن الفلسفة ، ولكن اتصال المفكرين المسلمين بالثقافة الغربية خلق طرازاً بل أكثر من الفلاسفة والمتصوفين لك إن شئت أن تعتبرهم بمنزل عن روح الاسلام الأصلية ولكنهم على كل حال عملوا على إشباع الدين الاسلامى بالفلسفة والتصوف ، وأستثنى من ذلك جهة المتصوفة الذين ابتدعوا الطرائق الصوفية ، فهؤلاء نكبة على الفكر وعلى الاسلام معاً ، والواقع أن الاسلام أصلاً لا يعترف صراحة بالتصوف ولا شأن له بما

يسمى « وحدة الوجود » ، ولا علاقة له أصلية بتعاليم محيي الدين بن العربي ولا جلال الدين الرومي مثلاً ، ولو كان الاسلام يأخذ بالتعاليم الصوفية لما عارض التثليث في المسيحية ولما اعتبر المسيحية مخالفة للتوحيد مع أنها ديانة التوحيد التي تنظر فقط للآه الواحد الأحد من ثلاث جوانب صوفية وإن تبعها ما تبعها من خلاقات وانقسامات لا تحصى ولا تعد في التفسير والفهم ، ولكل خلاف شيعة وطائفة وكنيسة !

ومهما يكن من شيء فقد بات منسوباً الى الاسلام عددٌ من كبار المفكرين الفلاسفة أشهرهم ابن باحة وابن رشد وابن سينا وابن طفيل وابن مسكويه والغزالي والفارابي والكندي فضلاً عن جماعة (اخوان الصفا) الذين انشأوا في عهدهم دائرة معارف ثقافية عظيمة .

وقد كان لاغلاق الامبراطور جوستينيان مدارس الفلسفة في أثينا الفضل الأول في نشر الفلسفة الغربية في البلاد الشرقية لاضطرار الفلاسفة المعلمين الى الفرار من وجه الاضطهاد صوب الشرق ومنه الى الاسكندرية . فلما سقطت في أيدي العرب مدينة الاسكندرية في منتصف القرن السابع استوعب علماء العرب الكثير من التعاليم الفلسفية وعن طريق الفتح العربي انتقلت الى الأندلس .

وكان العرب وما يزالون متأثرين بفلسفة أرسطو وأفلاطون وخصوصاً بتعاليم أرسطو ، حتى أن شعراءهم البارزين المشهورين بالحكمة كأبي تمام والمتنبي ثم تلميذه أبي العلاء المعري اشتهر عنهم إدمان النظر في فلسفة أرسطو . كذلك اشتهر عن ابن رشد الفيلسوف الأندلسي أنه الشارح لهذه الفلسفة الأرسططاليسية والحامي العظيم عنها وعن الفلسفة عامة حتى ألف في ذلك كتاب (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) ، وقد كان ابن رشد قاضي قضاة الأندلس وأشهر فلاسفة الاسلام على الاطلاق . نفاه أبناء عصره ومنعوا كتبه لاشتغاله بالفلسفة ، وعلى شروحه الفلسفية بنى الأوروبيون فلسفتهم في القرون الوسطى ، وكان اسمه مشهوراً عندهم شهرة أرسطو (أنظر كتاب « ابن رشد وفلسفته » تأليف فرح أنطون منشيء مجلة « الجامعة » وهذا الكتاب يحتوي على ترجمة ابن رشد بالتطوير نقلاً عن مؤرخي العرب والافرنج ، مع بيان مؤلفاته وطريقة شرحه أرسطو وبسط فلسفته ونسبتها الى

فلسفة أرسطو وتاريخها عند اليهود وفي أوروبا، واهتمام القديس توما أعظم حكماء الكنيسة الغربية بالردّ عليها، وتاريخ الفلسفة الحديثة التي حلت محلها — وهو كتاب نفيس^١ يزيد من قيمته ما في آخره من نقد ونقاش، ولا عجب ففرح أنطون من الأعلام الذين لهم فضل ماثور على الحركة الفكرية الحديثة) وخلاصة رأي ابن رشد أن عالمنا الشمسي الأرضي عالم^٢ متحوّل^٣ ناقص^٤، وأن خلف النجوم يوجد عالم عظيم كامل أزلي. وكان يفصل بين النفس والروح فيرى أن النفس نتيجة وظيفة المخ فاذا تلف المخ تلفت معه فهو من هذه الناحية مادي التزعة، وأما الروح في اعتباره فشيء آخر إذ هو العنصر الخالد في الانسان وأنه بالرياضة يستطيع أن يمزج روحه بروح الكون وروح الألوهة الأزلي. وكان يرى أن المادة أزلية وإن تعددت صورها وتمكنت العقول من تنويع تكييفها وأن المرجع النهائي لها هو الخالق سبحانه وتعالى. ومن أحسن كتب الترجمة في التعريف بابن رشد الكتاب الذي وضعه رينان فأحرز به شهادة الدكتوراه.

أما ابن باجة الفيلسوف الأندلسي فقد كان طبيباً وفلكياً رياضياً واشتهر شهرة الفارابي بالموسيقى أيضاً، ومات في شبابه مسموماً ضحية الجهلة والمتنطعين. وهو منال^٥ للعباقره الذين أتقنوا أكثر من علم وفن اتقاناً عظيماً. ولابن باجة مؤلفات عديدة تبلغ زهاء الثلاثين لم يصل الى هذا العصر منها إلا (رسالة الوداع) ومجموعة في الفلسفة والطب والطبيعيات. ويبدو تفوقه العقلي في كلامه على العلم الإلهي واتصال الانسان بالعقل الفعّال العام (العقل الكوني أو العقل الإلهي). وكان من رأيه أن العلم النظري وحده قادر على الوصول بالانسان الى فهم ذاته وفهم العقل الفعّال، وبذلك وقف موقفاً معارضاً للغزالي، وهو يعدّ الى حد كبير من تلاميذ الفارابي.

وأما ابن سينا ففارسي الأصل (من بخارى) وقد نشأ مستقلاً برأيه معتدّاً بنفسه وإن كانت فلسفته قريبة من فلسفة أرسطو، وكان عبقرياً في نواح شتى تجلت في تأليفه العديدة وأشهرها كتابه (الشفاء) الذي يقع في ثمانية عشر جزءاً، وهو دائرة معارف علمية، وكتاب (النجدة) الذي هو موجز (الشفاء) وفيه بحوث ممتعة في المنطق والطبيعيات وما وراء الطبيعة. أما (القانون) لابن سينا فله شهرته في عالم الطب وقد كان مرجع الأطباء

عامة في القرون الوسطى . ومن رأى ابن سينا الذى كان مشغولاً بالآهيات والمنطق أن الوحدة الالهية لا تصدر عنها الا وحدة ، وإذن يعلل نشوء الأكوام المختلفة بأنها ليست صادرة عن الله مباشرة بل عن حركة الدوائر الناجمة عن الدائرة الأولى التى تحيط بالكائن الفرد . وقد تناول ابن رشد آراء ابن سينا بالشرح الكثير والتعليق والنقد وشهد لابن سينا بالتفوق على غيره من الفلاسفة الذين تأثر بهم الى حد ما كأرسطو والفارابى فى التمييز بين الممكن والواجب لاثبات وجود كائن روحى . ومع أن ابن سينا كان يقول بأزلية الوجود فانه كان يرى أن هذه الأزلية تختلف عن أزلية الله بأن لها سبباً خاصاً وقائماً بها ، وهذا السبب لا يقع فى الزمان ، أمّا الله فأزلى الوجود بذاته .

وإذا ذكرنا الفيلسوف الأندلسى ابن طفيل تبادر الى ذهننا كتابه الشهير (حى بن يقظان) الذى احتوى زبدة فلسفته فى شكل قصة جعل بطلها معتزلاً فى جزيرة منكباً على الدراسات الفلسفية ، وقد شغل نفسه بتفهم علاقة النفس الانسانية بالعقل الأول وتدرّجه فى النشوء والارتقاء الى أن يبلغ غاية الرقى والايان التام بالخالق . وهو أول فيلسوف اسلامى اتخذ القصة قالباً لصب فلسفته فيها ، فكان رائداً فى نهجه الخيالى القصصى البعيد التصوير ، وقلده فى ذلك مؤلف (روبنصن كروزو) فيما بعد . وله نقد وتعليقات شتى على فلسفة ابن باجة وابن سينا والغزالي والفارابى تدل على قوة تفكيره وتأمله ، ولا عجب فقد كان من نوادر زمنه فى الاطلاع الواسع إذ كان فابغة فى الطب حتى أنه كان يدرسه فى غرناطة ، ونابغة فى الفلك حتى عارض نظريات بطليموس ، ونابغة كذلك فى الشعر . وهذه المواهب المتعددة نجدها فى أمثاله الاعلام المتقدمين فى الشرق والغرب .

وأما ابن مسكويه ففيلسوف النفس والأخلاق ، كما أن ابن خلدون فيلسوف الاجتماع ، وهو فارسى الأصل ، وقد كان مجوسياً ثم أسلم . وذكّر عنه أبو منصور العمالي أنه كان فى الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر وكان فى ريعان شبابه متصلاً بابن العميد مختصاً به ، ثم تنقلت به أحوال جليّة فى خدمة بنى بويه والاختصاص بيهاء الدولة ، وعظم شأنه وارتفع مقداره فترفع عن خدمة صاحب ، ولم ير نفسه دونه ، ولم يخل من نوائب الدهر .

وقد عني ابن مسكويه بالتفريق بين الحكمة والفلسفة ، فهو يرى أن الحكمة هي فضيلة النفس الناطقة المميّزة وهي أن تعلم الموجودات كلها من حيث هي موجودة وإن شئت فقل أن تعلم الأمور الآلهية والأمور الانسانية ، وممر عليها بذلك أن تعرف المعقولات أيها يجب أن يُفعل وأيها يجب أن يُغفل . وغاية السكّال الانساني في فلسفة ابن مسكويه أن يعلم الموجودات كلها بكلياتها وحدودها التي هي ذواتها لا أعراضها وخواصها التي تصيرها بلا نهاية (أنظر كتاب « تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه ، وقد قررت نظارة المعارف العمومية تدريسه بمدرسة المعلمين الناصرية) . ومن أجل ما قرأته له ما كتبه في علاج الخوف من الموت إذ يقول « إن الخوف من الموت ليس يعرض الآمن لا يدري ما الموت على الحقيقة أو لا يعلم الى أين تصير نفسه أو لأنه يظنّ أن بدنه اذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور ، وأن العالم سيبقى موجوداً وليس هو بموجود فيه كما يظنه من يجهل بقيه النفس وكيفية المعاد ، أو لأنه يظن أن للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض التي ربما تقدمته وأدت اليه وكانت سبب حلوله ، أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت ، أو لأنه متحير لا يدري على أي شيء يقدم بعد الموت ، أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات ، وهذه كلها ظنون باطلة لا حقيقة لها . أمّا من جهل الموت ولا يدري ما هو على الحقيقة فانا نبيّن له أن الموت ليس بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها وهي الأعضاء التي يسمّى مجموعها بدنًا كما يترك الصانع استعمال آلاته » الى آخر هذا المنطق الذي يوافق أهواء فلسفته .

وأما الغزالي فهو طوسيّ المنشأ وكان متبحراً في علوم الفقه والفلسفة اليونانية التي قتلها بحثاً واستيعاباً ، مما دعا الوزير نظام الملك (وزير السلطان ملك شاه السلجوقي) الى إسناد ادارة المدرسة النظامية في بغداد اليه ولم يكن قد بلغ منتصفَ العقد الرابع من عمره . وقد عاش عيشة المتصوف وانقطع لتأليف الكتب الاسلامية حتى لُقّب بحجة الاسلام . وكتابه (المنقذ من الضلال) يمثل زبدة تفكيره الفلسفي كما أن كتابه (تهافت الفلاسفة) خير قرين له إذ فيه يتناول نقد آراء الفلاسفة نقداً صارماً ويحمل عليهم بكل عنف وفي ختامه يقول « إنما الذي زمي اليه في هذا الكتاب هو أن نشرح

مبادئهم وأن تقابلها بما ينقضها من الأدلة ولا يزيد أن نكون على مبدأ منها ، وليس مقصدنا أن نذكر أدلة على حدوث العالم ، إنما هدم ما ذكره من الأدلة تأييداً للقول بقدم المادة » ، وقد ردَّ عليه ابنُ رشد بكتابه المشهور (تهافت التهافت) . وباعتباره فقيهاً اسلامياً قبل أن يكون فيلسوفاً جعل مبدأه الاساسى أن كلَّ ما يخالف أصول الدين لا أساس له وأخذ يدعو الناس الى الدين الخالص وحده ، ثم تغلبت عليه الصوفية فرمى بنفسه في أحضان المبهمات وتبعه في ذلك خلقٌ كثير من عازفين عن الفلسفة وقضاياها . فعَدُّهُ فيلسوفاً هو من باب التجوُّز لأنه كان في الواقع عدوًّا للفلسفة بمعناها المعروف ، بعكس ابن رشد الذى كان سنداً قوياً لها ، ومع هذا فلا يُنكر أنه كان سبباً قافلاً لمعالجة موضوع الفلسفة الحسيَّة قبل الفلاسفة الغربيين ، وكان يرى في المعرفة الحسية وحدها الأمان من الزلل ، ولذلك لم يكن يحفل بأرسطو وعن تبعوه .

وأما الفارابى فهو كابن سينا وابن مسكويه فارسىُّ الأصل وكان والده قائداً في الجيش على ما يقال ، وقد ذكر ابنُ ابنِ أصيبعة أن الفارابى كان ناطوراً في بستان في دمشق وكان دائم الاشتغال بالفلسفة وكان فقيراً ويستضىء في الليل بالقنديل الذى للحارس ، ثم عظم شأنه فيما بعد . وهذا يدلنا على عصامية الفارابى كعصامية أبى تمام والمتنبي . وكما أن المتنبي التحق ببلاط سيف الدولة كذلك التحق الفارابى زمناً ولم يفته أن يمدح سيف الدولة بشعره شكراً لحفاوته به وتقريبه إياه لتفكيره ولقنه الموسيقى العظيم ، ولكنه أخيراً آثر حياة العزلة والانقطاع للعلوم الفلسفية . وقد برع كغيره من حكماء زمنه في الطب والرياضيات والمنطق والأدب ، كما أنه حذق جملة لغات وهذه موهبة خاصة . وقد درس الفارابى فلسفة أرسطو (المعلم الأول) أوفى دراسة وتعلق بها مع مزجها بشيء من آراء أفلاطون وتعاليم الاسلام ، وتزعم الفلاسفة الوجوديين أى الذين يقدرّون الأشياء بوجودها فقط ، وعلى هذا يقدرّ أن الله واجب الوجود دون أن يعنى هذه الفلسفة البحث في حكمة الخلق وما الى ذلك . ونظراً لتوفيقه الكبير في تبسيط الفلسفة اليونانية دُعِيَ (المعلم الثانى) ، ومن نفائس تآليفة كتاب (المدينة الفاضلة) وفيه تفلسف بديع عن وحدة النفوس وتسلسل السعادة بين النفوس المماثلة الكاملة ، ولم يكن يؤمن إلاً بخلود النفوس

المتسامية ، ولا عجب فقد عني بتقسيم قوى النفس وبدراستها دراسة متعمقة وتحليل القوى العاقلة وعلاقتها بالارادة والاختيار والسعادة . ولا شك في أن كتابه (المدينة الفاضلة) من آيات ذكائه ، وقد نال هذا الكتاب حظوة خاصة عند سيف الدولة نظراً لما فيه من نظرات سياسية عزز بها آراء الشيعة الذين كان سيف الدولة في طبيعتهم .

وأما الكندي فهو عربي قحّ وسليل أحد ملوك العرب ، ويعتد أول فلاسفة الاسلام أو أول تائر على الاسلام بفلسفته ، وأخلص من احتذى أرسطو . وقد لقب بفيلسوف العرب نظراً لخلوص نسبه العربي وتبحره الفلستني ، وله تأليف عديدة في شتى العلوم الى درجة مدهشة فلم يترك الهندسة والجغرافيا الى جانب الرياضيات والفلك والموسيقى ، ولم ينس السياسة والنفسانيات والأخلاق الى جوار الطب والمعادن والصناعات والكيمياء والطبيعة ، الخ . وكان حجة في كل ذلك ، وحسبه فضلاً جهوده في النقل الى الامة العربية المتعطشة الى المعرفة . وكان يعلم في فلسفته وحدة واجب الوجود وبساطة ذات الخالق العلية التي ليست له صفة مطلقه بل ان صفتها وذااتها شيء واحد . وهو بذلك وفي تعليم أستاذه أرسطو وللأفلاطونية الحديثة التي هي مزيج من الفلسفة والدين ، ومن روحه اقتبس الحكمة التي انتشرت في تعاليمه ، ومن أشهرها قوله :

فان الغنى في قلوب الرجال وان التعزّز بالأنفس
وكأن ترى من أخى عسرة غنى وذى ثروة مفلس
ومن قائم شخصه ميت على أنه بعد لم ير مس !

ومن هذا العرض الوجيز الذي اعتمدت فيه على ما في متناولى من تصانيف غربية وفرنجية يتضح أن الفلسفة غريبة عن روح الاسلام الأول وكذلك التصوف . ولئن حاول غير واحد من أولئك الفلاسفة أن يطوعوا الفلسفة للإسلام أو يطوعوا الاسلام للفلسفة فان عامة المتصوفين من الجهلة والمغرضين قد أساءوا الى الاسلام بعينهم وأضاليلهم ، فمن العجيب بعد ذلك أن ينالوا رعاية الحكومات الاسلامية !

ماثيو أرنولد

يجد طلاب الأدب الانجليزي في ماثيو أرنولد شخصيةً فذةً كان لها الأثر البالغ في النقد الأدبي إن لم يكن لها مثل هذا الأثر في الشعر الانجليزي . ولا يعنى هذا تجريده من شاعريته القوية فقد كان من شعراء العهد الفكتوري الممتازين ، ولئن لم يبلغ إنتاجه مثل إنتاج تينسون مثلاً فقد كان إنتاجاً ممتازاً على أى حال . وقد استمر إنتاجه الشعرى حتى كهولته ثم أخذ النقد الأدبي يسترعى اهتمامه فألقى في ميدانه جميع قواه .

وقد نبغ ماثيو أرنولد في الشعر منذ صباه وأحرز جائزتين سنيتين من كليته في روجي للمحمتين شعريتين نظمهما . وكان متأثراً الى حد كبير بالشاعر وردزورث ، ولكن لشعر ماثيو أرنولد مع ذلك شخصيته التي محورها الذكاء والتأمل الفلسفى ، وهذا الذكاء يسلبها حرارة العاطفة ويجعل شعره في بعض جوانبه صناعياً فكرياً خصب . ومع هذا فقد جمّلت ثقافته ومحبهه للاغريق هذا الشعر بما لا مزيد عليه . وهو يمثل طابعاً مخالفاً لطابع شيلي مثلاً - ذلك الشاعر العاطفى المثالىّ الساحر النغمات ، ومع هذا لا يستطيع أحد أن ينكر جمال هذه المقطوعة الفنّية الساحرة من مناجاته لكم :

So, some tempestuous morn in early June,
When the year's primal burst of bloom is o'er,
Before the roses and the longest day —
When garden-walks, and all the grassy floor,
With blossoms, red and white, of fallen May,
And chestnut-flowers are strewn —
So have I heard the cuckoo's parting cry,
From the wet field, through the next garden-trees,
Come with the volleying rain and tossing breeze :
The bloom is gone, and with the bloom go I !

وكانت طبيعة ماثيو أرنولد تزجيه الى الأساليب المدرسية وبخاصة الى الأدب الاغريقي ، وإن حاول أن يجمع بين القديم والجديد في صورة واحدة .

ومع هذا لم تكن موسيقية شعره قوية ، وإنما كانت مزايا شعره محصورة في متانته الفكرية وتآلق ذكائه وفي تعمق نظراته الفلسفية . ولم يكن ميالاً الى الحركة الرومانطيقية بل كان مقاوماً لها حتى في صميم نفسه وشعره ، ومع ذلك لا يُجَلُّ شعره الآن الاً للمزايا الرومانطيقية المستترة التي حاول الشاعر وأدّها . ويتجلّى شعره الفلمني في قصائده القصيرة وفيه الكثير من روح التشاؤم والحسرة . وقد بلغ أرنولد مركز أستاذ الشعر في جامعة أكسفورد ، ولكنه خدم الشعر بنقده أكثر مما خدمه بانتاجه .

كان ماثيو أرنولد الناقد الأدبي - بالرغم من تأثره في نهجه بالشاعر الألماني العظيم جيته - رائداً في تحليله المنطقي وخصه الدقيق ، وكان في كتابه (رسائل النقد Essays in Criticism) معلماً ممتازاً لا يُشَقُّ له غبار . ولا جدال في أن طاقة التفكير عنده في الذروة ، كما كان تسلسلُ خواطره وملاحظاته بما لم يُعهد في ناقدٍ قبله . بيد أنه مع هذه الصفات الباهرة كان هوائياً الى حدٍّ ما في نقده ، وربما كان ذلك عن غير عمدٍ منه . وبديهى أنه لا الاطلاع وحده ولا المقدرة الانشائية بما يكفي لخلق الناقد المثالي ، فانه كالقاضي المطلع العادل ، وصفة العدل لا تُكتسبُ بحسن الموازنة لحسب وإنما لا بدُّ لها من عقل جيّار وضمير حيّ لا يمكن أن تؤثر فيه الأهواء لا مباشرة ولا بالواسطة . ومن هذا نرى أن نقاد الأدب الحقيقيين نادرون من الوجهة العلمية ، وعظيمٌ منهم من يستطيع أن يثبت استقلاله ومراقبته نفسه بنفسه حتى في عرض مؤلفات خصومه فيطمئن اليه الصديق والخصيم على السواء . ولماثيو أرنولد دراسات شهيرة عبّر بها عن روح عصره خير تعبير ، واذا أخذنا مثلاً المجموعة الثانية من (رسائل النقد) - طبعة ماكييلان وشركائه ، ١٨٨٩ - فالتناجد في قراءتها الجاذبية الساحرة وخصوصاً في الفصل الأول منها عن دراسة الشعر وفيما كتبه عن كلٍّ من وردزورث والكونت ليو تولوستوى ، فلا عجب إذا قيل إنه لا عُذرَ للأديب الذي يستوعب نقداً ماثيو أرنولد في أن لا يصبح ناقداً ولكن النقد في ذاته فنٌّ ، فهو ملكةٌ أدبيةٌ لا محاكاةٌ آليهٌ ، غير أن قراءة كتابات ماثيو أرنولد مصدرٌ إلهامٍ غنيٌّ ومبعثٌ صقلٍ صحيحٍ لأيّ أديبٍ ناضجٍ ، وما هذا بالغنم القليل .

أدب القرآن

لا جدال في أن أدب القرآن جديرٌ بعناية أوفى من العناية التي ينالها .
ومن العيب أن تقصر هذه العناية على طوائف الفقهاء والأزهريين في حدود
ضيقة بل الواجب أن تشمل جميع طلاب الأدب العربي ، إذ لا جدال في
أن القرآن كتابٌ أدبيٌّ إلى جانب كونه كتاباً دينياً مقدساً ومرجعاً للتشريع
بين المسلمين . وقد لاحظتُ أن بين الانجليز أنفسهم من يحفلون بدراسة ترجمة
القرآن - وأعني بذلك المثقفين منهم والمستعربين - فكيف بأبناء العربية سواء
أكانوا من المسلمين أم من غير المسلمين ؟ كذلك لاحظتُ أن الأحاديث النبوية -
بالرغم من رجحان الانتحال لمعظمها تنال عناية أوفى مما يناله القرآن نفسه مع
أن بعض المنتحل منها أولى بالمصادرة !؟

ومعلومٌ أن أدب القرآن هو وليد أدب الانجيل (العهد الجديد) وكذلك
وليد (العهد القديم) إلى حد كبير ، كما يتضح لمن يقارن بين آيات الكتابين
المقدسين وتعاليمهما في مواضع كثيرة ، فكيف يغفل النصارى عن دراسة هذا
الأدب الذي يمتُّ بصلةٍ وثيقةٍ إلى نفس كتابهم المقدس !؟

ولستُ أنكر أن انتشار الثقافة بين النصارى أصلاً قد جعلَ دينَ
بعضهم رقيقاً بالنسبة للتقاليد بل بالنسبة للأديان عامة ، ولكن كل هذا لا
شأن له بالأدب ، فالقرآن كتاب ملايين من البشر وفي الهند وحدها زهاء
خمسین مليوناً من المسلمين ، وهو مصدرٌ ثقافة خاصة بهم . فاذا نظرنا إلى الإنسانية
كوحدةٍ فليس من المقبول أن يُغفل مصدرٌ هامٌ كهذا لثقافة عدد عظيم منهم .
كذلك لا أنكر أن تعاليم القرآن الكريم لا تُرضى المتعلمين المتشددين
كما لا يرضيهم غيرُه من الكتب المقدسة . فالمتعلم المادي في أوروبا يعرف
أن هذه الأرض نقطةٌ ضئيلةٌ دائريةٌ في هذا الكون الفسيح الهائل فلا
يفهم أيُّ معنى للجنة والجحيم ، ويضحك من فكرة الملائكة والجن ، ومن
تخصيص السماء للعرش الآلهي ، ومن أن أصل القرآن محفوظ في السماء ،
ويُضحك أن يشغل أيُّ رجل عظيم فضلاً عن الخالق نفسه بالشؤون المحلية
الصغيرة التي يتناولها في زعمه القرآن الشريف مع ما فيه من السباب والمهاترة
والمطاعن الفحشاء في رأى هذا المادي ، وأن يُنسبَ كلُّ هذا إلى الخالق

سبحانه وتعالى ، وأن لا يرضى هذا الخالق الا لغة الصحراء المحدودة المدنية لتكون لسانه هو الى العالم ، وأن لا تمتد رسالته الا بحروب وويلات ! يسخر من هذا ومن فكرة الثواب والعقاب ، مع أن الانسان غير مسؤول عن الغرائز التي أوجدتها الطبيعة فيه على ما يرى أمثاله . وبعد كل هذا لا يرى من المنطق أن يضع وقتَه في دراسة هذا العبث الديني في اعتباره ، بغض النظر عمّا في القرآن الكريم حسب رأيه من تفكك في التعبير ومن متناقضات وخرافات كثيرة وآيات منسوخة وأخطاء تاريخية كانت تنطلي على العرب في ذلك الزمان ولا يجوز أن تنطلي في عصر الثقافة الشاملة ، عصر الكهرباء والاعجاز العلمي الصحيح ، الى غير ذلك من أمثال هذه الآراء المسرفة التي يقولها شبان منقفون واسعو الاطلاع لعبت الفلسفة المادية بعقيدتهم الدينية فبددتها وكرهوا بعد ذلك الأديان السماوية جميعها .

ولقد أتيج لي أن أسمع أمثال هذه الملاحظات الحرة من غير واحد من الزملاء المفكرين في انجلترا هذا العام أثناء دراستي في كلية الجامعة (University College) بلندن ، فلم أحملها بطبيعة الحال على محمل التعصب ضد الدين الاسلامي بالذات ، لأنّ القائلين بهذه الآراء لا يعتقدون في دين من الأديان كما أسلفت ، وانما اعتبرتها مظهراً من مظاهر الصراع بين الدين والعلم الذي اشتدّ بأمره أيّ اشتدادٍ في هذا القرن وسندته حياة التفكير الحرّة في الجامعات الأوروبية وما يلقى على الجمهور عامة لا علينا نحن الطلبة فقط من محاضرات جريئة في العلوم وحيويتها وعلاقتها الكونية .

أمّا محاجّتي فقد رأيتُ أن أحصرها من وجهة عملية في نقطة واحدة قوية — تلك أننا لا نتردد في دراسة الميثولوجيا بأنواعها مع علمنا بخرافاتها ، فكيف نفعل بعد ذلك أدب القرآن وهو ليس بديني فقط بل يمثل قانوناً مدنياً عظيماً تمسّى الى غاية ما انتهت اليه الحضارة الاسلامية ؟

ولقد أدعى الاستاذ نيكلسون خدمة جليّة الى أدب القرآن بما كتبه عنه في سفره الجليل عن التاريخ الأدبي للعرب A Literary History of the Arabs ، مع أن الاستاذ نيكلسون متخصص في الأدب الفارسي لا في الأدب العربي ، فكيف تكون الخدمة لو تقدم لها أحد المسلمين النابيين المتضلعين من الأديان العربي والانجليزي ؟

أما أدبُ القرآن فهو أدبٌ خلقه عظيمٌ قبل أن يكون أدباً بيانياً أو لغوياً . وكَم من آيات رائعة في حبِّ الأمانة والبرِّ والاحتمال والعطف لا يجوز أن تذهب سُدى سواء آمنّا جميعاً أم لم يُؤْمن بعضنا بالقرآن . وأمّا عن القيمة اللغوية البيانية فأقلُّها المعاونةُ الكبيرةُ التي نستفيدُها من دراسة تطوُّر اللغة العربية في ذلك العهد . وقد سمعتُ من أحد أصدقائي النصارى العرب مُسرّاً الشكوى من كيفية جمع القرآن وتنسيقه حسب طول السُور مؤاخذاً سيدنا عثمان على ذلك ومنتقداً حرقه النسخ السابقة لنسخته ... وكَم بودى لو عُنى الأزهر بهذه المشكلة وأمنّاها وأتحف العالم العربي بمعجم بل بمعجم تاريخية وبيانية وافية لأدب القرآن وتسلسله بدل هذه التفاسير القديمة التي سئما المتنوّرون ، كذلك آتمنى لو وَجَّه الأزهرُ بعض عنايته الى تنوير الأوروبيين عن قيمة أدب القرآن إذا عجز عن إقناعهم بدين القرآن الكريم الذي يعتبرون أنفسهم في غنى تام عنه ، على اعتبار أن الاسلام ليس سوى طبعة عربية محوّرة من المسيحية واليهودية . وأمّا في الوقت الحاضر فلا يقوم بعبء هذا التنوير سوى المستشرقين وحدهم فيا للخجل !

(١٩١٢)

جون بنيان

ساقى هذا الحريف المتجرد الى قراءة (سير الحاج - The Pilgrim's Progress) للمرة الثانية ، وكأنا الجوَّ الانجليزي أكسبها طعماً أدبياً جديداً فاستمتعتُ بها أيّ استمتاع ، ولم أستطع أن أمنع قلبي من تسجيل هذا التقدير لذلك الأديب الانجليزي الكبير وإن كنتُ غريباً عنه وليست لشهادة مثلى قيمةً في عالم أدبه .

كان جون بنيان مثالَ العصامية والعبقرية الفقيرة المنبت ، وقد صرّح بذلك في غير موارد ولم يظهر بين أبناء جلدته مَنْ حاول أن ينسبه الى بيئةٍ أرسقراطيةٍ كما حاول أن يصنع غيرُ واحد من كتابنا مع أبي تمام والمنتجبى وسواهما ... فهذا العبقرى كان من صميم الشعب وعمل للشعب الذي نبغ فيه .

ظهر جون بنيان في القرن السابع عشر ولم تكن حرية الطوائف الدينية مقررة في إنجلترا إذ ذاك ، وشغف في شبابه بالوعظ الديني بعد أن لم يكن يعبا بشيء من ذلك في صباه . وكان مثل هذا الوعظ الطائفي العلني محرماً حينئذ فلم يكن ثمة مفرّج من القبض عليه وسجنه . وحاول رجال الحكومة إقناعه بأن يعدّ بالعدول عن هذه الخطة إذ لم تكن لأحد رغبة في سجنه ، ولكنه أبى أن يعدّ بما يخالف ضميره فكانت النتيجة أنه قضى في السجن اثني عشر عاماً . . . وقد كان هذا الحبس الطويل خيراً وبركة على أدبه ، لأنه ساعده على مطالعات كثيرة وعلى إنتاج تأليف قيمة ، وفي السجن ألف معظم كتابه الخالد (سير الحاج) .

كان بنيان بروحه شاعراً ، وله فعلاً نظم أنيق ، نجاء كتابه هذا معطراً بنفحات الشعر والنقاء الديني ، وكان له من الوقع الأدبي العظيم ما أدى الى ترجمته الى اثني اللغات وإن كان فيما أعلم لم يُترجم بعد الى اللغة العربية . . . ولكن في كتابه كذلك طابع الثورة على الاضطهاد وفيه الكثير من مظاهر العراك النفسي والتأملات العميقة بين اليأس والسخط مما أنتجها جو السجن الطويل .

وكان بنيان تلميذ الكتاب المقدس ، ولم يعرف مدرسة حقيقية غيره مدة طويلة ، ثم لم يطلع بعد ذلك الا على كتب دينية من أمثال (طريق الانسان الى السماء Man's Pathway to Heaven) ، حتى اضطره السجن فيما بعد الى الاطلاع الواسع ، فقرأ في كتب الأدب وفي مقدمتها (الفردوس المفقود) للشاعر العظيم ملتون . فتأليف بنيان منبعها نفسه ، وحكاياتها هي حكايات نفسه ، وغاياتها خلاص النفس ، وطابعها ديني مَهْدَبٌ ، ومصدرها الحى هو الكتاب المقدس . ومع أن موضوع كتاب (سير الحاج) ليس مبتكراً لأنه قصة سالك ضال في الحياة يريد الخلاص بعد أن تخيّر نفسه حتماً بين الرب وبين الشيطان . فكتابه أشبه بالجميل عامى في التخيل والعظة ومع ذلك فإن ما أتمم به من حلاوة الاخلاص وجمال التخيل والروح الدرامية القومية يجعله حبيباً الى غير المسيحيين من الأدباء .

وقد قال ما كولى عنه إنه الكاتب الوحيد الذى استطاع أن يجعل الشيء المجرد ممتعاً متمتعاً الشيء المعين ، وذلك لقوته الدرامية التى تكسب أحيته

القصصية - كما في كتابه السالف الذكر - صورة الحقيقة المأمومة . فهو حادُّ
الذهن في تحيُّله وفي دقة تصويره وفي إحساسه بشعور المجموع وقتلهم إزاء
المصير الانساني ، وهو بقوة ملهمة يتدفق بنور هادٍ للمجموع لا تشويه
أية شائبة ، حياة ببيان وتأليفه من نبع الايمان القوي الخالص ، فكان
ترجماناً أميناً للكتاب المقدس ، بل كان رسولاً مستوعباً مبيناً لأجل تعاليم
المسيحية ولصدي هتافها في الضمير الانساني . ولولا إدمانه الاطلاع على
الكتاب المقدس (ونصه الانجليزي آية في البيان العالي) ما كانت له هذه
الديباجة المتينة لأنه نشأ شبه أعمى . ومثلُ هذا يقال عن الأدباء المفطورين
الذين ينتفعون بحفظهم القرآن ، فانه يكسبهم مادة انشائية غنية مادام عندهم
الاستعداد الطبيعي للانتفاع بها . وقد كاد هذا الأثر في نفس ببيان يُشعره كما
أشعر ملتون بأن البيان هبة سماوية من الله بل من روح الله ... ولا عجب
فقد كان ببيان مشغولاً بتأليف كتاب آخر حينما أحسَّ بوحى يلهمه قصة
كتابه (سير الحاج) ، وكانت تترامى الأخيلة عليه بسرعة فائقة ، فكتبه
وكانت ملاك على عليه ما يقول دون أن يعنيه إرضاء قارىء أو ناقد ! وهو نفسه
يعبر عن ذلك بشعر جميل إذ يقول :

I did not think

To shew to all the world my Pen and Ink

... nor did I undertake

Thereby to please my Neighbour; no not I;

I did it my own self to gratify.

وكتابه من أوله الى آخره قوي متسلسل ، لا ثغرة في تفكيره ولا في
تصوير شخصياته ولا في مطابقتها للحياة بالرغم من أنها وليدة التخيل . وكما
أننا نقرأ ديكنز فرحين لأننا نصحب رسولاً عظيماً من رُسل الاصلاح الاجتماعي
والرحمة بالشعب ، فكذلك نجد الغبطة في قراءة ببيان لأنه من رُسل الخلاص
النساني الصادق الايمان . وقد كان كلاهما بارعاً في خلق الشخصيات الحية المعبرة
عن أحوال المجتمع أصدق تعبير دون أن يعتورها نقص في الافصاح والمطابقة
مهما تعقدت حبكة القصة . وخيراً ما أذكره في ختام هذه الكلمة عن مقدرة
ببيان أن كتابه (سير الحاج) أصبح معدوداً ذخيرة أدبية في العالم المسيحي

بأسره يستمتع به المتقّفُ وغيرُ المتقّفِ ، كما يستمتع به البالغُ والصبيُّ على
المواء وذلك لجاذبيته الساحرة من جميع نواحيه وليس أقلها روحه القصصية .
فهل من العسير أن يباهى الأدبُ الاسلامي في المستقبل بمثل هذا الأثر ؟

(١٩١٣)



أوليفر جولدسميث

لو أن للريف المصرى طابعا خاصا من الثقافة بدل الجهل المتفشى لقلتُ
لشعرائه وأدبائه إن الشاعر الارلندي أوليفر جولدسميث أحسن شعراء
بمخاوتهم ودراستهم ، لأنّ روحه الانسانية التي كلّمها كحَدبٍ على
الزّارعين هي الروح التي تعوز أهل الفنّ عندنا بينما فلاحنا المسكين ذبيحةٌ
في أيدي المرايين دعّ عنك الأمراض الطفيلية والغذائية وقد تضافرت مع
الفاقة والقذارة على استنزاف حيويّته . ولكن هذه الثقافة مع الأسف
معدومةٌ ، والشعراء الذين يسكنون الريفَ المصرى مشغولون في الغالب
بتهنئة الحكام في أتفه المناسبات وفي نظم تواريح القران والختان ، ولا أستثنى
من مجموعهم الا شاعراً أو اثنين لم يظفر الريفُ من اتجاههما الأدبي الا
بقسط ضئيل من العناية .

فلم يبقَ لي بعد هذا الا توجيه أدبائنا الشباب الذين هم ذخر المستقبل
الى الحفاوة بهذا الشاعر الريفي النابغة في الوقت الذي نعطف على حركة
النقابات الزراعية واصلاح الريف المصرى . وعن طريق هؤلاء الشباب نرجو
أن يُطعّمَ الأدبُ المصرى الحديثُ بحب الريف وتقديره الأدبي في الشعر
والقصة والتحليل الاجتماعي والعلاج الاقتصادي وغير ذلك من وسائل التجميل
والاصلاح .

كان أوليفر جولدسميث مثالا صادقا للعصاميّ العبقريّ ، وقد ذاق
ألوان البؤس وكاد يُسجنُ لمعجزه عن دفع أجرة سكنه لولا أن أنقذه صديقه
وراعيه الدكتور جونسون الأديب الكبير الذي كانت معرفةُ جولدسميث له
بركةً عظيمةً عليه بعد حياته الأولى المريرة ، حتى بلغت به الحاجةُ الملحةُ

أن ينظم أغاني للشارع بنمن زهيدا فلا عجب اذا جاءت قصيدته المشهورة (القرية المهجورة The Deserted Village) عطفاً خالصاً على أبناء طبقتة . وقد أهدى هذه الانشودة الخالدة الى ذلك الفئان الأوحى في زمنه رينولد Sir Joshua Reynolds بدافع محبته إياه ، وأشار في إهدائه الى ما يحشاه من خطرٍ على الريف بسبب اضطرار سكانه الفقراء الى التروح صوب المدن والهجرة ، كما أشار الى أنه خبرَ بؤس الريف بنفسه في تجواله ، وقد نعى انهماك الأمة في الرفاهية والترف ناسية الريف وعمراته الذى هو قوام حياتها الحقيقية . ومن أجمل مقطوعات هذه القصيدة الاصلحية هذه الأبيات الرائعة :

Ill fares the land, to hastening ills a prey,
Where wealth accumulates, and men decay ;
Princes and lords may flourish, or may fade —
A breath can make them, as a breath has made :
But a bold peasantry, their country's pride,
When once destroyed, can never be supplied.

ويحيل الى أنه فى هذا الاتجاه الانسانى القوي متأثر بأقوال السيد المسيح فى « موعظة الجبل » إذ نعتَ الزارعين بأنهم ملح الأرض فاذا فسدوا فسد كلُّ شىء بعدهم ، أو ما هو فى هذا المعنى .
تعلم جولدميث الطبَّ عند ما تحسَّنتْ حالتهُ الماليةُ ، وأحرزَ شهادةَ طبيَّةَ أثناء تجواله فى أوروبا ، وخدمتهُ معارفه الطبيَّةُ أجلُّ خدمةٍ فى اتجاهاته الانسانية وفى قوَّته التحليلية وتدقيقه ، ووسعت آفاق تأملاته كما تدلُّ مقالاته النقدية فى (المجلَّة الشهرية — The Monthly Review) ودراساته المتنوعة التى تجمع بين الجدِّ والفكاهة اللاذعة التى اشتهرَ بها ، وكما تدلُّ كتاباته القصصية المتفنَّنة وأشهرُها (قسيس ويكفيلد — The Vicar of Wakefield) وهى انسانيةٌ الروح فياضةٌ بالفكاهة الحلوة كطابع كتاباته الى درجة فتنَّتْ شاعرَ ألمانيا الأشهر جيته فعدها مخلصاً للانسان من آثام الحياة ، وقد تُرجمتْ الى غير لغةٍ أوروبيةٍ ، وكذلك روايته التمثيلية الظريفة البديعة (هى تخضع لتُخضع — She Stoops to Conquer) ، ولكن أقوى ما يثير مشاعري فى جميع آثاره الأدبية من نثر ونظم على

اختلافه وتنوعه قصيدته العصماء (القرية المهجورة) وإن نال شهرته الشعرية قبل ذلك بطبع ملحمة الشعرية (السائح - The Traveller) التي أكسبته سريعاً شهرةً كلاسيكيةً . وكما أنَّ بيع قصة (قسيس ويانفيلد) على يد صديقه الحميم الشاعر الأديب الدكتور جونسون أنقذه مالياً ونجَّاه من السجن فكذلك كان نشر قصيدة (القرية المهجورة) إنصافاً لمواهبه الفنية كشاعر عظيم ، ولئن عيبَ عليه تعاليه في التصوير مرقعاً ما بين صور انجليزية وارلندية في اليأس وفي البؤس ، فما لا شك فيه أن رسالته الانسانية التبشيرية في هذه القصيدة مؤثرةٌ وخلافةٌ ومستحوذةٌ على القارىء بما ينسبه أمثال تلك الاعتبارات النقدية ويخضع تأملاته للموضوع ذاته .

(١٩١٣)

فلسفة المعري

يقول المعري :

وليس على الحقائق كلُّ قولى ولكن فيه أصنافُ المجازِ
ويقول أيضاً :

تعالى الله فهو بنا خيرٌ قد اضطررتُ الى الكذبِ العقولِ
تقول على المجازِ ، وقد علمنا بأنَّ الأمرَ ليس كما تقولُ ا

ومع هذا فهو نفسه القائل :

دينٌ وكفرٌ ، وأنباءٌ تُقصُّ ، وفرٌ قانٌ يُنصُّ ، وتوراةٌ وانجيلٌ
في كلِّ جيلٍ أباطيلٌ يُدان بها فهل تفرَّدَ يوماً بالهدى جيلٌ ؟
والتائل :

اثنانِ أهلُ الأرضِ : ذو عقلٍ بلا دينٍ وآخرُ دينٌ لا عقلَ له ا

كما يُروى عنه أنه كان شديدَ الحرصِ على صلاته وصيامه ، فما هي عقيدته
إذن من الاسلام ؟ وهل كانت له أيةٌ عقيدة دينية ؟ وأسأل هذا السؤال في

معرض الحديث عن فلسفته ، لأنَّ اتجاه فلسفته كما توجيها لزومياته ذو صلة وثيقة بالدين أو على الأصح بالاحاد . ويقول الذين يأبون بترا سلام المعري إنَّ إيمانه كمال في شيخوخته وانَّ إجماده وشكوكه كانت محصورة في شبابه وكهولته .

وقد قرأتُ (اللزوميات) غير مرة بامعانٍ كافٍ فزادتنى يقيناً بأنَّ أبا العلاء كان دائماً ساخراً بالأديان المعروفة ، ساخراً بالله الناس حسب تعريفهم وتفكيرهم ، وأنَّ صلاته لم تكن إلاً من قبيل الرياضة البدنية ، وصيامه لم يكن إلاً من قبيل الرياضة الصحية ، وليس لها أيُّ طابع ديني بدليل أنه حرَّم على نفسه غذاء ما أباحه الدين نفسه ، فلم يكن يتناول غير ما تنبته الأرض ، وسبق الهيجين العصري بقرون في تفضيل إحراق الميت على دفنه ، فما كان يبالي إذن بتقاليد الدين ، وإنَّ عُرِفَتْ عنه التقية في أحوال سواء في نظمه أم في رسائله (كما فعل مع داعي الدعوة) دفعاً لدسائس الناس وأداهم ... وليس في (رسالة الغفران) من أولها الى آخرها ما يمكن أن يؤخذ دليلاً صحيحاً على إيمانه بل الأمر على النقيض . قال الشيخ عبد الرحمن البرقوقي في تعقيبه عليها : « لاجرم أنَّ أبا العلاء يرمى بهذه الرسالة الى أغراض عالية أهمُّها في رأينا هذا الأسلوب الذي يكاد ينفرد به ، وإن كان احتذى فيه طريقة الرواة وأهل الأخبار ، فهم يجيئون بالكلمة من الغريب والخبر من الأنباء ثم يتناولون بالتفسير كل ما يتصل بما جاءوا به ، فيخرجون من فن الى فن ويدخلون معنى في معنى سواء ، حتى تكون جملة كلامهم درساً جامعاً على نحو ما يصنع العلماء الغربيون لهدنا في الكليات الكبرى وهو ما يسمونه بالدَّرس الانسكلوبيدي ، غير أنَّ المعري مع انطواء كلامه على كل ذلك قد توخى بأسلوبه الفكاهة الغريبة التي تبعث في النفس هزتها لغير المؤلف ، وذلك ولا شك أجمع لنشاطها وآتم لانبساطها حتى تجتمع على تلك الدقائق من اللغة والأشعار وما أدمج فيها من دقائق الأخبار . وأرى أنَّ الذين يرمون الرجل بالزندقة لما أخذوه من ظاهر رسالته قد غفلوا عن هذه الحكمة ... الخ » . ولعلَّ الشيخ ابراهيم اليازجي الذي سمح للشيخ البرقوقي بنشر هذا الرأي في ذيل الرسالة - وقد وقف الشيخ اليازجي نفسه على تصحيحها وطبعها - لا يتفق معه في هذا الرأي ، وانما أرى أن يتحمل مسؤولية

المخالفة في هذا الموضوع الشائك ، وأحب أن يترك الكلام فيه الى شيخ مسلم ... ومهما يكن من شيء فواضح من ملاحظة الشيخ البرقوقي أن (رسالة الغفران) ليست سنداً لايان المعري ، وهي في رأي دليل على عكس ذلك .

ومن أصرح شعر المعري في كفره بالآه الناس قوله :

قلتم : إله لنا قديم قلنا : صدقم كذا نقول
زعمتموه بلا مكان ولا زمان ، ألا فقولوا :
هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول ا

فالمعري يعترف بوجود الآه ، ولكنه ينكر أن يكون إلهه مستقلاً عن الزمان والمكان ، وعلى هذا ففلسفة المعري فلسفة مادية حسية ، وقد سبق الفيلسوف الانجليزي بريستلي في ذلك ، وبعبارة أخرى يُخَيَّل الى أن أبا العلاء يرى الطبيعة الكونية الشاملة مرادفةً للألوهة ذاتها ، وفيما عدا هذا لا يشغل نفسه بفروض ونظريات وتفسير وهمية لا يحتمها العقل الانساني . وهو يؤمن بالجبرية في أحكام الغرائز التي لا تُدفع ، وبالاختيار فيما سمحت الطبيعة للانسان بالتصرف فيه . ففلسفة المعري في مجملها فلسفة عقلية ، وتزيد من قيمتها شجاعته الأدبية الى حد كبير في مثل زمنه .

(١٩١٣)



خصائص ابن الرومي

كنت في اجتماع حديث لجمعية آداب اللغة العربية في لندن ، وقد شرّفني صديقي الرئيس الأستاذ الدكتور مرجليويك بدعوتي الى تهيئة كلمة عن شاعر من شعراء العرب المتفوقين ، ولما كنت كاتم سر الجمعية لم يكن لي أن أتردد في تلبية الدعوة أو أن أعذر بأى عذر ، فقد صحبتني الى لندن منذ ثلاث سنين مكتبة عربية مختارة لا بأس بها ، وأمامي القسم العربي بمكتبة المتحف البريطاني وغيرها ، ففرتني عن وطني ليست عذراً للتردد أو الاحجام ، وإن كنت في الواقع قد اخترت شاعراً تهىء لي دراسته هذا العذر - ذلك

أن شيطان الشعر أوحى اليّ بأن أجعل موضوعَ حديثي أمام الجمعية خصائص الشاعر العبقري المتفنن ابن الرومي أو بالأحرى خصائص شعره الذي أعجب به كثيراً وإن جرت العادة على إغفاله طول هذه القرون !

ولمّا لم يكن لابن الرومي ديوانٌ مطبوعٌ فقد اعتمدتُ في كلمتي التي أشرتُ فيها الارتجال (على طريقة المحاضرين الانجليز) على كناشتي التي وعت مختارات من مطالعاتي لشعره في المكتبخانة الخديوية بالقاهرة وعلى ما أفردته من نقاط فنيّة مشتقّة منها بفضل معاونة الصديق الاستاذ الدكتور مرجليوث ، وما كان أولاه مني بالمحاضرة فهي من وحيه وهي من آثاره في الغالب .

يرى الاستاذ الدكتور مرجليوث أن خصائص ابن الرومي - بغض النظر عن عبقريته الفنية - هي خصائص ثقافية اسلامية يونانية فارسية ، فإنّ هذا الشاعر الفحل لم يكن عربياً بل كان اغريقياً من ناحية الأب ، فارسياً من ناحية البيئّة . وقد اطلع على آداب ثلاثة فساعد كل ذلك على تهيئّة مزاج خاص به في شعره هو المزاج الخيالي التمثيلي الى درجة بعيدة ، بحيث لو كان للتمثيل عند العرب أيُّ شأنٍ في عهد ابن الرومي لكان على الأرجح أنبغ الشعراء المؤلفين للمسرح بدل أن يخلق في صميم قصائده حواراً يفرّج به عن نفسه التوافق الى هذه الرياضة الفنية ، كما أنه بمزاجه الاغريقي الفني أنجب أجمل لوحات تصويره في شعره الوصفي الساحر .

ويرى الصديق الاستاذ أن ابن الرومي هو أحرص شعراء العربية المتقدمين على وحدة القصيد في تسلسل منطقي بديع ، وهي نقطة هامة إذ ذكر أنّي أشرتُ اليها عند ما كتبتُ عن أستاذي خليل مطران ، ومن العجيب أن يكون مطران أروع لها من الشاعر الكبير أحمد شوقي بك الذي هو من أصل يوناني كابن الرومي ، ولعلّ السبب في ذلك أن شوقي بك تأثر بالأدب العربي الخالص أكثر من تأثره بالأدب الأوروبي فتغلب على طبيعته .

كذلك يرى أن القدرة على التحليل المتناهي في شعر ابن الرومي خاصة تكاد تكون منقطعة النظير في الشعر العربي ، وهذا سرٌّ من أسرار مطولاته العصماء . وكان ابن الرومي مفتوناً بالتصوير وقد اكتسب ذلك من مزاجه الغربي الدقيق ومن شغفه بالطبيعة شغف العابد المستمل ومن تأمله العميق في جميع

ما يقع عليه نظره ، كما نرى فيما قال عن (وحيد) المقيمة أو في وصف الأسفار
أو في عناب صديقة أبي القاسم الشطرنجي أو في وصف الربيع وصفاً يزرى
بما قاله البحترى وأضرابه أو في وصف الشباب أو في نونيته الجامعة الخالدة
أو في رثائه لأبنائه .

وقد آثر الدكتور مرجليوث ديباجة البحترى على ديباجة ابن الرومي
وإن أظن في شاعرية الأخير وفضلها على شاعرية الأول ، وهو رأى يشاركه
فيه معظم نقاد الأدب العربي ، ولكنني أشرت في كلمتي أمام الجمعية الى ذلك
مستأذناً في مخالفة هذا الرأي لأن شعر البحترى لم يكن شعر الحياة بل كان
شعر الصناعة اللهم إلا في القليل ، والشعر الحى يؤخذ كوحدة كاملة ،
فإن الرومي ناضج البيان سهله ، وهذا ليس بالضعف بل هو موهبة مومومة
وفي مطولاته المفصحة المتدفقة ما يشهد بتمكّنه اللغوى وحسن تصرفه البياني
الى أبعد حد . فهو ليس في حاجة بعد هذا الى الترصيع المتكلف والطباق
والجناس والى الألفاظ الضخمة المتعمقة حتى يستحق الشهادة له بحسن الديباجة
وحسب ابن الرومي وحسبنا منه مقدرته الفائقة على تطويع اللغة في سراحة
وسهولة لجميع أغراضه الفنية بلا استثناء . أليس هو أولى إذن بالثناء ممن
يحتذون حذو العرب القدامى وينقلون مناهجهم وأوضاعهم في غير تصرف ولو
خسروا في سبيل ذلك شخصياتهم الفنية ؟

أمّا تقمة ابن الرومي على أبناء عصره الذين خذلوه وداسوا حقوقه ،
وأما إخامته في الهجاء والتهمك ، فليس كلاهما أمراً يعدّ من خصائصه ، وإن
عددنا تطييره المشهور من تلك الخصائص . وأمّا نظره الخاصة الى الحياة
فهى نظرة التهافت الحسى عليها والنهم السكلى الذى تثيره تمتعتها المتنوعة
بما فى ذلك أضواؤها وظلالها ولوانها التى كان يتأثر بها تمام التأثر ، فهى
دائمة الجاذبية له دأمة التجدد بمسرّاتها ، لولا تنغيص الناس إياه بمحسدهم
وشؤمهم ، ولكنه كان ينسى كل هذا فى حضن الطبيعة :

ورياض تخايل الأرض فيها خيلاء الفتاة فى الأبرار

وهذا نهاية الاحساس المرهف بالملاحة والشعور الفنى الدقيق بالجمال ،
فكان له منه أىّ نعمة أُنسته جعود بيئته وشروها . وقد ذاق ابن الرومي

الصَّابِ والعلقم في حياته، وعانى ما عانى من جوع وفاقة وإجفاف بجميع حقوقه، حتى روى عنه أن ما كان يملكه من أرض أتلف غلتها الجرادُ وأن امرأة سلبته منزله اغتصاباً فبات شبه مشرّد، وقد صرّح بذلك في شعره نادياً سوء حظه واحتضان العوز إياه بعد أن حسب أنه تغلب على عُتُوِّ الدهر وأسرّه. استمع إليه مستنجداً مستجيراً بالوزير عبد الله بن سليمان من قصيدة:

أحين أسرتُ الدهرَ بعدَ عُتُوِّهِ وفلّلتُ منه كلَّ نابٍ ومغلبٍ
فأصبحتُ مكفياً همومى، مُزايلاً غمومى، موقى كلَّ سوءٍ ومعطبٍ
هَضَمْنى أنى وتغصب جهرةً عقارى؟ وفى هاتيك أعجبُ معجبٍ!
لقد أذكرتنى لامرئ القيس قوله: «فانك لم يغلبك مثلُ مغلبٍ»!
أجرنى وزيرَ الدين والمملك! إننى اليك بحقى هاربٌ كلَّ مهربٍ
توثب شخصٌ واهنُ الركن والقوى على أيّدِ الأركانِ لم يتوثبٍ
هو النكرُ من وجهين: غصبٌ وبدعةٌ وفى المنكرِ من وجهين موضعٌ معتبٍ
فلا تسلمنى للأعدى وقولهم: «ألا من رأى صقراً فريسةً أرنبٍ؟!»
أريد ارتجاعَ الدارِ لى كيف خيلتُ بحكمٍ ممرٍّ أو بلطفٍ مسببٍ!

أليست هذه الأبيات المنطقية أشبه بمذكرة محامٍ أو ببلاغٍ يقدم إلى النائب العام؟ وليست هي في الواقع من شعره الرفيع في شيء، ولكنها بصدقها وصراحتها وبُعدها عن البرقشة لا يمكن إغفالها، خصوصاً بعد أن أصبحت جزءاً من سيرته... وهكذا الحال في جميع شعر ابن الرومى لا أثر للافتعال فيه، وإذا افتقد عنصراً من عناصره الفنية عوضه بسواه، بحيث أن أقلَّ ما يستأمله شعره هو احترامك لما وراءه من ذكاءٍ خارقٍ وخيالٍ محلّقٍ وصدقٍ في الاحساس مهما قيل عن اضطراب أعصابه وشدوذ طباعه. ومع أننى أؤثر التركيز في الشعر، وأفضّل الإشارة الفنية في موضع العبارة المبسطة، إلا أنى لا أستطيع أن أنكر أن شعر ابن الرومى يرى من التفاهة، وليس في استرساله سوى تبسّط المحدث الذكى، والمعلم الملقن الذى لا يأتى ذكاءك... وإذا عيب إسهابه فهيات أن يُعاب في شعره الوصنى وخصوصاً في تصوير الطبيعة، كأنما صوّرهُ الشعرية لوحاتٍ مهيأةً لمتاحف

الفن ! فلا عجبَ اذا لم يستطع هذا الشاعر الصاحب الفيّاض أن ينتصف
لنفسه من البيئة الراكدة الضيقة الاحساس . واذا كان الوزير القاسم مسؤولاً
عن قتل ابن الرومي بالسمّ لأنه هجا شرارسته وسفالته ، فمّا يخلّد لشجاعة
ابن الرومي الأدبية أنه لم يتهيب هذا الوزير السفاك وتعلق بهذه الشجاعة وإن
عدّها الخانعونُ حُماً بل جنوناً !

أمّا هذا الشاعر المفكر المُتفهم ، والرّسام الحمّاس الدقيق ، والمتصوّف
المندمج في جمال الطبيعة تصوّفًا مادياً لا معنوياً فقط ، مستروحاً من جميع
طبيّاتها ، فهو أحرّى الناس بتقدير شعره :

شعريّ شعريّ اذا تأمّله الا ان سانّ ذو الفهم والحجى عبدة
لكنه ليس منطقاً بعث اللّهُ به آيةً لمن ججدة
ولا انا المفهم البهائم والطير . سليمان قاهر المرّدة
ما بلغت بي الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقيرّدة !
وحسب قيردٍ اراه يحسدني ان يسكن الله قلبه حسدده !

وقد تأثر المتنبي بشعر ابن الرومي كما تأثر بشعر أبي تمام ، ولا غرابة
فالثلاثة تجمعهم رابطة الفكر المتعمق ، ولا عجب بعد هذا اذا نفر ابن
الرومي من البحتري فقال عنه فيما قال :

الحظّ اعشى ، ولولا ذلك لم نره (للبحتري) بلا عقل ولا أدب
فبجاً لأشياء يأتي (البحتري) بها من شعره الغث بعد الكدّ والتعب !
وقد يجيء بخلطٍ : فالنحاس له وللأوائل ما فيه من الذهب
عبدٌ يُغيرُ على الموتى فيسلبُهم حُرّ الكلام بجيشٍ غير ذى لجب
ما إن تزال تراه لابساً حلاًّ أسلاب قوم مَضَوْا في سالف الحقب
يقول مستعموه الجاهلون به : «أحسنت يا شعر الحضار والغيب» !

نعم لا عجب في ذلك فطبيعتنا الشاعرين جدّ متنافرتين ، وما من شك
في أن ابن الرومي يمتاز بأصالته الشعرية ، وكفى بتقرير هذه الحقيقة نعتاً

لعبقريته ومدحاً له .

إنَّ اخراج ديوان ابن الرومي كاملاً مشروحاً وضرب الأمثلة الوافية لخصائصه الفنية لأجدى على الأدب العربيّ من جهود تقليدية كثيرة هي بلا جدال ضائعة في هذا الورق الأصفر الذي يسجد له أهلُ الأزهر ، ومثلُ هذا العمل الجليل لا تصلح للقيام به إلاّ نظارة المعارف المصرية باعتبارها مركز الثقافة المرموقة من البلاد العربية . فأىُّ عذرٍ يحول دون النهوض بهذا العمل المبرور إنصافاً لأعظم عبقرية شعرية ظهرت في أجيال العرب ، بل إنصافاً لتعليمنا الأدبي الحديث ؟

(١٩١٤)

المذهب المادى

يتصف الشعبُ الانجليزيُّ بالمحافظة على التقاليد وبأنه شعب حسى متعقل ، ولعلّ هذا ما جعل للمذهب المادى وطناً خاصاً في انجلترا وفي الوقت ذاته حال دون الغلوّ فيه . وهذا ما أحسستُ به في مناقشاتى لأدباء الانجليز .

وقد شهدَ القرنُ الثامنُ عشر التقدير المتسامى للمادة ، لا على أنها شيءٌ خامدٌ بل على أنها مخزنٌ للقوة بأنواعها القابلة للتحويل ، فكان ذلك نصراً لمذهب هيز وانتقاصاً لآراء بركلى وديكارت ، وكان لأمثال تولاند وهارتلى وبريستلى الفضل في تقويم التفكير وتوازنه بعد الاندفاع السابق وراء بركلى وديكارت وأمثالهما ممن كانوا يصغرون من شأن المادة .

وكان من ذكاء بريستلى وبراعته أنه لم يتردد في الالتجاء الى الكتب المقدّسة نفسها لتعزيز شأن المادة وذهب الى القول بأنه لا يمكن تصوّر وجود الخالق في كل مكان من الكون كما تقول المسيحية وغيرها من الديانات الشبيهة بها إلاّ اذا افترضنا لهذا الخلق وجوداً مادياً يملأ رحاب الكون بأسرها فيتصل بكل شيء ويلمّ بكل شيء كبيراً كان أم صغيراً ، وعلى هذا ينبغي أن يكون رجالُ الدين آخر من يعارضون المذهب المادى الا اذا وادوا مجردة التعلق بالابهام والسفسطة الكلامية والثروة الفارغة .

وقد أدّى اتساعُ مباحث الطبيعة والكيمياء وعلوم النبات والحيوان والنفسولوجيا في القرن التاسع عشر الى ازدياد المذهب المادّي توطئداً وتعزيراً لكلمة كاباني الشهيرة أن المخّ يفرز التفكير كما تفرز الكبد الصفراء . وقد أنجب الشرقُ العلامة الدكتور شبلي شميل فتولّى باخلاصه النبيل وفكره الحرّ إذاعة آراءه بخبر الذي كان يعتبر كل شيء نتيجة المادة ، وبما أن المادة مخزنٌ للقوة وبما أن الحركة تحويل للقوة فكان المادة والقوة والحركة شيء واحد أو أن المادة والحركة توأمان ، وليست للحياة الاّ وليدة أحوال خاصة من المادة نفسها ، وليس التفكير الاّ إشعاعاً من المادة السنجابية الخبيّة بدليل أن تلف هذه المادة يقضى على هذا التفكير .

إنّ أنايتنا الانسانية هي التي تجعلنا تتخيّل لأنفسنا مكانةً ممتازةً جداً حتى لنأبى لها سوى الخلود التام ، مع أن النباتات والحيوانات في ذاتها عوالم مدهشة (كما نرى في النمل والنحل مثلاً) ولها ألوان من التفاعل مع بيئاتها ، ولها درجات من الذاكرة ومن التفكير ، ومع هذا ذهب ديكارت الى أنه لا روح لها فعزّز بذلك المذهب المادّي من حيث لا يريد !

والمادّية المعقولة التي أفهمها لا تنافي الصوفية العلمية بل تعزّزها : فنحن جميعاً قطعاً من الكهرباء والكون كله كهرباء فنحن على صلة بجميع ما في الوجود ، وإذن تتحقق « وحدة الوجود » على أساس علمي . ولا شك أن خلايا الانسان المفكرة هي مادةٌ صميمةٌ من وظائفها التفكير ، وليست بأعجب من خلايا القلب التي وظيفتها النبض المتواصل ، وليست بأغرب من الغدد الصماء التي تقوم بافرازاتها المدهشة في تكوين الانسان وصيانة صحته وحياته . فكلُّ ما في الوجود مدهشٌ باتقانه حتى بلّورات المعادن وحتى التفاعلات الكيميائية وحتى أشعة رنتجن ... وكما أن للانسان شخصية بمجموع تفكيره وذاكرته وميوله فكذلك يصحّ أن يقال إن للنحلة شخصية ، وما التماذي في تعظيم أنفسنا الاّ غرور وسخافة منا . وها هو علم الأمراض العقلية يثبت أن هذه الشخصية الانسانية انما هي تحت رحمة طائفة من الخلايا الخبيّة ، فاذا مرضت أو تلفت أصاب هذه الشخصية ما أصابها من انحلال أو زوال ، كما أن مرض أي عضو من أعضاء الجسم أو تلفه له نتائج الحتمية المنطقية .

ولست الحياةُ سوى تفاعل كيميائي كهربائي في ظروف معينة ، وما تفكيرنا الذي نعظمه كلُّ هذا التعظيم الا صورة من صورها في درجة معينة ، وهذا التفكير لاشيء بالنسبة لتفكير انسان المستقبل المنتظم ، فلا موجب إذن لكل هذه الحيرة والغرور . ومهما أعجبنا بمثالية نخته أو هيكل فلا يجوز أن ندمينا حقائق الحياة المادية ولا ينبغي أن نسمح لها بالطغيان عليها اذا لم نستطع التوفيق بينهما .

وانَّ شعور الانسان بنفسه نتيجة خلاياها الحيَّة الخاصة وحرصه على الحياة جعلاه يتشبَّث بفكرة الخلود ، ومن ثمة نشأت الديانات المختلفة بأساطيرها العديدة ، مع أنه لو اكتفى بالنظرة المادية المعقولة لوجدَ في ذلك أساسَ سعادته لأنها كانت تقنعه بوجود العمل على إسعاد البشرية وعلى تحسين النوع الانساني مادام خلودنا هو نوعي لا فردي بالاجمال ، وان الخلود الفردي هو خلود للفكرة والمثالية فقط . ان الفلسفة المادية المستقيمة هي عندي أساسٌ للصوفية العالمية كما أسلفتُ ، وهذه الصوفيةُ هي التي تشبعتُ إيماناً بصلتي الدائمة بالخالق سبحانه وتعالى ، وهي التي تخلق مني رقيباً حسيباً على نفسي قبل كلِّ دين وعقيدة ، وهي التي تجعلني أحسُّ بحال الزهد والتقناعة من ناحيةٍ ، كما أنها هي التي تبعثني الى اعتناق التسامح مع الناس والتعاون معهم على ما فيه خير الانسانية الشامل بغير اعتبار لجنس أو ملة أو وطن أو لون . وقد لحظتُ نفسَ هذا الشعور عند جميع الفلاسفة الماديين بلا استثناء ، فقد كان تعلُّقهم بخدمة الانسانية تعلقاً عظيماً وكانوا أبعد الناس عن الأناية .

واعتماداً على المذهب المادي يمكننا أن نقول إنه إذا وُجد في الطبيعة شخصان مكوَّنان تكويناً مماثلاً فن المقروض أن تكون عقليتهما واحدة . بغض النظر عما للظروف والبيئة من التأثير في ذلك . ولكن الطبيعة نزاعةٌ دائماً الى التنويع والى التجارب التي لا تنتهي ، وهذا هو السرُّ في عدم تماثل الشخصيات . وانَّ الاهتمام أخيراً بعلم النفس سيؤدى في رأى الى تعزيز علم وظائف الأعضاء كما أدَّتْ دراسة الأمراض العقلية الى ذلك ، ولن يؤدِّي الى ردِّ الفعل الذي يرتقبه الروحانيون المتجرِّدون .

لقد انتهى الزمَنُ الذي كان فيه وصفُ « مادي » مما يلوكه رجالُ الدين

اعتباطاً ويلقونه جزافاً مسببةً لكلِّ مفكرٍ حرٍّ ، وصارتُ الفلسفةُ الماديةُ ذاتَ مكانةٍ محترمةٍ في عالم الفكر العميق وصارت أقرب الى تفسير الحياة المتكررة ومعنى الخلود مما تفسره لنا المذاهب الخيالية لأنها تعتمد على قوانين ثابتة محسوسة من الفسيولوجيا والبيولوجيا والرياضيات ، بينما تعتمد الديانات الرائجة على الأساطير والالهام الشعري الخيالي والوحي الوجداني المبهم .

الماديةُ لا تقبل نظريةَ الروحانيين كما أنها لا تقبل نظرية الأثنينيين الذين يعتبرون الحياة مزدوجة الأصل من مادة وروح ، وقد سخر بكل ذلك الفيلسوف موليشث ، وحقّ له أن يسخر فأماننا تحوّل العناصر وتحوّل المظاهر الكهربائية والمظاهر الحيوية نفسها بما لا يحدّ ، فلا يجوز أن يؤدّي وجودُ خلايا في المخ خاصة بالتفكير - كما أن فيه خلايا خاصة بالنطق ، وأخرى بالسمع ، وغيرها بالبصر أو بالذاكرة ، الخ . - الى التفنن في أوهام التفسير ، خصوصاً ونحن نعلم أن التفكير بل الذكاء والعبقرية والشخصية الانسانية تترتب على حجم المخ وتركيبه وسلامته أى تترتب على سبب مادي وليست أمراً خيالياً لاصلة له بالمادة ومنفصلاً عنها .

والماديةُ بمعناها المعصرى ليست مذهباً إلحادياً أو على الأقل هذا فهمى لها ، فهي الأصل القويّ للتصوف العلمى والشعور بالألوهة ، وهي الأساس المكين للاعتقاد بالخلود النوعى ، وهي الحافز الاكبر للأخوة الانسانية الصحيحة ، وهي الدافعُ الاعظم للإصلاح الاجتماعى إسهاماً للبشر ، وحسبها كل هذا مجدداً وعظمة وهادياً أميناً للانسانية الحائرة .

(١٩١٤)



سيبويه وفضله

كان بين الكتب العربية المختارة التى أبى إصرارى إلا أن تصحبنى الى هذه البلاد (انجلترا) نواةً لمكتبتى هنا (كتاب سيبويه) ، ولكنى ما كدتُ أستقرُّ فى هذا الوطن الجديد وأتعرّف الى مكتبة لوزاك ، مشترياً معجمَ لين وغيره من المعاجم العربية الانجليزية ومشاركاً فى « دائرة معارف الاسلام The Encyclopaedia of Islam » التى لا تزال تطبع بالانجليزية فـ .

هولاندة تحت إشراف نخبة من أعلام المستشرقين ، وما كدتُ أتعرف الى مكتبة المتحف البريطاني بلندن وخاصة الى قسمها العربي ، حتى شعرتُ بأن تصرّفي طبيعيّ معقول وأن علوم العربية ليست غريبةً في هذا الوطن الجديد وقد أولع المستشرقون بفرائدها مثل خاصة أبنائها .

وما كان لي - وقد نشأتُ نشأةً أدبيةً وأولعتُ بالقلم - أن أستغنى عن مثل هذا المرجع العظيم في علم النحو الذي ترجع علاقتي الأولى به الى سنة ١٩٠٨ إذ تلقّيته هديةً في عيد ميلادي من السيد أبي المحاسن القاوقجي . أمّا سبب إعزازي لهذا الكتاب الفريد فيرجع الى شخصية سيبويه والى مزايا فضله الذي أريد أن أتحدث عنه في هذه الكلمة بعد أن نشأتُ كتبُ النحو العصرية .

إن (كتاب سيبويه) في النحو هو العمدة الأشهر ودستور مدرسة البصرة التي ناظرها الكسائي بشخصيته وتلاميذه وبكتابه (النحو) الذي قد ضاع مع الأسف . أمّا إعجابي بشخصية سيبويه الذي عُدَّ أعلم الجميع بالنحو فيرجع الى تواضعه شأن العلماء الحقيقيين ، والى حبّه المعرفة بما أدسى الى تبخّره في النحو وتفوّقه في النهاية . وثمة حكايةٌ طريفةٌ تُروى عنه في هذا الشأن ، وإن كانت قد شاعت حكايةٌ أخرى مناظرةٌ لها عن الكسائي لا أدري اذا كانت صدقاً أم اختراعاً . أمّا حكاية سيبويه فهي أنه بينما كان يستعمل على حماد في صباه قول النبي « ليس من أصحابي أحد إلا ولو شئتُ لأخذتُ عليه ^(١) » ليس أبا الدرداء » قال سيبويه : « أبو الدرداء » بالرفع ظانناً أنه اسم ليس ، فقال حماد : « لحتت يا سيبويه ! إنما هذا استثناء ! » فقال سيبويه : « لاجرم ، لأطلبنَّ علماً لا يلحنني معه أحدٌ ! » ومن ثمّ عكف على الدرس على الخليل بن احمد وعيسى بن عمر وغيرها وأخذ اللغة عن الأخفش الأكبر ، ولم يزل مشتغلاً حق صارت له المكانة الفذة بين أئمة النحو ووضع كتابه الذي أتحدث عنه ، فكان يُطلق عليه بالبصرة اسم (الكتاب) فقط لشهرته ومكاته ، وكان يصفه المبرد بالبحر إجلالاً لشأنه . وقد قرأ الكسائي نفسه كتاب سيبويه على أبي الحسن

(١) لعتت عليه .

الأخفش ، ولا عجب فقد تعلم الكسائي على كبره ، كما أن أبا الحسن الأخفش نفسه كان أكبر سنًا من سيبويه حينما أخذ العلم عن سيبويه . وسيبويه فارسي الأصل وكذلك كان الكسائي ، ولكن سيبويه كان أكرم نفساً وأنبل طبعاً وقد انصرف الى العلم وحده حينما كان الكسائي مشغولاً بجمع المال بعد أن نال حظوةً في بلاط الخلافة بعد اتصاله بالمهدي حتى صار مؤدّب الأمين . وقد أذى بالكسائي حسده الى افتعال مناظرة قوامها المكابرات لتجريح سيبويه في مجلس الأمين مستعيناً بدالته على الأمين وبنفر من أشياعه المأجورين ، وكان لهذه المهزلة أثرٌ أليمٌ في طبيعة سيبويه السليمة المستقيمة فلم يعثر بعد ذلك طويلاً ومات بكمده في الأربعين من عمره ، وقد عمر بعده الكسائي اثني عشر عاماً ولكنه لم يتجاوز مكانة سيبويه عند العلماء الحريصين على أصول اللغة .

ولئن كان الاتجاه الآن أقوى نحو مذهب الكوفيين لما فيه من التيسير فان الأمر لم يكن كذلك في القرن الثاني للهجرة ، وإذن كان سيبويه على حقّ في رفضه القياس على الشاذ ، وقد ذهب بنبله وعلمه الصحيح وبسلامة طويته ضحية تلك المؤامرة المرذولة والهزيمة المفضلة . فهذه الشخصية الكريمة الجذابة بعلمها ونبلها (وقد وقّأها ابن خلدان والدميري وغيرها حقّها من التأريخ والتقدير) هي التي استهوتني الى الامعان في كتاب النحو هذا حينما جرت العادة أن لا يكون في يدٍ مثلي ، وجعلته السنون المتلاحقة من أحب رفقائي في مكتبتى .

وليس فضل سيبويه بالقليل في تأليف هذا الكتاب العمدة الذي يعدُّ حجةً في القياس الأصيل ودقة التعليل في النحو ، وقد جمع فيه الى جانب ذلك الكثير من الفوائد المتنوعة الجليلة الشأن حتى قال أبو عمر الجرمي : « أنا منذ ثلاثين سنة أفتى الناس في الفقه من كتاب سيبويه » وقال أبو اسحاق الزجاج : « اذا تأملت الأمثلة من كتاب سيبويه تبينت أنه أعلم الناس باللغة » . والطبعة التي عندي هي فيما أعلم الطبعة الوحيدة من هذا الكتاب التي صدرت ، وقد أخرجتها المطبعة الأميرية سنة ١٣١٦ هجرية في جزئين كبيرين يقع أولهما في ٤٩٢ صفحة ويقع ثانيهما في ٤٣٠ صفحة من القطع الكبير وبهامشها تقارير وزُيد قيمة من شرح أبي سعيد السيرافي ،

وبأسفل الصحائف شرحٌ دقيقٌ للشواهد للشتمري . فالطبعة جامعة وافية ولا عيب فيها سوى نظامها العتيق ، وخلوها من فهارس أبجدية تفصيلية ، ومع ذلك فهي ممتازة جداً بالنسبة للكتب الأزهرية المألوفة . وكنتُ أعني لو أضيف الى هذه الطبعة كتابُ أبي بكر الزبيدي المسمّى (الاستدراك على كتاب سيويه) تماماً للفائدة ، فقد طبع هذا الكتاب المقيد في مدينة روما سنة ١٨٩٠ بإشراف العلامة الاستاذ جويدي المستشرق المعروف .

ولن أختار من كتاب سيويه للتدليل على فضل مؤلفه . فما أنقله عنه كيفما اتفق (باب جرى مجرى الفاعل الذي يتعدّى فعله الى مفعولين في اللفظ لا في المعنى) - ج ١ ، ص ٨٩ - « وذلك قوله : ياسارق الليلة أهل الدار (رجز)
وتقول على هذا الحد سرقتُ الليلة أهل الدار فتُجرى الليلة على الفعل في سعة الكلام كما قيل صيداً عليه يومان وولد له ستون عاماً فاللفظ يجرى على قوله هذا معطى زيد درهماً ، والمعنى إنما هو في الليلة وصيداً عليه في اليومين ، غير أنهم أوقعوا الفعل عليه لسعة الكلام ، وكذلك لو قلت هذا مُخرَجُ اليوم الدرهم وصائدُ اليوم الوحش ، ومثلُ ما أُجرى مجرى هذا في سعة الكلام والاستخفاف قوله عز وجل بل مَسْكُرُ الليل والنهار ، فالليل والنهار لا يمكنان ولكن المكارَ فيهما ، فان نَوَّنتَ فقلت ياسارقاً الليلة أهل الدار كان حدُّ الكلام أن يكون أهل الدار على سارقٍ منصوباً وتكون الليلة ظرفاً لأن هذا موضع انفصال ، وإن شئتَ أُجريتَه على الفعل على سعة الكلام ، ولا يجوز ياسارق الليلة أهل الدار إلا في شعرة كراهية أن يفصلوا بين الجار والمجرور ، فاذا كان منوَّناً فهو بمنزلة الفعل الناصب تكون الاسماء فيه منفصلة . قال الشماخ (رجز) :

رُبَّ ابنِ عمِّ لسُلَيْمى مشمعلٌ طبّاخِ ساعاتِ الكرى زادَ الكسلُ
هذا على ياسارق الليلة أهل الدار . وقال الأخطل (طويل) :
وكرّارِ خلفِ المُحَجَّرِينَ جوادهُ اذا لم يُحامِ دونَ أنى حَليلِها
فان قلتَ كرّارِ وطبّاخِ صارَ بمنزلة طبختُ وكررتُ مُجرىها مجرى السارق
حين نَوَّنتَ على سعة الكلام . وقال رجل من بني عامر (طويل) :
ويومِ شهدناه سُلَيْماً وطامراً قليلِ سوى الطعنِ النَّهالِ نوافلُهُ

وكما قال ثمانى حَجَجَ حَجَجْتُهُنَّ بَيْتَ اللَّهِ .
ومما جاء فى الشعر قد فُصِّلَ بينه وبين المجرور قول عمر بن قميئة (سريع) :
لَمَّا رَأَتْ سَارِيَدَ مَا اسْتَعْبَرْتُ لِهِنَّ دَرُّهُ الْيَوْمَ مَنْ لَامَهَا
وقال أبو حبيبة النُّمَيْرِيُّ (وافر) :
كَمَا خُطَّ الْكِتَابُ بِكَفِّ يَوْمًا يَهُودِيٍّ يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ
وهذا لا يكون فيه إلاّ هذا لأنه ليس فى معنى فعل ولا اسم - الفاعل -
الذى جرى مجرى الفعل ، ومما جاء مفصّولاً بينه وبين المجرور قول الأعشى
(كامل) :

وَلَا تُنْقَاتِلُ بِالْعِصِيِّ وَلَا تُرَامِي بِالْحِجَارَةِ
إِلَّا غُلَالَةً أَوْ بُدَاهَةً قَارِحٍ نَهْدِ الْجُزَارَةِ

وقال ذو الرمة (بسيط) :

كَأَنَّ أَصْوَاتَ مَنْ إِيغَالَهُنَّ بِنَا أَوْ آخِرَ الْمَتَيْسِ أَصْوَاتُ الْفَرَارِيحِ -
فهذا قبيح ويجوز فى الشعر على هذا مررت بخير وأفضل من ثم .
وقال دُرَيْسُ بْنُ عَبَّاسَةَ مِنْ بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ (طويل) :
هُمَّا أَخَوَا فِي الْحَرْبِ مَنْ لَا أَخَالَ إِذَا خَافَ يَوْمًا نَبِوَةَ فِدَاهُمَا
وقال الفرزدق (منسرح) :

يَا مَنْ رَأَى عَارِضًا اسْتَرُّهُ بِهِ بَيْنَ ذِرَاعَيْ وَجْهَةِ الْأَسَدِ
وَأَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فَمَا نَقَضِيهِمْ مِثْقَالَهُمْ ، فأنما جاء لأنه ليس لما
معنى سوى ما كان قبل أن تجيء به إلاّ التوكيد ، فمن ثمّ جاز ذلك إذا
لم تُرَدِّدْ بِهِ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا وَكَانَا حَرْفَيْنِ أَحَدُهُمَا فِي الْآخِرِ طَامِلٌ ، ولو كان
امماً أو ظرفاً أو فعلاً لم يجوز . وأمّا قَوْلُهُ أَدْخَلَ فَوْهُ الْحَجَرَ فَمِنْ هَذَا
جَرَى عَلَى سَعَةِ الْكَلَامِ ، وَالْجَيْدُ أَدْخَلَ فَاهُ الْحَجَرَ ، كَمَا قَالَ أَدْخَلْتُ فِي
الْقَلَنْسُوَةِ رَأْسِي ، وَلَيْسَ مِثْلَ اللَّيْلَةِ وَالْيَوْمِ لِأَنَّهُمَا ظَرْفَانِ ، فَهُوَ مُخَالَفٌ لَهُ فِي
هَذَا مُوَافِقٌ لَهُ فِي السَّعَةِ . قال الشاعر (طويل) :

تَرَى النَّوْرَ فِيهَا مُدْخِلَ الظِّلِّ رَأْسَهُ وَسَائِرُهُ بَادِرَ إِلَى الشَّمْسِ أَجْمَعُ

فوجه الكلام فيه هذا كراهية الاتصال ، وإذا لم يكن في الجرُّ غدُّ
الكلام أن يكون الناصبُ مبدؤاً به . « اهـ .

أرأيت كيف يكون البحر المتبسّط الشفاف ؟ إن هذا المعلم العبقريّ ليغنيانا
بتبسّطه وبذوقه الأدبي في البيان عن كلِّ شرح ، وهو بشواهده الكثيرة
الغنيّة يجعل كتابه في النحو كتاباً عاماً في الأدب وكأنه نداءً لكتاب (الكامل)
للبرّد ، وهو بروحه الأدبية الصادقة يجعلنا عشاق أدبه ونحوه ويخرج كتابه
من دائرة التعاليم الجافة ويوقف الطالب على أسرار العربية . فهل أنا مغالٍ
بعد هذا في حثِّ طلاب الأدب على إدمان النظر في سيبويه ؟

ومثل آخر - في غير اختيار - من جزئه الثاني ما ذكره عن اختلاف
العرب في تحريك الآخر ، (ص ١٥٩) . قال : « اعلم أن منهم من يحرّك
الآخر كتحرّيك ما قبله فإن كان مفتوحاً فتحوه وإن كان مضموماً ضمّوه وإن
كان مكسوراً كسوره ، وذلك قولك رُدُّ وعضٌّ وفرٌّ يافتي واقشعرٌّ واطمئنٌّ
واستعدٌّ واجترٌّ واحمرٌّ وضارٌّ لأن قبلها فتحة وألفاً فهي أجدر أن تفتح ورُدُّنا
ولا يُسَلِّكُم الله وعضُّنا ومُدُّني اليك ولا يُشَدِّك الله وليعضُّكم ، فإن
جاءت الهاء والألف فتحوها أبداً . وسألت الخليل : لم ذلك ؟ فقال لأن الهاء
خفية ، فكانت بهم قالوا رُدُّاً وأمدُّاً وغللاً إذا قالوا رُدُّها وغلُّها وأمدُّها فإذا كانت
الهاء مضمومةً ضمُّوا كأنهم قالوا مُدُّوا وعضُّوا إذا قالوا مُدُّه وعضُّه . فإن
جئت بالألف واللام وبالألف الخفيفة كسرت الأول كله لأنه كان في الأصل مجزوماً
لأن الفعل إذا كان مجزوماً فحرّك لا لتقاء الساكنين كسبر ، وذلك قولك اضرب
الرجل واضرب ابنك ، فلما جاءت الألف واللام والألف الخفيفة رددته
إلى أصله لأن أصله أن يكون مسكناً في لغة أهل الحجاز كما أن نظائره من
غير المضاعف على ذلك جرّى ، ومثل ذلك مُدُّ وذهبتم فيمن أسكن ، تقول
مُدُّ اليوم وذهبتم اليوم لأنك لم تبين الميم على أن أصله السكون ولكنه
حذف كياء قاض ونحوها . ومنهم من يفتح إذا التقى ساكنان على كل حال
إلا في الألف واللام والألف الخفيفة فزعم الخليل أنهم شبهوه بأين وكيف
وسوف وأشباه ذلك وفعلوا به إذ جاءوا بالألف واللام والألف الخفيفة ما
فعل الأولون وهم بنو أسد وغيرهم من بني تميم . وسمعه ممن تُرضى عربيته
ولم يتبعوا الآخر الأول كما قالوا امرؤٌ وامرئٌ فأتبعوا الآخر الأول

وكما قالوا ابنيهم وابنتهم وابنهما . ومنهم من يدعه إذا جاء بالألف واللام على حاله مفتوحاً يجعله في جميع الأشياء كأئسن . ويزعم يونس أنه سمعهم يقولون (وافر) :

* غَضَّ الطَّرْفَ إِنْكَ مِنْ مُنْمِرٍ *

ولا يكسر هلم البتة مَنْ قَالَ هَلْمًا وَهَلْمِي ، ولكن يجعلها في الفعل تجرى مجراها في لغة أهل الحجاز بمنزلة رُوَيْدًا . ومن العرب من يكسر إذا أجمع على كل حال فيجعله بمنزلة اضرب الرجل واضرب ابنك وإن لم تجيء بالألف واللام ، لأنه فِعْلٌ حُرْكَ لالتقاء الساكنين ، وكذلك اضرب ابنك واضرب الرجل ، ولا يقوها في هلم : لا يقول هلم يافتى مَنْ يَقُولُ هَلْمُوا فيجعلها بمنزلة رُوَيْدًا ، ولا يكسر هلم أحدٌ لأنها لم تصرف تصرف الفعل ولم تقو قوته ، وَمَنْ يَكْسِرُ كَعْبٌ وَغَنِي . وأهل الحجاز وغيرهم مجتمعون على أنهم يقولون للنساء ارددن ، وذلك لأن الدال لم تسكن هاهنا لأمر ولا نهى ، وكذلك كل حرف قبل نون النساء لا يسكن لأمر ولا لحرف يجزم . ألا ترى أن السكون لازم له في حال النصب والرفع ، وذلك قولك رَدَدْنَ وَهُنَّ يَرُدُّنَّ وَعَلَى أَنْ يَرُدُّنَّ ، وكذلك يجرى غير المضاعف قبل نون النساء ولا يحرك في حال ذلك قولك ضَرَبْنَ وَيَضْرِبْنَ وَيَذْهَبْنَ ، فلما كان هذا الحرف يلزمه السكون في كل موضع وكان السكون حاجزاً عنه ما سواه من الاعراب وتمكن فيه ما لم يتمكن في غيره من الفعل كرهوا أن يجعلوه بمنزلة ما يجزم لأمر أو لحرف الجزم ، فلا يلزمه السكون كلزوم هذا الذي هو غير مضاعف . ومثل ذلك قولهم رَدَدْتُ وَمَدَدْتُ لأن الحرف بنى على هذه التاء كما بنى على النون وصار السكون فيه بمنزلته فيما فيه نون النساء ، يدلك على ذلك أنه في موضع فتح . وزعم الخليل أن ناساً من بكر بن وائل يقولون رَدَدْنَ وَمَرَّنَ وَرَدَّتْ ، جعلوه بمنزلة رَدَّ وَمَدَّ ، وكذلك جميع المضاعف يجرى كما ذكرت لك في لغة أهل الحجاز وغيرهم والبكرتين ، فأما رَدَدَ وَيُرَدِّدُ فلم يدغموه لأنه لا يجوز أن يسكن حرفان فيلتقيا ، ولم يكونوا ليحركوا العين الأولى لأنهم لو فعلوا ذلك لم ينجوا من أن يرفعوا ألسنتهم مرتين ، فلما كان ذلك لا ينجيهم أجروه على الأصل ولم يجز غيره . واعلم أن الشعراء

إذا اضطرُّوا إلى ما يجتمع أهلُ الحجاز وغيرهم على إدغامه أجروه على الأصل .
قال الشاعر (قَعْنَبُ بن أم صاحب) :

مهلاً أعاذل ! قد جرَّبت من خُلقتي أئى أجودُ لأقوامٍ وإن صَنِتُّوا
وقال * تشكو الوجى من أظللٍ وأظلل * *

وهذا النحو في الشعر كثير . اهـ .

أرأيت كيف يتناول هذا الموضوعَ الشائك بالبسط الشافي ودقة التعليل والتوضيح حتى كأنما يتناوله تناوُلًا فلسفيًا ؟ وهذا حالُ الكتاب من أوله إلى آخره ، فلا غرابة إذا بقي فضله هذا منارةً يهتدى بها المعلِّمون لنحو العربية على تعاقب الأجيال حتى قال أبو عثمان المازني : « مَنْ أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحِرْ ! »

لقد كان البصريُّون أصحاب الفضل الأول في وضع النحو وتنسيقه^(١) وتعليله ، كما أنهم أو من ضبط قواعده وألَّف فيه ، وجاء سيبويه المظهر الأسمى لألمعيَّتهم في هذا العلم فصار كتابه الحجَّة المعتمد . وقد أخذ أهل الكوفة النحو عن البصريين وسندهم النفوذ السياسي ، ولولاه لما كان للكسائي ولا للفراء والمفضل الضبي ممن علموا أبناء الخلفاء شأنٌ كبيرٌ ، ومن أجل هذا النفوذ السياسي تحامل الأمينُ على سيبويه في المناظرة المفتعلة التي عقدها بينه وبين الكسائي بشأن النحلة والزنبور^(٢) : بيد أن الخلاف بين البصريين والكوفيين الذي زاده تعاقبُ السنين أفاد اللغة ، لأنَّه نتيجة ذلك التنافس والاختلاف في أكثر من مائة مسألة كانت التيسير على أدبائها في اختيار أساليب الأداء بدل حصر تعابيرهم في قوالب معيَّنة ، وهو ما لا يزال يتمسك به كثيرون من الشيوخ السنيِّين في العلم وينعون على الأدباء المتفنين مخالفته .

وصفوة القول إنَّ سيبويه كان إماماً عظيماً رائداً في علمه ، وكان مؤلفاً أليماً يتناول موضوعه بلذةً فنيَّةً خاصَّةً ، فيشرق الموضوعُ أيُّ إشراقٍ بين يديه . وهو إلى جانب ذلك مثالٌ لنفسية العالم النبيلة فصُّحبتُهُ في

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ، ج ٢ ، ص ١١٣ (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ٣ ، ص ٧٩

كتابة 'تكسب' المتعلمة على علمه حجة خاصة لذاته هي فوق الاعجاب
بأبواب كتابه . وسبقت كتاب سيبويه مفخرة لعلم النحو العربي ومصدر
إحياء وجاذبية للكثيرين من طلبة الأدب ما تعاقب الجديدان لأن نفسيّة
صاحبه العالم المهدّبة كانت تجودُ به أثراً باقياً للزمن لا لعصر بعينه .

(١٩١٤)

شعراء الشام

مما يؤثر عن الخوارزمي قوله : « ما فتق قلبي وشحد فهمي وصقل ذهني
وأرهمف حدّ لساني وبلغ بي هذا المبلغ الأتلك الطرائف الشامية واللطائف
الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت بأجزاء نفسي وغصن الشباب رطيباً » .
ولست أدري إذا كان ما رواه الثعالبي عنه منصباً على شعراء الفكر من
النشأ ميين كأبي تمام والمتنبي ، أم أنه يتجه الى سواهم أمثال البحتري وأبي فراس ،
أم الى الفريقين معاً ، ونستثنى المعري لأن الخوارزمي مات في الستين والمعري
لم يتجاوز حينئذ العشرين من عمره فكان من المحال أن يتأثر الخوارزمي به ،
إذ لم يكن للمعري أي أثر عبقرى في تلك السن كما أن الخوارزمي
لا يشير الى غير ما انتفع به في شبابه .

وليس الخوارزمي مبالغاً حينما يذكر باعزاز « الطرائف الشامية واللطائف
الحلبية » لأنه إذا كانت مصر مثلاً قد أنجبت أعلاماً في علوم اللغة في النثر
والنظم وفي الفقه والفلسفة أمثال ابن منظور والمقرئ القيومي واحمد بن يوسف
وتميم بن المعزّ وابن النبيه وبهاء الدين زهير وجلال السيوطي وعبد البر القيومي
والامام الليثي وعبد الرؤوف المناوي وعبد الوهاب الشعرائي وغيرهم إلا أن
الأدب الشامي هو الذي كان بارزاً في عصره ، ولم يكن لهؤلاء الأعلام
المصريين وجودٌ حينئذ ، وإن كان بين أولئك الأدباء الشوام من يدين بثقافته
لمصر مثل أبي تمام .

أما شعراء الشام المبرزون الذين دوّى صيتهم في حياتهم وسبقت مدوّيات في
الأدب العربي فهم - حسب تواريخهم - أبو تمام والبحتري والمتنبي وأبو فراس

الجداني وأبو العلاء المعري . وليس شك في أن أبا تمام زعيم شعراء الفكر في عصره بالرغم مما ازدحم به شعره من البديعيات ومن إسرافه في طلب الطباق والتجنيس والاستعارات ، وقد جاء الكثير من شعره عبارة الثقافة الفلسفية في زمنه على مثال ما احتواه مذهب مالك من صفوة القانون الروماني . وكان أبو تمام كثير التركيز في بيانه الى حدّ التعقيد أحياناً ، ولكن من نقدة الشعر من يرى هذا خيراً من الثثرة البيانية ومن السطحية المتفشية ويمتهد بقول البحري نفسه :

والشعرُ لمحٌ تكفي إشارتهُ وليس بالهذرِ طوّلتُ خطبتهُ
على أن كوز أبي تمام من الشعراء العقليين لا يعنى مجرد شعره عن
التناول الفني الجميل ، وإنما يعنى مجرد التعمق الفكري والتأمل في أسرار الحياة
وشرح تجاربها الصادقة . مثال ذلك قوله :

وإذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طوّيتَ أتاحَ لها لسانَ حمودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ ما كان يُعرفُ فضلُ عُرفِ العُودِ
وقوله :

فانك مغناطيسُ كلِّ فضيلةٍ فلا فضلَ الا وهو نحوك صائرُ
وقوله :

نقلُ فؤادك حيث شئتَ من الهوى ما الحُبُّ الا للحبيبِ الأولِ
كم منزلٍ في الأرضِ يَألفُه الفتى وحينئذٍ أبدأ لأولِ منزلِ
وقوله :

فتي جَبِلتْ يداه على العطايا كما جَبِلَ اللسانُ على الكلامِ-
فيسراهُ لئيلٍ أو عنانٍ ويُمناهُ لرمحٍ أو حسامِ-

وقد كان البحري متمسكاً على أبي تمام ، ولولا رعاية أبي تمام لما بلغ
أبو عبادة ما بلغ من منزلة ، حتى قال له أبو تمام في أحد الأيام : « أنت والله
يا بُنى أمير الشعراء غداً بعدى » ، ومع هذا فإن البحري لم يبلغ منزلة أبي تمام
كشاعر انساني مفكر ، ولكن ظهرت مواهبه في موسيقاه وفي قدرته

الوصفية كما ترى في قوله يصف الطيف :

إذا ما الكرمى أهدى الى خياله شفى قربه التبريح أو نقع الصدى
إذا انزعته من يدي انتباهه حسبت حبيباً راح منى أو غدا
ولم أر مثلينا ولا مثل شأننا نعدب أيقاظاً وننعم هجداً !
وسينيته في وصف إيوان كسرى أشهر من أن تذكر ، وكذلك قصيدته في
وصف بركة المتوكل . ولا يزال البحترى معدوداً الشاعر المثالي لدى جميع
الشعراء المدرسين ، ولا عجب فانه يؤثر عن المتنبي قوله : « أنا وأبو تمام
حكيمان والشاعر البحترى » .

بيد أن المتنبي لا يعنى بذلك الا الشعر الخالص الذى كان يستساغ في
زمنه ، وأمّا الشعر الفكرى الفلسفى الذى تكررته الثقافة العليا في أدب
دانتي ومكسبير وملتون مثلاً والذى تعدد من نبعه روائع المتنبي فهو طراز
آخر له الآن كل الاجلال . واذا كان الشعر المتعمق هو التعبير الفنى لتجارب
الحياة وفلسفتها ، فهل ثمة أروع وأصدق من قول أبى الطيب :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منذ ، وإن سر بعضهم أحياناً
ربما تحسن الصنيع لياليه ، ولكن تكدر الإحسانا
وكأنا لم يرض فينا برب الدهر حتى أغانه من أغانا
كلما أبت الزمان قناة ركب المرء فى القنائة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحي لعدونا أضلنا الشجعاناً
وإذا لم يكن من الموت بدء فمن العجز أن تموت جباناً

قال البحترى فى رثاء أبى تمام ودعبل :

أهل المعانى الممتحيلة إن هو طلبوا البراعة بالكلام المقفل

وما هذه المعاني المستحيلة والكلام المقفل الاّ التعمق الشعري في لبّ الحياة ، واذا صدق هذا على أبي تمام ودعبل فانه لا صدقُ على أبي الطيب . فاذا كان أبو تمام هو القائل :

وطولُ مقامِ المرءِ في الحىِّ مُخْلِيقٌ لديباجتِيهِ ، فاغترِبْ تَجِدَّادِ
فانى رأيتُ الشمسَ زِيدتْ حِبَّةً الى الناسِ أن ليمت عليهم بسرمدِ
والقائل :

أولسى البريةَ حقاً أن تُتراعِيَهُ عند السرورِ الذى آسأكَ فى الحزنِ
إنَّ الكرامَ اذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألُفُهم فى المنزلِ الخشنِ
والقائل :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهلٌ ويكدى الفتى فى دهره وهو عالمٌ
ولو كانت الأرزاقُ تمجرى على الحِجَبَا هلكنَ إذنَ من جهلنَّ البهائمُ
ولم أرَ كالمعروفِ تُدعى حقوقُهُ مغارمَ فى الأقوامِ وهى مغانمُ
والقائل :

من لى بإنسانٍ اذا أغضبتَهُ وجهلتُ كان الحِلْمُ رذّةً جوابِهِ
واذا طربتُ الى المدامِ شربتُ من أخلاقِهِ ، وسكرتُ من آدابِهِ
وتراه يُصغى للحديثِ بقلبه وبسمعه ، ولعلّه أدرى به

فان فى كل صفحة من صفحات ديوان المتنبي مثل هذا التأمل الصادق فى تجاريب الحياة وفلسفتها وإن اختلفت الموضوعات ، فديوانه انجيلٌ رائعٌ من الحكم يستهدى به المستلهمون ، والاستشهاد وحده بنماذج من نقائسه يدعو الى أضعاف هذا الفراغ الميسور ، فالحكم السائرة من أدب المتنبي وحدها تُعدُّ بعشرات الأبيات ، مثل قوله :

إنما تنجح المقالةُ فى المرءِ اذا صادفتْ هوى فى القوادِ
واذا الحلمُ لم يكن فى طباعِ لم يحلمُ تقدّمُ الميلادِ
وقوله :

أرى كلنا يبنى الحياةَ بسعيه حريصاً عليها مستهماً بها صباً
غُبُّ الجبانِ النفسَ أوردته التقي وحبُّ الشجاعِ النفسَ أوردته الحرَّ با
ويختلف الرزقانِ والفعلُ واحدٌ الى أن يَرَى إحصانَ هذا لذا ذَنَبَا
وقوله :

أهمُّ بشيءٍ واللبالي كأنَّها تطاردني عن كونهِ وأطاردُ
وحيدٌ من الخللانِ في كلِّ بلدةٍ اذا عظم المطلوبُ قلُّ المساعِدُ
وقوله :

شَرُّ البلادِ بلادٌ لا صديقَ بها وشرُّ ما يُكسبُ الانسانَ ما يَصمُ
وما انتفاعُ أخى الدنيا بناظره اذا استوتَ عنده الأنوارُ والظلمُ
اذا نظرتَ نُيوبَ الليثِ بارزةً فلا تَظُنَّنِ أنَّ الليثَ يبتسمُ
وقوله :

وكلُّ امرئٍ يولى الجليلَ محبَّبٌ وكلُّ مكانٍ يُنبتُ العِزَّ طيبٌ
وأظلمُ أهلِ الظلمِ من بات حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلبُ

الى آخر هذا الكنز الذي لا ينفد برغم تعاقب العصور ، فقد وسع
الحياة بأسرها واحتوى بمهولة نظرات الفلسفة اليونانية في عصره حتى باهى
أبو الطيب قائلاً :

من مبلغ الأعرابِ أنى بعمدٍ شاهدتُ رسطاليسَ والاسكندرا
وسمعتُ بطليموسَ دارس كتبه متملكاً متبدياً متحضراً
ولقيتُ كلَّ الفاضلين كأنما ردَّ الآلهُ نفوسهم والأعصرا

ونجد في أبي فراس الحمداني الشاعر الفارس الوجداني النبيل الطبع . واذا
كان قد وقف موقف الخصومة من المتنبي فليس ذلك عن حسد بل عن تباين
شديد في مزاجيهما . وروميَّات أبي فراس أشهر من أن تُعرَّف ، وشعره
العاطفي ذائع ، ولكن تطيب لي الإشارة الى حكمه التي هي من طراز حكم

المتنبى استدلالاً منها على تأثر كليهما بفلاسفة الاغريق الذين كانت آراؤهم
الاجتماعية مترجمة ذائعة في الأمم العربية حينئذ.

يقول أبو فراس :

إنَّ الغنىَّ هو الغنىُّ بنفسه ولو أنه طارى المناكب حافر
ما كلُّ ما فوق البسيطة كافياً فاذا فتمت فكلُّ شيء كافٍ
ويقول :

المسرُّ يَفنى وما تنقك دائبة تشبُّ فيه اثنان : الحرصُ والأملُ
ويقول :

في الناس إن فتشتهم من لا يُعزُّك أو تُذكُّ
فأترك مجامعة اللئيم فإن فيها العجز كله
ويقول :

لا أشتري بعد التجارب صاحباً إلاَّ وددتُ بأنى لم أشهره
وتركتُ حلوة العيش لم أحفل به لكما رأيتُ أعزّه في مُره
والمرء ليس بغانم في أرضه كالصقر ليس بمائد في وكره
ويقول :

لا تطلبن دنوً دا رٍ من خليلٍ أو معاشرٍ
أبقى لأسباب المودِّ فإن تزور ولا تتجاوز

ويقول :

المرء رهنُ مصائبٍ لا تنقضى حتى يُوارى جسده في دمه
فوجّل لقي الردى في أهله ومعجل يلتقى الأذى في نفسه

وكل هذا وأمثاله من أصدق ما يقال شعراً في تجارب الحياة وهو ثروة
فنية للشعر العربي . ويحيى المعرّى فزى العليم الشامخ الذى استوعب
مآثر من سبقوه وأدّت به تأملاته الى أن يكون الفيلسوف المتشكك
والشاعر الناضج المفكّر وخليفة المتنبى الذى يحمل في لزومياته فرقانه الخالد

المتلاطم المحيط . وهل ثمة أبلغ من مثل قوله :
إنَّ الشَّيْبَةَ نَارٌ إِنَّ أَرْدَتَ بِهَا أَمْرًا فَبَادِرَةٌ ، إِنَّ الدَّهْرَ مُطْفِئُهَا
وقوله :

الدينُ إنصافُكَ الأَقْوَامَ كُلَّهُمْ وَأَيُّ دِينٍ لَأَبَى الحَقِّ إِنَّ وَجَبَا
والمِرَّةُ يُعْيِيهِ قَوْدُ النَّفْسِ مصحبةٌ للخيرِ وهو يقود العسكَرَ اللَّجَبَا
وقوله :

وكم ساعٍ ليحبر في بناءٍ فلم يُرزقَ بما يبنيه حبرا
كأمِّ القزِّ يخرج من حشاها مُذْرَى بيتٍ لها فيعود قبرا
وقوله :

يقول لك العقلُ الذي بيَّن الهدى : إذا أنتَ لم تدرأَ عدوًّا فداره
وقبَّلْ يدَ الجاني التي لستَ واصلًا إلى قطعها وانظرْ سقوطَ جداره
وقوله :

بعضُ الرجالِ كقبرِ الميتِ تمنحهُ أعزُّ شيءٍ ولا يُعطيكَ تعويضًا
والسمحُ في العدمِ مثل الصخرِ في ديمٍ يخضرُّ شيئًا ولا يستطيعُ ترويضًا
وقوله :

إذا فزعنا فإنَّ الأمنَ غايَتُنَا وإنَّ أمنًا فما نخلو من الفزعِ
وشيمةُ الأُنسِ ممزوجٌ بها مَلَلٌ فما ندومُ على صبرٍ ولا جزعِ

ففي أدب هؤلاء الأعلام يتمثل الشعرُ الشاميُّ في أروع صورهِ : من
ديباجة قوية ، إلى حكمة ذهبية ، إلى خبرة بالنفس الانسانية ، إلى تفنن في
الأوصاف الشعرية ، إلى شتى التجاريب الحيوية ، وهم بمجموعهم يكملون وحدةً
مثاليةً مدهشةً للفنِّ الشعري الخالد ، فلا عجب إذا قال الخوارزمي فيهم أو
في معظمهم ما قال ، وإذا بقيت آثارهم لقيمةً حالبةً على مدى الأجيال .

رسائل بديع الزمان

من أنفس كتب الأدب المدرسية التي صحبتني منذ تطيبي الثانوي كتاب (كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان) لصاحب الفضيلة العلامة الشيخ ابراهيم افندي الأحديب الطرابلسي . والواقع أن الكتاب نفسه هو رسائل بديع الزمان ، وإنما تولّى الشيخ ابراهيم شرحها شرحاً مستفيضاً وقد تنبّه الى مسألة هامة وراح بدوره يتبّه الأدباء اليها فقال : « جرت عادة الأدباء والبلغاء في إنشاء الرسائل والخطب أن يستعملوا أفراد اللغة في غير ما وُضِعَتْ له لكن بمناسبة للمعنى الموضوع له بنقل اللفظ للغرض الذي يستعملونه ، وربما كانت تلك المناسبة خفية تحتاج الى زيادة نظر وإمعان في المعنى المستعمل به . ولذلك وضع صاحب الألفاظ الكتابية كتابه لهذا المعنى ، فإن أكثر ما ذكره في ذلك الكتاب مستعمل في غير ما وُضِعَ له لكن مع علاقة مناسبة . وغرضنا بهذا الكلام تنبيه من يطالع رسائل هؤلاء القوم كهذه الرسائل ورسائل الخوارزمي ورسائل أبي اسحق الصائبي والصاحب بن عباد وغيرهم من أئمة الكتابة والانشاء أن يتروى في تدبّر معانيها ولا يُصرع الى تحطّثهم بدمم وجود معنى للألفاظ التي استعملوها في أصل كتب اللغة إذا رجع اليها . فانه قد يكون ذلك اللفظ مستعملاً في غير ما وُضِعَ له لعلاقة ومناسبة كما هو طريق بلغاء العرب ولا حجر في المجاز . وكتب اللغة إنما وُضِعَتْ لتبيين استعمال الألفاظ في ما وُضِعَتْ له . على أنه ربما خلطوا المعنى الموضوع له بالمعنى المجازي مثل القاموس ، بخلاف الأساس فانه فرّق بينهما . وعلى ذلك فلا بدّ لمن مارس مطالعة هذه الرسائل ونحوها من إدراك علم البيان ومعرفة أنواع المجاز ليكون آمناً من العنار في الجري وراء أغراضها ، والاّ فلا يدرك معاني بديع الزمان من لم يحوز نصب السبق في ميدان البيان . وقد فسّرنا بعض الألفاظ في الغالب بالمعنى المراد منها دون المعنى الموضوع له موافقةً لأغراض أبي الفضل بحسب فهمنا كما لا يخفى على ناظرٍ أديبٍ له من الذكاء أو فرّ نصيبٍ » .

كان بديع الزمان من أدباء الشباب المجدّدين في عصره ، إذ أنه مات وهو في سنّ الأربعين . وكان آيةً في الذكاء ، بل كان عبقرياً موهوباً ، فكنته

سرعةً بديهة من التغلب في المناظرة على الخوارزمي واستطاع بذلك أن يزحزحه عن مكانته العليا التي ترَبَّعَ فيها أمداً ، حتى انتهى الحال بالخوارزمي الى أن يموت كمدأ .

إن بديع الزمان شاعريُّ النفس ، وقد أتقن العلمَ بفنون اللغة ، فلم يكن في سجمه أيُّ تكلف . فلكَ إنَّ شئتَ أن تعتبره من أهل الصناعة البيانية المتفوقين ، ولكنه في الحقيقة شاعر نائر خبير بأحوال الوجدان والنفس الانسانية ، وهذا ما تبينه من رسائله السَّريَّة . ولئن كانت مقاماته ورسائله فياضة بالسخرية من الناس وإظهار معايبهم ببراعته اللاذعة ، فانه مع ذلك قد وُقِّقَ الى تحليل الغرائز الانسانية والى الثأر من ذوى المناصب الذين يتحايلون على بلوغ المراتب الرفيعة وهم أهلٌ لصدِّها ، كما قال فيهم أبو العلاء :

ظلموا الرعيةَ واستجازوا كيدَها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

اقتبسَ بديعُ الزمان فنَّ المقامات من أستاذه اللغوي ابن فارس وعنه أخذ الحريري ولكنَّ بديع الزمان أتقنَ هذا الفنَّ وإنَّ لم يتعالَ بأغراضه من النواحي الفكرية والمثالية ، بل اكتفى غالباً بجعله فنَّ تسليةٍ كما كانت توحى ثقافةُ عصره ، بيد أنَّه في الوقت ذاته دلَّ على ألعيته وقدرته على الابتكار . وهذه الموهبةُ تتمشَّى في أدبه وتجلَّى أحسنَ التجلَّى في رسائله المتينة ، لأنه بطاقته الفنيَّة القادرة على ابتداع ظلال المعاني الجديدة للألفاظ القديمة أ كسب اللِّغة ثروةً جديدةً من التعابير . وهذه الجراءةُ ملحوظةٌ عادةً عند ذوى النفوس الشاعرة ، ولذلك أعتقدُ أنَّ الشعراءَ الأصليين هم من أخلصَ مُخدَّام اللِّغة وإنَّ لم يرضَ عن تحرُّرهم وابتداعهم البياني الأدبائِ السَّيِّئون المحافظون ، أولئك الذين لا يحترمون للألفاظ غير وضعها الأصلي ، ولو أتبعهم الشعراءُ الكُتَّابُ لما كانت اللِّغة كائنًا حيًّا بل لجدت ثم ماتت !

ولأضربُ مثلاً على براعته وأصالته هذه الطُّرْفَ في رسالته الى الشيخ أبي الطيب سهل بن مجد (ص ٢٤٩) : « أنا أخاطب الشيخَ الامامَ والكلامُ معجونٌ ، والحديثُ شجونٌ ، وقد يوحش اللفظ وكلُّه ودٌّ ، ويكره الشيء وليس من فعله مُبدٌ . وهذه العربُ تقول لا أبالك في الأمر إذا تمَّ ، وقاتله الله ولا يريدون الدمَّ ، وويلَ أمِّه للمرء إذا أمَّ . ولا تُولى الألباب في

هذا الباب أن ينظروا من القول الى قائله فان كان ولياً فهو الولاء وإن
حَسُنَ ، وإن كان عدواً فهو البلاء وإن حَسُنَ . هذا الفقيه ميمونٌ
خبط أجواف الليل وضرباً كباد الخيل من العراق الى خراسان ليُحْبَسَ
بها ، ولا جرم كان لا يَعدَمُ هذا بالعراق لو أراد ، ولو سأل القاضى بها
فعلَ وزاد . وقد شكَا الى مراراً ما يُستقبل به من قبيح الكلام ويُعاملُ
به من سوء اهتضام . وهؤلاء الصدور يرون الشمس من قبلى تدور . وقد
رأى الشيخ أحوالهم وسمع أقوالهم ، فلا أدري من أكتب فى معناه ، وهذا
القاضى أنا عنده فى منزلةٍ أقلُّ من شىء المعتزلة . ولا يُسألُ عمّا أبدى
والفضل لمن يندى ، والخلافُ واقعٌ فى كل شىء إلا فى الحساب فلم لا يُحاسبُ
على الدرّة كما يُحاسبُ على البدره ؟ فان أخرج الحسابُ عليه شيئاً طولبَ
حينئذ بمعلوم ، وإن كان مُحْبَساً للتَّهمة فسوادُ ليلةٍ أو بياضُ يومٍ . ولم أعهد
الشيخ فى الأمور بهذا الفتور ، فما هذه الضراعة ؟ وأين الشفاعة ؟ وإن لم
تُقبَلْ فأين الشنّاعة ؟ الله أكبر ؟ أنا أوّلُ من ينعر ، وهذا الفقيه
الزىادى قد ضلَّ فيه القياسُ ، من يَسْتَحى اللهُ منه ولا يَسْتَحى من الناس .
أليس فى آداب القضاء وفى لِمَتِهِ البيضاء ما يصونه عن الابتذال ؟ نسأل الله
رأياً يَسْتَدُّ وِسْتراً يمتدُّ ووجهاً لا يسودُّ ، والسلام ! »

فالسجعُ التقليدىُّ فى هذه الرسالة يسكاد يكون فطرياً لدى ذلك الكاتب
الموهوب ، وهو لم يفسد عليه معانيه وأخيلته وتفنّنه البيانى .

إنى لا دَعُو الى زيادة العناية بالأدب العصرى ثراً ونظماً ، بحيث تكون
له المنزلة الأولى فى الدراسة بالمعاهد الثانوية كما هو ملحوظٌ فى إنجلترا مثلاً ،
ولكنى فى الوقت ذاته أرحّب بدراسة الأصيل من الأدب القديم وأعدُّ
(رسائل بديع الزمان) من أجل نماذجه ، كما أعدُّ هذا الشرح الموفّق الذى
أتحف به أبناء العربية العلامه الشيخ ابراهيم افندى الأحذب ذخيرة غير
محدودة للمتأدبين ، فان هذه الرسائل تتناول أغراضاً شتى ، والاطلاع الكافى
عليها وعلى شرحها البديع يكسب المتأدب محصولاً لغويّاً وبيانياً عظيماً قلّما
يظفر بمثله فى كتابٍ آخر من طرازه ، وهكذا لا يستفيد الأدبُ والأدباء
إلا من الموهوبين .

نظرة في سقط الزند

يمثل ديوان (سقط الزند) شعر المعري في شبابه ، وقد أطلق عليه هذه التسمية لأنه شبه شعره بالنار وطبعه بالزند الذي يقدر به النار وجعله سقطاً لأنه أول ما يخرج من الزند ، وهذا الشعر أول ما سمح به طبعه في ريثق شبابه فسماه سقط الزند تجويزاً واستعارةً ، على ما ذكر مؤلف (شرح التنوير على سقط الزند) .

ولما كتب أبو العلاء خطبة هذا الديوان كان قد تجاوز الشباب فلم يُرضه طبعاً جانباً بل كثيراً منه كعادة معظم الشعراء ، خصوصاً وقد أتجه الى الحكمة الفلسفية فلم ترقه تهاويل العبا ونزعات الشباب وراح ينتقص شعره الأول الذي يخالف شعر كهولته وشيخوخته مزاجاً واطلاعاً وتفكيراً كما يخالفه من ناحية تناول الفنى في كثير أو قليل .

وجاء الكتاب والمؤرخون النقّادُ خلا لهم انتقاص هذا الديوان والاصغار من شأنه لمجرد أن صاحبه نفسه فعل ذلك ، وقد نسوا أن الشاعر ليس عادةً بالحكم الناقد لشعره بل كثيراً ما يكون مخطئاً في أحكامه ، ولعلّ أحب الشعر لديه أضعفه ! مثال ذلك الموشح المدرسى الذي نظمه الشاعر المشهور أحمد شوقي بك وعدّه شخصياً من أطرب شعره ، حتى ساقه الى صاحب (تاريخ آداب اللغة العربية) محمد بك دياب المفتش الثانى للغة العربية بنظارة المعارف فذكره بين مختار شاعر الأمير في الجزء الأول من كتابه (ص ١٣٦) ، فانّ هذا الموشح في رأى من أضعف الشعر الذى قرأته لشوقي بك ، بل أكاد أقول إنه ليس شعراً على الاطلاق ولا يليق بسماعته الأدبية ومنزلته ، ومع ذلك كان ولا يزال حبيباً الى نفسه (وربما كان ذلك لمناسبة خاصة لا لاعتبار فنى) واختاره مثلاً من شعره الممتاز للاستشهاد به في مؤلف عصرى عن تاريخ آداب اللغة العربية .

وعلى هذا فقسوة أبى العلاء في الحكم على شعره الأول ليست حجة على عجز ذلك الشعر ، ومن الواجب على الناقد الأدبى أن يكون مستقلاً في درسه وحكمه دون أن يبالي برأى المؤلف الشاعر .

يَعَدُّ المعري الى حدِّ كبيرٍ تلميذَ المتنبّي ، وهو لم يتخلّص من تأثره
بالمتنبي في لزومياته من ناحية الحكمة والتمعّن في أسرار الحياة . وقد استفاد
المعري كثيراً من رحيله الى الشام حيث أقام في دير اللاذقية ودرس التوراة
والانجيل درساً مستفيضاً ، كما استفاد من رحيلته الى بغداد حيث عُنى بدراسة
الفلسفتين اليونانية والهندية دراسة خاصة وحيث انخرط في سلك جماعة الفلاسفة
الأحرار الذين كان يرعاهم عبد السلام بن الحسن البصري ، لأن كلَّ هذا
ساعد على تكوين ذهنيته الفلسفية التي نضجت بشعره الرائع في لزومياته وهو
ذلك الشعر الفاضح لفوضى الحياة كما رآها مزاجه السوداءويّ ، وهو من هذه
الناحية عند العرب نظير ليوبادري عند اللاتين وشوبنهاور عند الجرمانيين .
وقد درس تاريخ الانسانية والخلقة كما درس الطبائع البشرية فلم يفتنه بنظرة
الشاعر الكشّافة أن يتأمل الماضي السحيق والغيب البعيد فوصل الى منزلة
الحيرة في التصوّف كما وصل الى منزلة العزلة المترفعة عن الناس ، وصار رهن
المحبسين ، وصدق عليه قول الامام ابن حزم عن نفسه « أنا طريد الملوك
أقول الحقّ ولا أبالي » . فرجلٌ كأبي العلاء بلغ هذه المنزلة وانتقل به الشعرُ
العربيُّ الى طور جديد من حيث النظر في الطبيعة والتفكير في الخلق والحكمة
الاجتماعية ، واثباً من الخيال الى الحقيقة وقد تشبّع بمذهب اللاأدرين وامتلات
رأسه بشتّى المعارف والفتن وألّف المؤلفات النفيسة الممتعة في الحكمة
والآداب واللغة ، لا يُنتظر منه بأيّ حالٍ أن يرضى عن محصوله الشعريّ الأوّل
الذي يعدّه سطحياً بالنسبة لشعره الأخير ، دعّ عنك إحساسه الجديد بأن المبالغات
التصويرية في شعره القديم تخالف شعوره الناضج بالحقيقة ، وهذا الاحساسُ
يتجلّى في خطبة ديوانه إذ يقول حرفياً : « أمّا بعد ، فان الشعراء كأفراس
تتابعن في مدى ، ما قصر منها لحق وما وقف ذيم وسبق ، وقد كنت في
ريّان الحدائث وجنّ النشاط مائلاً في صفو القريض أعتدّه بعض مآثر الأديب
ومن أشرف مراتب البليغ ، ثم رفضتّه رفض السقب غرسه والرأل تريكته رغبة
عن أدب معظم جيده كذب ورديته ينقص ويحجب ، وليس الرىّ عن التشاف ،
ويعلمك بجنى الشجرة الواحدة من ثمرها ، ويدلك على خزاي الأرض النفعة
من رائحتها . ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طالباً للشواب ،
وانما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السوس ، فالحمد لله الذي ستر بفضة
من قوام العيش ورزق شعبة من القناعة أوفت على جزيل الوفر ، وما وجد

لى من غلوٍ في الظاهر علق بآدمى وكان مما يحتمله صفات الله عزّ سلطانه فهو مصروفٌ إليه ، وما صلح لمخلوق سلف من قبل أو غير أو لم يُخلق بعد فانه ملحقٌ به ، وما كان محصناً من المين لاجه له فأستقبل لله العثرة فيه ، والشعر للخلد مثل الصورة لليد ، يمثل الصانع ما لا حقيقة له ويقول الخاطر ما لو طُوبَ به لأنكره. ومطلقٌ في حكم النظم دعوى الجبان أنه شجاع وليس العزاهة ثياب الزير وتحلى العاجز بحلية الشهم الزميع ، والجيد من قبل الرجل وإن قلّه يغلب على رديئه وإن كثر ما لم يكن له الشعر صناعة وتفكره مرناً ومادة ، وفي هذه الكلمات جملةٌ تدلن على الغرض ، والله تعالى أستغفر وإيّاه أسأل التوفيق . قال الشارح : « قوله الشعر للخلد مثل الصورة لليد — هذا اعتذارٌ عما طغابه الطبع وجرى به اللسان من الغلوّ في الوصف بما لا يناسب حال الموصوف أى أن النفس قد تخيل معنى من المعانى وأصوّره ولو طولبت بتحقيقه لم يمكنها تحقيقه ، كما أن اليد ربما تنقش نقوشاً وتخطّ أشياء أو تمثّل تماثيل من الشمع والطين يفقد مثلها في الأعيان الموجودة المألوفة اتفاقاً من غير قصد لتحقيق صورة ما . والمعنى أنه لا ينبغى أن تناقش الشعراء في تحقيق بعض ما أغربوا به من القول بل اللائق بمنهجهم المسامحة لما ذكر من أنه مطلق في حكم النظم دعوى الجبان أنه شجاع وليس العزاهة ثياب الزير وتحلى العاجز بحلية الشهم الزميع — فالعزاهة هو الرجل الذى لا يحب النساء يقال رجل عزهارة وعزاهة وعزرة وعزروهة وعزهي ببلا هاء ، وهو الذى لا يتغزل بالنساء ولا يتعرض لهنّ ، وفي ضدّه يقال رجل زير نساء وطلب نساء وخب نساء وتبع نساء إذا كان يزورهنّ ويطلبهنّ ويخبلهنّ ويتبعهنّ ، والشهم الحديد الفؤاد والزميع النشيط المقتدام ، أى لا إنكار على الشعراء في دعوى ما لم يتحلّوا بمعانيها ، إذ قد يدعى الجبان العاجز الشجاعة والزمام ، ويسامحون في المؤاخذه بتحقيق ما ادّعوا ، وهذا كلّه في معرض الاعتذار عما أطلق من الألفاظ في بعض المواضع في غير هذا المدوّن ، والله تعالى ولىّ العفو والمغفرة بسخة فضله وقدم احسانه . »

ومن هذا الشرح يتضح أن المعرى نفسه أسقط من ديوانه الأول جانباً مما لم يرقه ، وأنه يعتذر عن الباقي بأعذار لاصلة لها بالفنّ الشعرى ، وإنما هي نتيجة ثقافته الفلسفية المتعمقة ، بحيث صار يقيس الحقيقة الشعرية

بمقياس الحقيقة المادية ، وهذا خطأ فني أوقعته فيه حماسته الفكرية .

وقبل أن أتناول شعر (سقط الزند) لا بد لي من أن أشير على قرأني المتأدين بالرجوع الى ترجمة عصرية مستوعبة لفيلسوفنا الشاعر ، ومن خيرها ما كتبه منشي (الهلال) في الجزء الثاني من كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) ص ٢٦٠ - ٢٦٤ ، وبالاطلاع على أصول النقد الحديث للشعر في مثل كتاب لُوري ماجنَس (Introduction to Poetry) حتى يشعروا شعوري بأن المعري في الواقع تحامل على نفسه .

إن الشعر الخالص (pure poetry) في الأدب العلامي ليس بالمكنوز طلباً في اللزوميات وإنما هو موفور في ديوانه الأول . وليس في قول أبي العلاء مثلاً :

يذيبُ الرعبُ منه كلَّ عصبٍ فولاً الفمُدُّ يمسكه لسالاً

بما يُعاب من ناحية الاغراق التصويري لأن الحقيقة الشعرية في مثل موقفه لا تأباه ، ومثل هذا الشعر لا يوحيه العقل المفكر وإنما توحيه الطبيعة الشعرية الفطرية وخيالاتها تكاد لا تختلف عن خيالات الاطفال فلها عالمها الخاص ولها تهاويلها الغريبة ، ولكنها مع ذلك تصور لنا بأصباغها الخاصة وبمخطوطها المتميزة الحقائق العاطفية التي تحس بها . وفي عهده الأخير قطع أبو العلاء صلته بطبيعته الشعرية الفطرية كمصدر أساسي لشعره واعتمد على عقله المفكر ، فلا غرابة إذا أنكر الأخير إنتاج الأول واعتبره مخالفاً لما خطه من سنن فلسفي جديد .

وقد أشرت الى أن إعجاب المعري بالمتنبي لازمه طول حياته وأثر في ديباجته ومناحيه الى حد بعيد ، فلا يجوز إذن أن يُعاب شعره الأول وحده بهذا التأثير إذا كان في ذلك عيب . وقد بدأ المعري يقرض الشعر في الحادية عشرة واستوعب اللغة بسرعة ، فلا عجب إذا جاء بفطرتة المبتدعة حتى في ديوانه الأول مستخفاً بالقيود التقليدية . ولئن شارك بعض متقدميه وعلى الأخص أستاذه المتنبي في شيء من المعاني فإنه قد أنجب مع ذلك غير قليل من شعره الخالد وأخص بالذكر قصيدته النفيسة « غير مُجدد في ملتي واعتقادي » .

وأراني معجباً غايةً الاعجاب بصاحب (شرح التنوير على سقط الزند)
فقد أبرز الصفات الفنية لهذا الديوان ، وشرحهُ كفيلٌ باكتساب الاعجاب
به ممن قد يفوتهم الكثيرُ من معانيه النفسية في اعتمادهم على الأصل وحده .
أنظر الى مثل قوله في وصف خيل ممدوحه :

تَكَادُ سَوَابِقُ حَمَلْتِهِ تُغْنِي عَنِ الْأَقْدَارِ صَوْنًا وَابْتِدَالًا
نَشَأَنَ مَعَ النِّعَامِ بِكُلِّ دَوٍّ فَقَدْ أَلْفَتْ تَتَابُجُهَا الرِّثَالَا
وَلَمَّا لَمْ يَسَابِقَهُنَّ شَيْءٌ مِنَ الْحَيَوَانِ سَابَقْنَ الظَّلَالَا

فهذا الوصف الجميل لا يرضى عنه الأدبُ الواقعي مع أنه لا يخالف العِلْمَ
ولكن يرضى عنه الخيال الشعري المتيقظ كلَّ الرضى ويراه من صميم الفن :
وَحَدِّثْ قَوْلَهُ الْمَوْجَّهَ إِلَى الْأَمِيرِ مَمْدُوحِهِ :

إِذَا مَا الْغَيْمُ لَمْ يُمَطَّرْ بِلَادًا فَانَّ لَهُ عَلَى يَدِكَ اتِّكَالًا
وَلَوْ أَنَّ الرِّيحَ تَهَبُّ غَرْبًا وَقَلَّتْ لَهَا : هَلَا ، هَبَّتْ شِمَالًا
وَأَقْسَمُ لَوْ غَضِبْتَ عَلَى (ثَبِيرِ) لِأَزْمَعٍ عَنْ مَحَلَّتِهِ ارْتِحَالًا
وَلَوْلَا مَا بِسَيْفِكَ مِنْ نَحْوِ لِقَلْنَا أَظْهَرَ الْكَمْدِ اتِّحَالًا
سَلِيلُ النَّارِ دَقَّ وَرَقَّ حَتَّى كَأَنَّ أَبَاهُ أَوْرَثَهُ السُّلَالَا
مُحَلَّى الْبَرْدِ تَحْسَبُهُ تَرَدَّى نُجُومَ اللَّيْلِ وَاتَّعَلَ الْهَيْلَالَا
تَبَيَّنُ فَوْقَهُ ضَمَضَاحَ مَاءٍ وَتُبْصَرُ فِيهِ لِلنَّارِ اشْتِعَالَا
غَرَارَاهُ لِسَانًا مَشْرِفِيٍّ يَقُولُ غَرَائِبَ الْمَوْتِ ارْتِحَالًا !

فهذه الأبيات ليست من الشعر العالی الذي يجمع بين وحي الطبيعة الفنية وبين
وحي العقل المفكّر ، ولكنها كشعرٍ صافٍ مقبولةٌ بل عزيزةٌ بأخيلتها
المستمدّة من روح الطفولة الشعرية ، وفي هذا الضوء وحده يجب أن تُقرأ
وتُفهم ، إذ لا شأنٌ لمثل هذا الشعر بفلسفة الحياة ولكن الفنّ الشعري
الخالص لا يمكن أن يتخلّى عن بُنُوته .

يقول الأديب الفاضل عزيز أفندي زند ناشر طبعة (اللزوميات) المصرية
في تمهيدته : « ولا يخفى على ذوى الاستبصار أن الشعر بابٌ من أبواب
الباطل ، فاذا دخل إليه داخلٌ من غير بابه عزّ مطلبه وبعث مركبه . ومع

ذلك فأبو العلاء المعرّسى لم يأت به إلا من باب الصدق وسرداب الحقّ
فاستخرج الدرّ المكنون والجوهر المصون من صدف أفكاره في سمط أشعاره .
وطالما كان الشعراء يتبهمم الغاوون ونراهم في كل واد يهيمون متبعين سبيل
الغواية ، فنشاهد هذا منتقلاً من عذيب النسيب الى منحى الغزل مستأنساً
بخضرة الدّمن وآثار الطلل ، وذاك واقفاً بأعتاب كبير قوم يوسع مدحاً
وثناءً ويشبعه وصفاً ودعاءً طمعاً بعسجدٍ يستفيده أو مفخرٍ يستزيده ، وآخر
مأخوذاً بمناظر الحدائق الغناء مجذوباً بمظاهر الألس ومجالى الصفاء حتى جاء
أبو العلاء المعرى فأراد صرف الشعراء عن سبيل الغواية ففتح للشعر باباً
مؤدياً الى الحقيقة وأقام لهم هذا الديوان مناراً يمدّ المستهدين نوراً ويصلى
الغاوين ناراً « الخ . وعزيز افندى زند مصيبٌ ومخطىءٌ في آن ، إذ أن المعرى بلا
شك ذو منزلة فائقة كشاعر انساني مفكر ، ولكن هذه الحقيقة لا يجوز
أن تبخس شعره ولا شعر غيره الذى من طراز آخر والذى يقاس بطبيعته
الفنّية وحدها ، ومن هذا القبيل معظم شعر البحرى . وبهذه المناسبة نقول
إنّ الآية « والشعراء يتبعهم الغاوون » وصفٌ لحالة معينة في زمن الرسول
عليه السلام لا حكمٌ مطلقٌ على كلّ زمن .

ولو أننا اكتفينا في ديوان (سقط الزند) بخمس قصائد ألا وهى رثاء
والده ، ومرثياته لوالده ، وقصيدته « غير مجدٍ في ملتي واعتقادي » ،
وقصيدته « ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل » - لو اكتفينا بهذه النماذج
وحدها لكان هذا الديوان مع ذلك من أنفس دواوين العربية ، فما بالك وفى
كل صفحة من صفحاته صورٌ شتى لعبقريته الفذة من خيال أو تصوير أو
طايفة أو حكمة . ولهذا العبقرية أن تحتقر بعض آثارها لأنها تُشرفُ
عليها من علٍ ، ولكن ليس لأننا لمجاراتها فى مثل هذه الأحكام الجارفة .
والخلاصة أنّ ديوان (سقط الزند) هو مفتاحُ الشاعرية الخالصة لدى
أبي العلاء ، ولو فقدناه لما تعرفنا عليها كما ينبغي ولما بقى أمامنا سوى المعرّسى
الحكيم أو الشاعر المتفلسف فحسب .

فاوست

لا أذكر أني قرأت شيئاً في الأدب العربي الحديث عن هذه الدراما الكبرى للشاعر العالمي جوهان ولفجانج فون جيته Johann Wolfgang von Goethe مع أن آثاره جميعها ، وليست درامته الشعرية (فاوست) وحدها ، ملء الأدب العالمي . وها نحن في معمعان الحرب الكبرى ، وها هم الألمان يتبجحون بثقافتهم Kultur ، وها هي الصحف الانجليزية وفي مقدمتها التيمس والديلي ميل والمورنج پوست تسخر من تبجحهم ، ومع ذلك لا يُنكر الانجليز فضلَ أعلام الألمان وفي مقدمتهم الشاعر العبقرى جيته ، بل منهم من احتقن بذكراه حديثاً لمناسبة طابرة ، وكثيرون منهم يعترفون بأثر الأدب الألماني في تكوينهم ، مفرقين في أحكامهم بين حقوق الأدب وأهواء السياسة .

وما مرث إغفال جيته في الأدب العربي الحديث - بالنسبة لشكسبير أو لفكتو هوجو مثلاً - إلا في عزوفنا عن التوسُّع في النقل عن الغربيين ، فاقصرنا غالباً على آثار القليلين الذين تعرَّفنا اليهم قبلاً وقنعنا بذلك ، مع أننا الآن في دورٍ من التطوُّر يحتم علينا الاكثار من الترجمة لنُغنى المكتبة العربية ، ولولا الترجمة لما كان للغات الأوروبية شأنها الحاضر ، ولما أصبحت بدورها مصدراً للتثقيف والالهام للشعوب المتأخرة .

وقد كانت للألمان في القاهرة قبل الحرب مدرسة بارعة ، وكان من تلاميذها نخبة من المصريين أذكر في مقدمتهم صديقي الدكتور مصطفى ضيا والدكتور جلال أبو السعود ، ولكنها لم تنجب فيما أعلم أحداً عُنى بنقل الآداب الألمانية الى العربية ، واكتفت المدرسة بالتعليم العام للغة وتحييب ألمانيا الى تلاميذها تحبيباً سياسياً .

ولكن خدمة اللغة العربية وأبنائها عن طريق الترجمة تكفي لها الفرنسية أو الانجليزية فما من أثرٍ طلى إلا وهو منقول الى إحداها ، ومن ذلك دراما (فاوست) التي هي موضوع هذا المقال . ولو أن رجال التعليم في مصر عُنوا بإيجاد مكتب قوى للترجمة ذي ميزانيةٍ كافيةٍ وهمةٍ صحيحةٍ وسُمحَ

له بالتعاون مع المترجمين في خارج الحكومة في نظير مكافآت معقولة لا تسعت دائرة الترجمة اتساعاً كبيراً ولعنمت اللغة العربية كل سنة العشرات من روائع المؤلفات الغربية الحيّة في شتى العلوم والآداب والفنون ، فنحن أحوج ما نكون الى هذه الترجمة ، ولا فائدة من التأليف بلغتنا الا في ظروف استثنائية اى حينما يكون التأليف أصيلاً وفيه ابتداع حقيقى لا مجرد ترديد للمؤلفات العربية القديمة .

لا ادعى انى قرأت (فارست) بالانجليزية غير مرتين ، وأتمنى أن يسمح لى وقتى بقراءة هذه الدراما الفلسفية مراراً عملاً بنصيحة كارليل ، فكلما أمعن فيها القارىء ازداد استيعاباً لألوان العواطف والأفكار العميقة التى تزخر بها ، ولو أن جيته نفسه لم يدع يوماً أن له غرضاً هائلاً من درامته ، وإنما كل مرماه أن يتمشى مع النفس الانسانية من السماء خلال الدنيا ثم منتهياً الى الجحيم ، معبراً عن تجاربيها المنوعة في هذا السلوك ، وبعبارة أخرى مظهرأ تفاعل الروح الانسانى ازاء العوامل الخسيسة فى الحياة ، وقد اختار الشاعر المؤلف لذلك نفسية بحماسة سئم حياته التى قضاهها فى اللهو والطيش فعاهد الشيطان على أن يبيع له نفسه وجسمه اذا منحه ربيع قرن آخر من حياة كلها متعة موفقة ، فواقفه الشيطان على ذلك ونفذ عهده . وحين يعرض المؤلف تجاريب هذا العمر فى درامته المعدودة أقوى تأليفه يقدم لنا عناصر شتى من العواطف والخواطر والتأملات الفلسفية بما يشبع مشاعر المفكر والاديب بل والعالم أيضاً وإن كانت الدراما قائمة على أسطورة من الأساطير .

نشرجته الجزء الأول من فاوست فى سنة ١٨٠٨ ، وأما الجزء الثانى فلم ينشره إلا فى سنة ١٨٣١ ، وكان ذلك قبل وفاته بتسعة شهور ، فجاء كتابه بجزأيه صفوحاً أدبه وهو كهل وزبدة فلسفته وهو شيخ ، إذ أنه مات فى سن الحادية والثمانين . وخير من ترجم له فى الانجليزية جورج هنرى لوس G.H. Lews فى كتابه (حياة جيته) Life of Goethe

وقد ظهرت هذه الميرة فى سنة ١٨٧٥ ، وخير ترجمة بالانجليزية للدراما نفسها هى من قلم الدكتور جون أنستر Dr. John Anster فى سنة ١٨٣٥ أى منذ ثمانين سنة خلت ، ومع ذلك لا تزال اللغة العربية محرومة الى الآن

أى "ترجة لهذا الأثر العالمى النفيس وكلّهم" شيوخها محصوراً في النقل ثم في النقل ثم في النقل عن الكامل والبيان والتبين ونفح الطيب والأغاني وما شاكلها من التصانيف القديمة ، قاطعين كلّ الصلات الثقافية بالحضارة الحديثة ، معتبرين في ذلك الغنم والسلامة ا

وقد تأثر الشاعر الانجليزي مارلو Marlow كما تأثر جيته بالأسطورة (وإن قيل إن لها شيئاً من الأساس) ونظم كلّ منها درامته كما حاول غيرها ذلك ، ولكن درامة جيته هي أقوى هذه التآليف وأخلدها . وكذلك حاول غير واحد من الموسيقين تأليف أوبرا منها ، فشاء القدر أن يكون أبرعهم الموسيقار الفرنسي جونود Gounod وقد أخرجها تمثيلاً في سنة ١٨٥٩ ، وهكذا تكون طلمية الأدب والفن .

(١٩١٥)

أدب الانجيل

كما أنه يوجد متحاملون على القرآن الشريف فكذلك يوجد متحاملون على الانجيل الكريم ، ولكن الواجب علينا نحن المسلمين أن لا نلتفت الى شيء من ذلك ، لأن ديننا الحنيف يطالبنا حتماً بالايان بالانجيل ودرسه وتدبره ، ولا يكمل للمسلم إيماناً إذا أنكر الانجيل أو أغفله . بل ان القرآن الشريف يحضّ على الايمان بالتوراة كذلك أى بالكتاب المقدس بأجمعه وهو يتألف من التوراة (العهد القديم) ومن الانجيل (العهد الجديد) . والمراد بالانجيل هو بطبيعة الحال الأناجيل الأربعة الموثوق بها لأنها جميعها في منزلة واحدة من التبجيل ، ولذلك أطلق عليها القرآن الشريف اسم المفرد . وهى تعاليم السيد المسيح كتبها حوارايوه ، فهى روحه وهى وحى الله ، ولذلك عدت في حكم المنزلة ووُصفت هذا الوصف في القرآن الكريم .

قال الله تبارك وتعالى : « قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم » (سورة المائدة ، ٦٨) . وفي الكتاب العزيز آيات أخرى كثيرة فيها الشهادة الكافية بعظم الانجيل والتوراة

وبوجوب عرفانها وتقديرها ، فمن تحصيل الحاصل أن أنبه اخواني المسلمين الى ذلك .

وبين المسلمين مَنْ يتوهَّم أن الانجيل وقع فيه تحريف لفظي وأنه الآن غير ما كان ، وهذا غير صحيح . لجميع الحفريات أثبتت أن الكتاب المقدس واحدٌ لم يتغير إذ عُثر على نسخ كتبت قبل عهد النبي عليه الصلاة والسلام بقرونٍ في جهات مختلفة وجميعها يطابق بعضها بعضاً في نصوصه ، وإذ لا يكون التحريف المشار اليه في التأويل لا في النص . وأسفار العهد الجديد واحدة عند جميع المسيحيين على اختلاف مذاهبهم ، كما أن أسفار العهد القديم التي عند البروتستانتين (أي مثلاً في طبعة الكتاب المقدس الانجليزية التي أمضى) هي نفس التي عند اليهود ، ولا عبرة بالأسفار الاضافية التي يجدها الكاثوليك ، وإنما العبرة بما حرص عليه اليهود أنفسهم لأنهم أمة موسى عليه السلام التي نزلت عليه (التوراة) . وأسفار العهد الجديد (الانجيل) لم يصبها أي تحريف لا قبل بعثة نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام ولا بعده ، ولا مفرراً لنا من أن نوجه الى الكتاب المقدس الاجلال الواجب ، بل من الواجب أن يوجد في بيوتنا الى جانب القرآن الشريف ولا معنى لأن نستمع الى الجهلة والمتعصبين الذين لا يفهمون أن القرآن الشريف جاء مكتملاً ولم يجيء ناسخاً للكتاب المقدس .

وقد بلغ الجهلُ ببعضهم أن يدعى أن التبشير بسيدنا مجد محذوفٌ من الانجيل ، وهذا غير صحيح لأن الآية الخاصة بذلك ثابتةٌ الى اليوم في بشارة يوحنا وإنما التحريفُ هو في التفسير ، وهذا لا شأن له بالانجيل ذاته (اقرأ بشارة يوحنا ، ١٦ : ٧) . والكلمة التي تعني مجداً هي Periklutos وإن كُتبت عادةً Paracletos بمعنى المعزّي . فاذا ضربنا صفحاً عن هذا الخلاف السهل التعيين ، فما من دليلٍ علميٍّ مطلقاً على أن في الكتاب المقدس من أوله الى آخره باعثاً واحداً على الاتهام بالتحريف . ولكن هو الجهل الذي يقرب الحقائق ويؤدّي الى هذا الاضطراب في الأحكام .

أمّا ما يعنيننا من أدب الانجيل فأمران : أولهما ديني ، وهو ما أشرتُ اليه فيما تقدم لأن الكتاب المقدس — لا الانجيل وحده — جزءٌ أصيلٌ من عقيدتنا الاسلامية فحتمٌ علينا درسُه والاتعاظُ بمحتوياته في ضوء التفسير

الاسلامى ، فضلاً عن وجوب الامام به لمن يهتمون بمقارنة الأديان ، ولأن الشريعة الاسلامية معتمدةٌ أساسياً على شريعة اليهود وشريعة النصارى إذ أنها جاءت متممةً لها لا ناسخةً كما أسلفتُ ، والكتاب المقدس هو دستور الشريعتين . وأما ثانيهما فالسأنى ، لما فى الانجيل خاصة من التعاليم الانسانية المامية الشعرية النفحات وأهمها موعظة الجبل للميد المسيح .

وقد سمعتُ أن العلامة المأسوف عليه الشيخ ابراهيم اليازجى ترجم الكتاب المقدس ترجمةً فصيحة رائعة ، فاذا صحَّ ذلك فالواجب شيوعها الى جانب ترجمة بيروت المعهودة . والانجيل كالقرآن كتابٌ ملايين من البشر وقد أثر فى سيرهم وأحوالهم مدى قرون وقرون فليس من الجائز إغفاله من الناحية الأدبية ، وعلى الأخص لمن يعرفون الانجليزية فان ترجمته الى هذه اللغة من نفائس الأدب .

ولا أحبُّ أن أختتم هذا المقال دون أن أنقل لقرائى المسلمين الاصحاب الخامس من انجيل متى ليعرفوا هذه الروح الانسانية (humanism) العالية التى لا يجوز أن يفوتهم الاطلاع عليها بعد أن مجدها القرآن الشريف نفسه . قال الكتاب المقدس عن السيد المسيح عليه السلام :

« ولما رأى الجوعَ صعد الى الجبل . فلما جلس تقدّم اليه تلاميذه ، ففتح فاه وعلمهم قائلاً : طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى للجزائى لأنهم يتعزّون ، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض . طوبى للجياع والعطاش الى البرّ لأنهم يشبعون . طوبى للرحماء لأنهم يرحمون . طوبى للأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله طوبى . لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون . طوبى للمطرودين من أجل البرّ لأن لهم ملكوت السموات . طوبى لكم اذا عبّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين . افرحوا وتهلّوا ، لأن أجركم عظيم فى السموات ، فانهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم .

« أنتم ملح الأرض ، ولكن إن فسد الملح فبماذا يملح ؟ لا يصلح بعدُ لشيء الا لأن يُطرح خارجاً ويُداس من الناس . أنتم نور العالم . لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل ، ولا يُوقدون سراجاً

ويضعونه تحت المكيال بل على المنارة فيضيء لجميع الذين في البيت ، فليضيء نوركم هكذا قدّم الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أبائكم الذي في السموات .

« لا تظنّوا أنني جيئتُ لأنقضَ الناموسَ أو الأنبياءَ . ما جيئتُ لأنقضَ بل لأكمل . فإني الحقُّ أقول لكم إلى أن تزولَ السماءُ والأرضُ لا يزول حرفٌ واحدٌ أو نقطةٌ واحدةٌ من الناموسِ حتى يكون الكلُّ . فمن نقضَ إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلمَ الناسَ هكذا يُدعى أصغرَ في ملكوتِ السمواتِ . وأمّا من عملَ وعلمَ فهذا يُدعى عظيماً في ملكوتِ السمواتِ فإني أقول لكم إن لم يزدَ برُّكم على الكتبةِ والفريسيينَ لن تدخلوا ملكوتَ السمواتِ .

« قد سمعتمُ أنه قيلَ للقديسِ لا تقتل ، ومن قَتَلَ يكون مستوجبَ الحكمِ . وأمّا أنا فأقول لكم إن كلَّ من يغضبُ على أخيه باطلاً يكون مستوجبَ الحكمِ ، ومن قال لأخيه رِقاباً يكون مستوجبَ الجمعِ ، ومن قال يا أحمقُ يكون مستوجبَ نارِ جهنمِ . فإن قدّمتَ قربانك إلى المذبح وهناك تذكرتَ أن لأخيك شيئاً عليك فاترك هناك قربانك قدّامَ المذبح واذهبْ أولاً اصطلحْ مع أخيك ، وحينئذ تعالَ وقدمْ قربانك . كن مرضياً لخصمك سريعاً ما دُمتَ معه في الطريق لئلا يُسلمك الخصمُ إلى القاضي ويسلمك القاضي إلى الشرطيِّ فتلقى في السجن . الحقُّ أقولُ لك لا تخرج من هناك حتى توفّيَ الفلّسَ الأخيرَ .

« قد سمعتمُ أنه قيلَ للقديسِ لا تزني . وأمّا أنا فأقول لكم إن كلَّ من ينظر إلى امرأةٍ ليشتتها فقد زنى بها في قلبه . فإن كانت عينك اليمنى تعثرُ فاقطعها وألقها عنك ، لأنه خيرٌ لك أن يهلكَ أحدُ أعضائك ولا يُلقيَ جسدك كله في جهنمِ . وإن كانت يدُك اليمنى تعثرُ فاقطعها وألقها عنك ، لأنه خيرٌ لك أن يهلكَ أحدُ أعضائك ولا يُلقيَ جسدك كله في جهنمِ .

« وقيلَ من طلقَ امرأته فلا يعطها كتابَ طلاقٍ ، وأمّا أنا فأقول لكم إن من طلقَ امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها زنى ، ومن يتزوج

مطلقةً فإنه يزني .

« أيضاً سمعتم أنه قيلَ للقدماء لا تحنثنَّ بل أوفِ للربِّ أقسامك ، وأمّا أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة ، لا بالسماء لأنها كرسىُّ الله ، ولا بالأرض لأنها موطنُ قدميه ، ولا بأورشليم لأنها مدينةُ الملكِ العظيم . ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرةً واحدةً بيضاءً أو سوداءً ، بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا ، وما زاد على ذلك فهو من الشرير .

« سمعتم أنه قيل عينٌ بعينٍ وسنٌّ بسنٍّ . وأمّا أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرَّ ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّلْ له الآخرَ أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فترك له الرداءَ أيضاً ، ومن سَخَّرَكَ ميلاً واحداً فاذهبْ معه اثنين . مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فَلَا تَرُدَّهُ .

« سمعتم أنه قيل مُتِحِبٌ قَرِيْبٌ وَتُبْغِضُ عَدُوْكَ . وأمّا أنا فأقول لكم أَحْبِبُوا أَعْدَاءَكُمْ ، باركوا لاعدائكم ، أحسنوا الى مبغضيك ، وصلُّوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم ، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات ، فإنه يُشرق شمسُه على الأشرار والصالحين ويمطرُ على الأبرار والظالمين ، لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم ؟ أليس العشَّارون أيضاً يفعلون ذلك ؟ وإن سلَّمتم على إخوانكم فقط فأى فضل تصنعون ؟ أليس العشَّارون أيضاً يفعلون هكذا ؟ فكونوا أتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات كاملٌ . » . اهـ .

ولا بدَّ لي من الإشارة الى أن بعض المتحاملين يأخذ على الانجيل والتوراة كما يأخذ على القرآن العناية بمسائل زمنية أو موضوعية أو شخصية لا تليق بكتاب إلهي لكل زمان ومكان ، مع أن كل ذلك لا ينفي اشتغال الآيات المنتقدة على مواعظ وأحكام جليلة . كذلك من التعسِّف أخذ الاستعارات والمجازات على حرفيتها ، كما أن على المسلم أن لا جنسى سبق الانجيل للقرآن بحيث أن الأخير جاء مكملًا للأول في جملة مسائل كمسألة الزواج والطلاق السالفة الذكر . وعلى المسلم أن يتدبَّر الانجيل بعقله ، مستعيناً بالمناسبات التاريخية

والثقافة العلمية ، ولا شأن له بالتفسير النصرانية وما قام حولها من خلاطات
أنشأت ما أنشأت من فِرَقٍ وحُرُوبٍ دامية . والملحوظ في الإصحاح المتقدم
مثلاً أن السيد المسيح ينعت جميع الناس بأنهم أبناء الله ولم يخص نفسه
بذلك ، وهو تعبير مجازي لا غير ، وكثير من آيات الكتاب المقدس مجازية شعرية .
وبعد ، فأدبُ الانجيل جديرٌ بكلِّ انسان وليس جديراً بالنصراني
والمسلم وحدهما .

(١٩١٦)

في الأدب الروسي

إذا استثنينا القليلَ المعروفَ عن تولستوى في مصر - وقد رثاه الشاعران
المصريان الشهيران أحمد شوقي بك ومجد حافظ ابراهيم بك - فيصح أن نقول
في صراحةٍ وإخلاص إن الشعب المصري (أو بعبارة أخرى جبهة متعلميه)
يجهل الأدبَ الروسيَّ جهلاً تاماً . وقد كان من الممكن الانتفاع الكافي بقلم
رجل شرقي تضلّع من اللغة الروسية ونقلَ عنها مباشرةً ألا وهو الأديب
سليم أفندي قبعين ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . وفي الواقع لا يتناول
المرءُ سيرة الأدب الأوروي عامة - لا الأدب الروسي وحده - الاً وتملكه
الحسرةُ والأسفُ على أننا قضينا الأعوامَ تلوَ الأعوامِ في صراعٍ سياسي أو في
اجترارٍ للأدب القديم دون مبالاة بالتيارات الفكرية الحديثة ، مع أننا لو كنا
عكفنا بغيره ونظام على نقل الآراء العالمية في فنون الثقافة كما كان يفعل
إخوانُ الصِّفا في ظاير القرون لكننا نهضنا بعقليّة الأمة عن طريق الطبقات
المتعلمة نهضةً مدهشةً كأنها من نبع الجامعات ، ولكننا قاومنا قتلَ
الاحتلال لروحنا المعنوية ، ولا عبرة بالاستشهاد بفلان وعلان من خاصة المتعلمين
المتضلعين من الآداب الغربية ماداموا يعيشون لأنفسهم ، ولا يزكون عن
معارفهم بالتأليف أو الترجمة ، وعلى الأخص بالترجمة الوافية التي هي مُنقذنا
الوحيد من وخامة العصور الماضية .

عملٌ شعبي كهذا من الضروريات وليس من الكاليات ، ولو وُجدتْ
لجنةٌ وطنيةٌ رشيدةٌ تبث الدعاية الصالحة بين الأغنياء الذين يجودون بالمال

اعتباطاً لمشروعات لا فائدة منها لا للدنيا ولا للدين لأمكن فيما أعتقد إنقاذ بعض المال لهذا الغرض التهذيبي الشريف ، على فرض أن يد المحتل تمنع الحكومة من المساهمة المالية فيه . وأقرب الأمثلة للخاطر التهافت على بناء الجوامع والكنائس وحبس الأموال عليها ، مع أن في القطر الكفاية وفوق الكفاية من هذه المعابد بينما هي فقيرة أشد الفقر الى التنقيف الأدبي والعلمى ، دع عنك الصناعى والفنى والاجتماعى .

ولا أدلّ على شغفنا بالقشور من أنه بالرغم من الدعاية العظيمة التى بثها شاعرا مصر الكبيران لذكرى تولستوى لم يتقدم أحدٌ لترجمة مجموع آثاره العظيمة وفى مقدمتها مؤلفاته (الحرب والسلام) و (أنا كارينا) و (صباح مالك الأرض) و (السعادة البيئية) و (القوقازيون) ، بل لم يُعن أحدٌ بتحليل حياته تحليلاً ضافياً اذا استثنينا الى حدٍ ما كتابات مجلتى «المقتطف» و « الهلال » . وقد يقول لى قائل : « يا أيها الرجل المعلم غيره ... » ولكنى لستُ بالمتخصّص فى الأدب أو الترجمة وإنما أنا رجلٌ طبٌّ وميكروسكوبٍ قبل كل هوايةٍ عُرِفَتْ بها ، فلا يمكن لمثلئ أن يتكفل بما هو من اختصاص غيره ، ولا يمكننى أن أتخلى عن مهنتى واختصاصى .

إنّ الأدبَ الروسىّ فى مجلتهِ أدبٌ شعبيٌّ منترَعٌ من صميم الحياة الروسيةّ ، ولذلك كان أجدراً الآداب الأوروية بالنقل لأبناء مصر . ولا نزاع فى أن نتائج الحرب العالمية ستؤثر تأثيراً بليغاً فى صور هذا الأدب بل فى جميع الآداب المعاصرة ، ومن الصعب الآن التكهن بمدى ذلك ، ولكن من السهل أن نعترف فى كل وقت بأن الأدب الروسى الذى يمثلهُ تولستوى ودستويفسكى وأنطون تشيكوف ومكسيم جوركى وألكسندر پوشكين ونيقولاو جوجل وكوبرين وإيفان جونكاروف هو أدبٌ حىٌّ لا يمكننا الاستغناء عنه .

يقول موريس بيرنج فى كتابه (مجمل الأدب الروسى) An Outline of Russian Literature « إنّ تولستوى ودستويفسكى لا يمثلان دعامتين عظيمتين للأدب الروسى فقط هما أممى من جميع من عداها كتمثالين ضخمين فى الصحراء ، بل هما شخصيتان من أعظم الشخصيات فى أدب العالم . إنّ

روسيا لم تُعْطِ الدنيا شاعراً شاملاً كشكسبير أو دانتي أو جيته أو مولير ، لأن بوشكين - ولو أنه فنّانٌ كاملٌ وشاعرٌ ملهمٌ - تعوزه تلك العظمة الخاصة التي تغزو جميع فواصل الحدود واختلاف اللغة والتي تخرج عملاً يصبح جزءاً من التراث العام لجميع الأمم . ولكنّ روسيا أعطتنا نادرين قد حقق عملُهما هذه الغاية بالذات « . بيد أن هذا لا يعنى الانتقاص من منزلة بوشكين كشاعر غنائى عظيم ، الى جانب قدرته الدرامية وبراعته القصصية . وقد أوحى أدبُه غيرَ واحدة من الأوبرات الرائعة . وما دمنّا في سيرة الشعر الروسى فلا يجوز أن ننسى الشاعر نكراسوف الذى وقف شعره على تمجيد أمته مستوعباً في شعره الأغاني الروسية الصحيحة كما نرى في ملحمته (من ذا يعيشُ هنيئاً في روسيا ؟) وقد جمعت بين الجدِّ والسخرية وكانت مثلاً فاحراً للشعر الإيبىقى .

أمّا عن نيقولاو جوجل فقد مثّلُ روحَ التشاؤم الذى غمر الشعبَ الروسى في عهده أصدقَ تمثيل . وهو في كتابه (أرواح ميتة) يمثل تمثيلاً ملموساً جميع طبقات الشعب ، كما أن فنة الخيالى يتجلى أروع التجلى في مثل قصة (الشيطان) و (مذكرات مجنون) .

فاذا أضفنا الى ما تقدم ذكره كتاب (أم) لمكسيم جوركى ، وقصص تشيكوف ، و (الجريمة والعقاب) لدستويفسكى ، و (آباء وأبناء) لترجنيف ، و (الجائل المسحور) لليسكوف كماذج وتأملنا فيما تحمله أيدينا من الأدب الروسى أيقننا أننا لا نعرف شيئاً منه ، ويظهر أن تقاليد الكراهية فقط بين تركيا (التي تبعتها طويلاً) وبين روسيا ساهمت الى حدٍّ معيّن في تعزيز هذا الإعراض بل الجهل العميق .

(١٩١٦)



العامة والدخيل

منذ ثمانى سنوات أخرج أستاذى مجد الحسنى افندى (الرسالة الأولى في نحو الألفاظ العامة) وقد حوت ثلثمائة كلمة من هذا القبيل . كان الحسنى أفندى مدرساً للحساب في المدرسة التوفيقية بقسمها الابتدائى ، ولمّا ألقى

هذا القسم تولّى تدريس اللغة العربية في السنة الأولى الثانوية ، فراح يعكف بغيره وهمّة على قراءة كتب اللغة ومعاجمها ، وجاءت هذه الرسالة من شواهد عنايته باللغة . ولا أدري إذا كان قد أصدر غيرها فيما بعد ، ولكنى حرصت عليها ، وطالت إقامتي في الجبلترا فالتسعت مكتبتى العربية وكان لهذه الرسالة ولأمنالها من تأليف مكانة منها .

ولكنى على الرغم من إعجابى بهذا الجهد لتنقيح لغة الكلام وتهذيبها بل لغة الكتابة أيضاً وإحياء الكلمات القديمة حينما تدعو الضرورة الى ذلك ، لا أستطيع أن أستسيغ العنجهية التي ترفض صقل المؤلف وتؤثر إحياء الرميم من الكلمات الثقيلة البالية أو التي لا يقبلها الذوق العصري مثل استعمال « السُخام » لهاب القدر ، و « الراقول » لمطلاع النخلة ، و « المدعاس » لمداق الطريق ، و « المُعموط » للفتة الصغير أى قاطه ، و « الطرّ جهارة » و « البوقال » للكُوب ، و « الفُرزوم » لقاب الحذاء ، و « المَحش » لعود القرن ، و « الظّأب » لسلف أو العديل ، و « النّوردجة » لباقة الأزهار ، و « البرّ طلة » للمظلة ، و « المنجّون » للقناة الصغيرة ، و « والطنّجير للحاثة ، و « الصّوايب » لبذر التقاوى ، و « الجرّزم » للبقساط ، و « اليرّندج » لدهان الأحذية ، و « والتّقاويح » للتوابل ، و « الأُرّصوصة » للقبعة ، ونحو ذلك من كلمات غريبة نافرة لا تُكسب اللغة بياناً ولا جمالاً حينما يهرب أصحاب هذه الكلمات من الألفاظ العالمية كأنما قد جاءت من المريخ أو كأنما اللغات تأبى بطبيعتها التبادل أو كأنما الثقافة الانسانية ليست ملكاً لجميع الأمم

ولا أنكر أنى كنت في أيام الحداثة المدرسية أتعصّب على نحو ما يتعصّب أساتذتى للغة بالنسبة لنقاء ألفاظها جهد الطاقة ، ولكنى لم أكن بطبيعتى في يوم من الأيام من محبى هذا الاغراب . وزادتنى إقامتى في الجبلترا التّسع نظري بعد ما خبرته من عناية الأّنجليز بلغتهم وكيفية توجيه هذه العناية . فهذه اللغة الانجليزية التي يتكلّمها مئات الملايين من البشر حتى صارت شبه لسان عالمى تسعى لمعرفته الشعوب ولا يسعى هو إليها — هذه اللغة لا تتعالى على العاميّة بل تُهذّبها وتصلّحها وتبصّلها ، وتعتبرها الأصل الذى تستمدّ منه وخصوصاً في الصناعات والحرف والفنون ، الى جانب ما يتدّعه

كُتِّبَتْهَا ومُشْعَرَاؤُهَا من مستحدث الألفاظ أو من ظلال المعاني الجديدة لكلمات مألوفة . وما على قارئٍ إلاَّ أن يرجعَ الى (معجم وبستر الأسمى الجديد Webster's New International Dictionary) فسيجد آلاف الأدلَّة على صدق ما أقول لا بالنسبة لاستيعاب الألفاظ العامية فحسب بل كذلك بالنسبة للانتفاع بالكثير من الدخيل . وفي الواقع ان اللغة الانجليزية تعترَّ الآن بروحها الأُمِّية ، وهي بحقٍ لغة امبراطورية ، بل لغة عالم واسع الحضارة ، وهي لا تبالى الألفاظ ما دامت مصقولة منسجمة مع طابعها وذوقها ، ولكنها تبالى فصاحة الأساليب .

وهذا ما ألحظته في القرآن الشريف : فكم من ألفاظ دخيلة كانت في حُكْم العامية ثم صُقِلَتْ واستوعبها كتابُ الله نفسه — مع أنه كان في وسعه التخلُّى عنها — ولكنها جاءت في أسلوبٍ من الروعة لا يُبَزُّ . فهل تترفع نحن الآدميين على ما لم يترفع عنه القرآن الشريف نفسه ، مع أن اللغة كائنٌ حيٌّ لا بدَّ من أن يأخذ ويُعطى ، ولا مفرَّ له من تناول الكثير من بيئته وهضمه ؟! واذا كنا نريد التعصُّب لقوميتنا فهل خطر في بالنا الاشتقاق من اللغة المصرية القديمة مع أن اللغة العربية أو على الأقل لغة الكلام قد احتفظت بألفاظ منها سابقاً ؟

ولا يجوز أن ننسى أن بين الكلمات العامية الكثير مما له أصلٌ فصيحٌ كما أوضح ذلك الاستاذ حسن توفيق مدرس التربية وتاريخ أدب اللغة بمدرسة المعلمين العربية في عهدِه ، وذلك في رسالته المسماة (أصول الكلمات العامية) ، كما نلمح ذلك فيما كتبه الشيخ اليازجي عن (لغة الجرائد) ، والأب جرجي جنين اليولسى عن (مغالط الكتاب ومناهج الصواب) ، ورشيد عطية اللبناني في (الدليل الى مرادف العامي والدخيل) ، وفي كتابات غيرهم من المحققين ، ولا أنسى (مجموعة الخطب التي أُلقيت في حفلة نادي دار العلوم في موضوع تسمية المسميات الحديثة) وذلك لثماني سنوات خلت ، ورسالة (انتقاد العربية العصرية) لشاكر أفندي شقير اللبناني وقد صدرت في سنة ١٨٩١ وفيها نقدٌ محكمٌ للأساليب الشائعة .

ازاء كل هذا لا أفهم الحركة المغالية في تجريد لغتنا من كل عاميٍّ مصقولٍ ومن كلِّ دخيلٍ مقبولٍ ، خصوصاً في العمليات التي لها اصطلاحات

دولية ، ولا عبرة بالاستشهاد بمحاولات ألمانيا من هذا القبيل فهيات أن تنجح فيها الى النهاية ، وما لنا ننسى أن ألمانيا هذه أخذت تتخلى عن حروفها القديمة لتأخذ بالحروف اللاتينية التي أصبحت شائعة بين الأمم المتحضرة ؟ إننا نعيش الآن في عصر دولي وستؤكد عاقبة الحرب ذلك ، والأمة التي لا تريد أن تماشى روح العصر في كل شيء مآلها الهاوية .

(١٩١٦)

جمهورية أفلاطون

قد لا يعرف كثيرون أن تدهور المدينة اليونانية القديمة بل المدينة الرومانية أيضاً يرجع الى وباء الملاريا الخطير وما كان له من الأثر في انحلال صحة الأمة ثم معنويتها ، وأما الفكر اليوناني والفكر الروماني فلم يصيبها عطب ولا أدل على ذلك من خلود الفلسفة اليونانية والتشريع الروماني بالرغم من مرور هذه القرون وإن كانت الحروب البربرية قد أودت بالحضارة الرومانية ذاتها . وفي مقدمة الآثار الفلسفية اليونانية (جمهورية أفلاطون) التي لا تزال تدرس في أكبر الجامعات مع أن صاحبها ظهر قبل الميلاد المسيحي بزهاء أربعة قرون ا

كان أفلاطون تلميذاً لسقراط كما كان سقراط بدوره أستاذاً لأرسطو معلم الاسكندر وأبا العلم الحديث ، ولم يكتب أفلاطون جمهوريته الا بعد أن استوعب فلسفة استاذه ، وبعد أن صهرت مشاعره فجيعة فيه ، وبعد أن أنضجته تجارب الحياة وأسفاره الى شتى الأقطار (ومن بينها على ما يقال مصر وصقلية والهند) ، فجاء هذا الكتاب الخالد وحى عقله جباراً كأنما خطه لكل زمان ومكان ، بدليل أننا حتى في عصرنا هذا نشعر كأنه في روحه وتعاليمه من التأليف الحديثة نظراً لعصريته المحسوسة في كثير من الأمور وإن كان في ظاهره عدواً للديمقراطية في مواقف ، وقد تناول في كتابه ما شاءت عبقريته من السياسة والفلسفة والأدب والفن والدين والنفسيات . وقد ورث عن استاذه سقراط الرغبة في دقة التحديد لتعاريفه والاهتمام

بالأرستقراطية الفكرية المدبّرة مع التجرّد عن الشهوات والأهواء ، فلا عجب اذا بلغ حبُّ الأيديال والتفكير الانساني بأفلاطون مبلغَ الشيوعية من جهة ومبلغ ضبط النسل وتحسين النوع الانساني من جهة أخرى . وكما كانت آلهة دلتى تعتبر أستاذه سقراط أحكم اليونان قاطبةً ، فقد كان أفلاطون يُعتبر لا أقلّ من ابن أبوللو إله الحكمة والفن والشعر . وكان استاذه مشغولاً بالتعليم على طريقة الحوار فتوسّع أفلاطون في ذلك وفي تحليله الفلسفى الدقيق ، وجاءت جمهوريته مثالا رائعا لطريقته هذه ، وإن جعل الكلام الرئيسى فيها على لسان سقراط ولكنّه فى الحقيقة كان الى حد بعيد يعبر عن خواطر نفسه المحبة للجهال مازجاً الفلسفة بالعلم والشعر والأدب الرفيع ، وإن كان يحمل فى جمهوريته على الشعراء وخرافاتهم بما لا يقلّ عن حملته على السفسطائيين ا وضع أفلاطون (جمهوريته) بعد الحرب الطويلة الطاحنة التى وقعت بين آثينة واسبارطة ، وقد تفتحت عيونُ الفلاسفة والمفكرين الى معائب الحكومة . وأراد أفلاطون أن يشرح معنى المدينة الفاضلة ومعنى الحكم العادل الصالح وكيف يُهيأ الحكم وكيف تُنظّم الطبقات ، وقد كانت المدينة فى عهده بمثابة القطر فى عهدنا الحاضر ، ولذلك انحصرت عنايته فى المدينة التى لها من السكان حول خمسة آلاف أو ستة آلاف نسمة ، ولكن العبرة فى ذلك بمبادئ التفكير وجراءته وتحرّره لا بمجال تطبيقه . وهو بهذه العناصر عاش ملهماً لمن جاء بعده من المفكرين المثاليين فى خير البشرية ، وإن قضى اختلاف البيئات والأحوال باختلاف أحلامهم .

تنقسم هذه المدينة الجمهورية المثالية الى ثلاث طبقات : أقلها طبقة الحكم وتليها طبقة الجند ، ثم تليها طبقة الصناع والعمّال ، وهى تعتمد على تخصص كل طبقة فيما يعنىها . وهو يرى أن الديمقراطية تخالف ذلك ، ولكن التجارب الانسانية فى الممالك الديمقراطية كبريطانيا مثلاً تعزز إمكان الجمع ما بين مبدأ الاختصاص فى الحكم والديمقراطية بالتنظيم السديد ، وقد دعا وز الى إعطاء رجال الجامعات الاختصاصيين مسؤولية الحكم ، ومُنحىل الى أن الولايات المتحدة أخذت تصبىخ الى هذه المشورة الحكيمة .

والمقول عادةً أن رأى أفلاطون فى تنظيم الحكم والدولة هو الصوت الملهم لفلسفى نيتشة ومكيافلى من حيث العناية بالأصلح والقضاء على الأطفال

المرضى في صغرهم ، وهذا صحيح الى حد بعيد . لقد كان أفلاطون يُعنى أساسياً بإيجاد أرستقراطية مفكرة صالحة للحكم ، كما كان يُعنى بطبقة الجيش المدافعة عن دمار الدولة ، وأما طبقة العمال والصناع فلم يكن يحفل بها كثيراً . ومع هذا فإن أحسن ما في الديمقراطية استوعبته جمهوريته إذ أنها اشتملت على تهيئة فرص الخدمة العامة للجميع ، على أن لا يقترن تولي الأمور إلا بالكفاية الفنية والتخصّص وأن يُنصَّ على ذلك في أصول الحكم فلكل إنسان صنعته وخبرته واختصاصه . كذلك صرّح أفلاطون بأن الدولة بأفرادها ، فاذا شئنا ترقية الدولة فلا بدّ من ترقية أفرادها .

ولتحقيق هذه الأمنية أو الحلم المثالي يدعو أفلاطون الى ضبط النسل في طبقات العمال والصناع والى استيلاء الدولة على جميع الأطفال الصغار لتتولى تربيتهم تربية وطنية وتهذيبهم بدنياً وعقلياً بالرياضة والموسيقى والثقافة المشوّقة الممتعة . ويمتحن هؤلاء كل عشر سنين ، فمن يصلح منهم لتعليم أرقى مُسمح له بذلك حتى تبلغ صفوفهم سنّ الخامسة والثلاثين ، وبعد ذلك يُسمح للمختارين منهم بالاندماج في الحياة العملية ، ومن بين هؤلاء تختار عند الحاجة طبقة الحكام . وهو لا يسمح لطبقة الحكام ولا لطبقة الجند بالزواج ولا بالامتلاك بل يفرض عليهم رهينة في سبيل الوطن وإن أباح الاختلاط الجنسي بشرط اقتصار كل طبقة على نساءها ، مجزأً الاجهاض في الحالات التي لا تساعد على رقيّ النسل ، ومبيحاً شيوعية النساء لطبقة الحكام لأغراض سامية وهي تجويد الندرية وكذلك لمنع الارتباط بالأسرة ، وهو لا يسمح للحكام بدكتاتورية ولكنه يجعل وظيفتهم وظيفية المشرفين على تنفيذ القوانين . وعلى هذا جمهوريته مثالية هنيئة تقوم على العقل والقوة وإنكار الذات وعلى الاتقان والجمال .

(١٩١٧)

أرنست هيكل

اعترف العلامة تشارلس دارون نفسه بأنّ حماسة هيكل لمذهبه في دمايته القوية له كانت أقوى عامل للترويج لآرائه في ألمانيا . وقرأني الذين لا يعرفون لغةً أوروبيةً يستطيعون الإلمام الكافي بمذهب داروين اذا ما عُنوا بقراءة

كتاب (فلسفة النشوء والارتقاء) للدكتور شبلي شميل ، وحينئذ يقدرون فضل دارون العلمى وفضل صديقيه هيكل وبخبر فى الترويج لمذهبه السليم .

ولا يزال هيكل حياً يرزق ، وقد اشتهر بين قراء الانجليز بكتابه الذائع (لغز العالم) The Riddle of the Universe التى ظهرت الطبعة الأولى من ترجمته الانجليزية سنة ١٩٠٠ أى فى العام الثانى لظهوره بالألمانية ، ويقال إنه بيع من طبعته الانجليزية وحدها حتى الآن أكثر من مائة ألف نسخة . وهو يبدو فى هذا الكتاب فى مسوح الفيلسوف البيولوجى محاولاً إثبات وحدة الوجود بكائناته العضوية وغير العضوية ومطبقاً مذهب التطور على شؤون الدين والفلسفة . ومن الموضوعات التى تناوّلها فى هذا الكتاب القيم طبيعة الروح ، والتدرج النفسانى ، وتاريخ نوعنا ، وخلود النفس ، وقانون المادة ، وتطور الدنيا ، ووحدة الطبيعة ، والله والعالم ، والمعرفة والعقيدة ، والعلم والمسيحية ، وديانتنا الوحدانية ، وأخلاقنا الوحدانية ، وحلّ المشاكل العالمية ، الخ . وعلى هذا فهو كتاب حيوى جامع ، وهو من التأليف التى خسرت اللغة العربية بعدم نقله إليها ، ولكنى لا أريد أن أعود إلى هذا الموضوع الشائك المؤلم ، فإكثر حديث المتظاهرين بالغيرة على اللّغة من شيوخها وما أقلّ حدّ بهم العملى عليها ومساهماتهم فى زيادة ثروتها الثقافية ولو بتشجيع النقل إليها تشجيعاً معنوياً بدل قلة مبالاتهم أو اعتراضاتهم .

ولارنست هيكل كتب أخرى ثقافية ممتازة منقولة إلى الانجليزية ، منها كتابه (نشوء الانسان) The Evolution of Man وكتابه (عجائب الحياة) The Wonders of Life وكتابه (آخر الكلمات عن النشوء) Last Words on Evolution ، وكلّها جامعة لحلاوة أسلوبه الشائق ولقوة حججه المفحمة .

وهو — كما أسلفت — معدود أول بيولوجى ألمانى سدد داروين وعزّزه باستمرار ، وإلى جانب كونه بيولوجياً فهو طبيب ممتاز ، وقد كان أستاذاً لعلم التشريح المقارن فى جامعة Jena كما كان مديراً لمعهد الزيولوجيا بها ، وقد عاش مشغولاً بالدراسات الطبيعية الحيوانية ، وله فى ذلك تقارير وتآليف ثمينة فاطقة الدلالة على ألمعيته .

وهو أول من رسم شجرة السلالات والعلاقات بين أنواع الحيوانات

ودرس تقسيم المخلوقات الحيوانية الى ذوات الخلية الواحدة وذوات الخلايا المتعددة وتأثير ذلك في كيانها وحياتها .

وكان من نتائج درسه لشجرة السلالات والعلاقات الحيوانية أنه تقدم للمؤتمر الزيولوجي الدولي الذي عُقد في مدينة كيمبردج سنة ١٨٩٨ يبحث تباع فيه تسلسل الانسان على مدى ستِّ وعشرين مرتبة من كائنات حيوانية دنيئة من ذوات الخلية الواحدة ، وهو في أثناء تطوره يمرّ في الشمبازي وفي القرد الشبيه بالانسان المسمّى *Pithecanthropus erectus* ، وعلى هذا يمثل هيكل مدرسة النشوء والارتقاء المتطرفة غاية التمثيل ، وتبعاً لمذهبه النشوئي المتطرف نراه عديم الايمان بوجود إله « شخصي » ، ولا يعتقد بخلود الروح ولا بحرية الارادة . ويرى هيكل أنّ الانسان ليس الا حيواناً مركّباً متطوراً ، كما أن الحيوان المركّب الاعتيادي نتيجة الحيوان البسيط ، وعلى هذا كانت أكبر مزايا الانسان متطورة من الحيوان ، فلا معنى بعد ذلك للتحدث عن خلود الروح الانساني وهو حيواني في أصله . وعنده أن خواص الكربون الطبيعية الكيميائية في تراكيبه الزلالية المعقّدة هي السبب الوحيد والعامل الميكانيكي للمظاهر المعينة المعروفة في الحركة التي تميّز بين المواد العضوية وغير العضوية ، وأن الأحياء الدنيئة ذوات الخلية الواحدة مثل الموزة (*Monera*) إنما نشأت من مثل هذه المركبات الأزوتية الكربونية بتأثير التولّد الذاتي ، وهو يعتبر أنّ كلّ خلية في الجسم لها صفات نفسية وأن الصفات النفسية لمخلوق متعدد الخلايا هي مجموع هذه الصفات النفسية الفردية لكلّ خلية من خلاياه ، وعلى هذا فانه يعتبر علم السيكولوجيا جزءاً من علم الفسيولوجيا ، كما يتحدث عن الوحدة السيكولوجية في العالم العضوي ويعزز الاهتمام من أجل ذلك بعلم السيكولوجيا المقارن ، وفي كتاب (لغز الوجود) فصل هام في هذا الموضوع عنوانه « التدريجات النفسية » *psychic gradations* يستحق التأمل والإمعان . إنّ تعريف الألوهة في رأي هو « إحساسُ الجزء بالكل » ، ولك أن تطبق هذا التعريف الوجداني التصوّفي كيف شئت حسب استعدادك ، وأمّا عالمنا الكبير هيكل فحسبنا منه إنكار ديانته (المسيحية) ، وتشبّهه بالنظرة المقارنة الصرفة لنشوء الأديان ، وتعلّقه العلمي المحض بعلوم النشوء والفسيولوجيا

والتشريح خاصة ، دون أن يبدي رأياً ذاتياً ولو تصوّفياً عن عقيدة الألوهة التي يُخيّل الي أنها لا تشغله ولا تعنيه ، فهو بين العقليين وبين الأدريين في هذا الموضوع وكفى (أنظر خاتمة كتابه « لغز الوجود ») . ولكن الى جانب هذا قد يعنى قرائى المصرين المسلمين أن يعرفوا أن هيكى زار مصر فى سنة ١٨٧٣ ، وأن له رأياً حصناً فى بساطة الاسلام وفى تشبّهه بالتوحيد ، وكلّ ما طاب عليه أنّه لم يسلم من تصوير الله (سبحانه وتعالى) تصويراً انسانياً مع أن هذا التصوير الانسانى anthropomorphism هو من عبث المفسّرين الذين لا يفهمون مجازات القرآن الكريم ورموزه ، ولا شأن له بتعاليم الاسلام نفسه وإيمانه لذوى الألباب ، كما تدل على ذلك آياته التصوفية الرائعة التى تلعب الى وحدة الوجود وتشير الى أن الله نور السموات والأرض .

(١٩١٧)

المعية أبى نواس

وفلسفة العزاء والغفران

يردى عن الشاعر المشهور أبى تمام قوله فى أبى نواس ومسلم : « أبو نواس ومسلم بن الوليد اللات والعزى ، وأنا أعبدُهما » . . . فآيةُ المعيةِ هذه التى تثير مثلَ هذا الإعجاب الشديد فى نفس شاعرٍ فذِّ كأبى تمام ؟ لستُ أذهبُ الى أن تفسيرها فى مثل قول أبى حاتم : « كانت المعانى مدفونةً حتى أثارها أبو نواس » فإنّ الأمر أجلُّ من ذلك ، كما تدلّ عليه سيرته .

يُعتبر أبو نواس أصدقَ تعريبٍ صملى لفلسفة زرادشت الاباحية ، كما أنه أصدق مؤمن بالمتعة والغفران ، وإنّ ألقائه الى ذلك ضرورات الحياة والتفاعل مع بيئته الجانية ، شأنه فى ذلك شأن صهر الخيام ، وإنّ لم يلبجاً الأخير الى المدى الذى بلغه النواسى فى عدم الاكثراث للناس وفى التهاك على المتع . ولكن كلاهما أحسَّ بالجبرية فى الحياة ، وبأن الناس مجردُ دُمى فى يد القدر . وأن الانصاف معدومٌ ، وأن الحياة شقاءٌ كما رآها شوبنهاور ، فعملاً على تحويل شقائها نعاءً بتخدير العقل الواعى والاستمتاع بما يشغف به الحسُّ

ويسرّ به العقل غير الواعي ... ومن العجيب أن نفسَ هذا الاحساس أوحته سيرة أبي نواس الى صديقي وأستاذي الأديب الشاعر محمود أفندي واصف الذي وقف على تصحيح ديوان أبي نواس وطبعه ، فكان كثيراً ما يقول « أغفلتني الأمة فأغفلتُها » ، وكان يتهاك على الشراب وغير الشراب عزاءً لنفسه المحزونة ، وكاد يؤسس له مدرسةً من الأدباء والشعراء الموتورين أمثاله المتهاكين على المتع تهالك أبي نواس .

والخيام وأبونواس كلاهما بلا شك من أصحاب المواهب الممتازة التي لم تعرف الدولة في وقتها كيف تستغلها ، فضاها وضاعت معظم هذه المواهب وسط العُباب ... ولكن النواصي استطاع — فوق ما استطاع الخيام — أن يعبرَ في صورة فنية مبتكرة عن إحساسه العميق وعن سخطة اللطّف وعن ظلال بيئته وعصره تعبيراً واقعياً realistic ، فأخرج حمزة بن الحسن الاصبهاني من شعره ديواناً نابضاً بالحياة الشاملة صاخباً بأهواء جبل من الناس في ألوان فنية أصيلة المزج فائقة الروح ، وهذا هو سرُّ إعجاب حبيب بشعره بل ولوعه به ، وليس ذلك لأنه القائل :

رأيتُ الليالي مرصّداً لمدّتي فبادرتُ لذاتي مبادرةً الدهر
رضيتُ من الدنيا بكأسٍ وشادنٍ تحيّر في تفضيله فطنُ الفكر
وكيف لا يعبد أبو تمام عبادة الفنِّ صاحب مثل هذا الشعر :

مازلتُ أستلُّ روحَ الدنِّ في لطفٍ وأستقي دمه من جوفِ مجروح
حتى اثنتيتُ ولي روحانٍ في جسدٍ والدنُّ منطرحٌ جسماً بلا روح
والقائل :

كتبتُ على فصٍّ لخاتمها : مَنْ مَلَّ محبوباً فلا رَقْدًا
فكتبتُ في فصٍّ ليبلغها : مَنْ نامَ لم يعقل كمن سهدًا
فحجته واكتتبتُ ليبلغني : لا نامَ مَنْ يهوى ولا هجداً
فحوتهُ ثم اكتتبتُ : أنا والله أولُ ميتٍ كدًا
فحجته واكتتبتُ تعارضني : والله لا كلمتهُ أبدًا ا

فهذا هو الشعر الفنى الرائع ولو عُددَ موضوعه مألوفاً أو مبتذلاً ،
ومثله هذه الأبيات فى بَخيْلٍ فإنَّ الموضوع فى ذاته تافهٌ ولكنَّ تصويره
معجزٌ حقاً :

رغيفٌ سعيدٍ عنده عدلٌ نفسه يقلِّبه طوراً وطوراً يلاعِبُهُ
وُيُخرِجُهُ مِنْ كُمَّه فيشْمُهُ وَيُجَلِّسُهُ فى حجرِهِ ويخاطِبُهُ
وإنَّ جاءه المسكينُ يطلبُ فضلَه فقد نكثته أمه وأقاربه
يكرُّ عليه السوطُ من كلِّ جانبٍ وَنُكَّسَرُ رجلاه وَيُنْتَفِ شاربُهُ ا

فكيف لا يخرُّ أبو تمام سجوداً لمثل هذا الشعر الذى يخلق من الصغائر
عظامٌ فنّية ؟ وما بالك بقصائده الخوالد التى تتألق فى ديوانه العظيم وقد
سارت بطاقتها الفنّية فى المشرق والمغرب مسيرَ الكواكب ؟

نشأ الحسنُ بن هانىء نشأةً دينيةً حفظ القرآن جيداً وتبحّر فى الفقه
والحديث وعلوم العرب والفرس وأشعارهم ، وأطلع على معارف أهل زمانه
وفى مقدمتها الفلسفة من هندية وفارسية واغريقية والطبيعة والفلك ، وبذلك
تهيأ لأن يشغل مكاناً محترماً فى الحياة الاجتماعية بعصره ، ولكنه لم يكن بطبعه
صالحاً للتعايل على بلوغ المناصب ففشلَ وامتنعَ لفشله ، وأعرضَ للحسد
الشديد وللدسيسة والكيد كما نجبرنا فى شعره ، فكان لذلك ردُّ فعلٍ سيءٍ
فى نفسه حتى اعتلّتْ أعصابه اعتلالاً سيكولوجياً ، فراح ينور بشعره
وباستهتاره على المجتمع ، ولكنها ثورةٌ فنيةٌ مجردةٌ من الخشونة والحقد ،
يدعمها الذكاء الخارق وتميزها الجرأة والصراحة المتناهية والشاعرية المصقولة
الخارقة والفلسفة الأبيقورية المتهادية . ومن هذه العوامل تتألف عناصرُ المعية
التي تقول بلسان كبريائه :

وهانَ علىَّ الناسُ فيما أريدهُ بما جئتُ فاستغنيتُ عن طلبِ العُذرِ

ونحن نجد أمثالَ أبى نواس من الأدباء الناثرين أو الساخطين فى شتى
الأمم وإن لم يبلغوا مبلغَ استهتاره دائماً ، ومنهم من يعاصروننا فعلاً .

ولئن أذاعَ أبو نواس فى صراحة شذوذَه الجنسىِّ فما كان هذا بدعةً فى
عصره كان للشهوات السلطان الأكبر فيه ، وكان لرجال الدولة ما كان من الانغماس

في مثل شذوذه دون أن يروا في ذلك شيئاً سوى التظرف ! ولعله ما تورط في مثل ذلك التصريح الاّ زرايةً بالمجتمع الذي غمطَ فضله في المناصب فأراد أن يُرغمه على إكبار شعره وإن احتوى شعره ألوانَ الفسوق ، وهذا هو الانتقامُ الفني الذي لجأ اليه حامداً في غير مبالاةٍ بأحد ! نعم كان مرضُ حب الغلمان (ثم « الغلاميات » المتشبهات بهم) شائعاً في زمنه ، ولم يكن منظوراً اليه نظرةً الاحتقار ، ولكنّ المباهاة الفنية بذلك لم تصدر الاّ عن ثورة أبي نواس الجامح المتحلّل

ولكلّ شاعرٍ مجدّدٍ جانبٌ من الشعر التقليدي بحكم تأثير بيئته وثقافته الأولى ، وقد كان كذلك أبو نواس ، ولكن الجانب الأعظم من شعره متحرراً مطبوعاً رائداً ، شأنه في ذلك شأن بشّار . أليس هو القائل :

حاجّ الشقيّ على رسمٍ يسألُهُ وعُجبتُ أسألُ عن خمّارةِ البلدِ !
يَبكي على تطلُّ الماضين من أسدٍ لا درّ درّك ، قلّ لي من بنو أسدٍ ؟
ومنّ تميمٌ ؟ ومنّ قيسٌ ولفّها ليس الأعرابُ عند الله من أحدٍ !
لا جفّ دمعُ الذي يبكي على حجرٍ ولا صفا قلبٌ منّ يصفو الي وتدٍ !
كم بين ناعتِ خمرٍ في دساكرها وبين باكٍ على نوىٍ ومنتضدٍ !
لو كان لومك نصحاً كنتُ أقبله لكنّ لومك موضوعٌ على الحسدِ .

والبيت الأخير يمثل حقيقة من الحقائق النفسية التي كثيراً ما استخلصها شاعرنا بطبيعته الفنية من تجارب الحياة ومن معرفة الناس ، وهذا السخر من المحافظين الجامدين ومن حياة البداوة سخرٌ فني يستمرؤه هو أيّ استمراء ، وهو جزءٌ من روحه الشاعرة النائرة على القيود ، الملتزمة السعادة أينما كانت ، الساخطة الناقية على المجتمع بعد أن لفحها الغبنُ ، حتى آثر أن يقضى وقته مع بنت الحان وأن يخصّها ورفقتها من غلمان وغلامياتٍ بمعظم شعره على أن يقضية في رياءٍ بين القوم اللثام وعلى أن يضيق شعره بينهم ، وفي هذا يقول بصراحةٍ تامةٍ :

يا مادحَ القومِ اللثامِ وطالباً رُفدَ الشّحاحِ
اشغلْ قريضك بالنسيبِ وبالفكاهةِ والمزاحِ !

ولما صححت له مواهبه بالاتصال بالرشيد وآله كان إدمان الخمر قد
تسكن منه ، فلم ينتفع الانتفاع التام من تبدل البيئة ومات حول الستين
بضمور الكبد من تأثير الخمر التي لم يسمح له إدمانها وقتئذ بأن يشغل
أكثر من مركز نديم الخليفة وشاعر العرش ، ولكنه في الحقيقة كان
يعيش في دنياه الفنية الواسعة العريضة حتى فلسف اللذة كما فلسف الغفران
الالهسي إلى درجة تقابل معاصيه ، وكان يهتف في غير تردد :

تسكّر ما استطعت من الخطايا فانك بالغ ربّاً غفورا
ستبصر إن قدمت عليه رداً وتلقى سيداً ملكاً كبيراً
تعض ندامةً كفيفك مما تركت - مخافة النار - الشرورا

وهذه البدعة الجريئة لم يقدم عليها أحد قبله ولا بعده ، وهي في صميمها
رد فعل للياس المستحکم .

ومن محاسن أبي نواس أنه في مجونه وفي خلاعته التي لجأ إليها في بدء
خيبة آماله ولم يستطع التحوّل عنها لما صلحت أموره كان دائماً
معتزلاً بنفسه ، كما كان بعيداً عن الشعور بالمرارة القاسية نحو الناس ، فلم
يقبل مثل المتنبي :

ومن عرّف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رُمحه غير نادماً
وإنما اكتفى بأن يقول مثل ذلك الشعر المتقدم ، ولم يتجاوز في الاعتزاز
بالنفس قوله :

إني وإن كنت ماجناً خرقاً لا يخطر النسك لي على بال
لذو حياء وذو محافظة مبتاع حمد الرجال بالعالى
مادنس المال عرض ذى شرف فإن عرضي يُهان بالمال

وقد أفاد الشعر العربي أيّما فائدة مما عيب على أبي نواس من السلوك
لأنه بصراحته وصدقته في التصوير واستيعابه للحياة رسم لنا بيئته وعصره .
أبرع رسم ، كما أنه بجراسته حرّر الشعر في العصر العباسي الأول من قيود
ثقيلة وأكسبه غنى بطلاقة الفنية الخلابية وبنقافته الممتازة . وكَم في شعر
أبي نواس من مرقصات غنائية وإن لم يُعلن زهوّه بها كما كان يُزهى

البحثري ، وكم فيه من ابتداع في تناول الأوزان وفي تناول المعاني على السواء حتى تجلّى في شعره الاحساس العلى الفنى عن طريق البصيرة ، كما ترى في مثل قوله :

ما ارتدّ طرفُ امرئٍ بِلذّتهِ إلاّ وشى يموتُ من جَسَدِهِ ١
كما أنه عرف كيف يستغلّ مَعارفه الطبيعية ، فقال في هجاء مغنٍّ :
قلْ زهيرٍ إذا اتّكأ وشدّاً أقللْ وأكثرْ فأنتَ مهذارُ
سخنتَ من شدّةِ البرودةِ حَسْبى صرتَ عندي كأنك النارُ
لا يعجب السامعون من صفتى كذلك الثلجُ باردٌ حارٌ
إذّ المعروف علمياً أن الحرارة الخفية (latent heat) للثلج هي الحرارة التي يمتصّها عند ذوبانه ، فإذا ذاب رطل من الثلج مثلاً كانت الحرارة التي يحتاج إليها ذوبانه معادلةً للحرارة التي يحتاج إليها رطل من الماء ليرتفع الى درجة ثمانين سنتيغراداً ، وهي كما ترى حرارة عظيمة نسبياً .

وهو في تحيُّره لألفاظه ولموضوعاته ولمعانيه ولموسيقاه الشعرية مكتملُ
الاحساس الفنى ، طروبُ النفس ، سريعُ الخاطر ، ناضجُ الذوق ، ظريفُ
الأداء ، خفيفُ الروح ، واسعُ الثقافة . فلا غرابة إذا تشيّع له كثيرون من
المستشرقين وآثروه حتى على المتنبى ، وأمّا في الشرق العربي فعظمةُ أبي
نواس الفنية تُعدُّ في حُكم المجهولة في وقتنا الحاضر ، وأكثر من يُشغَلُ
به هم العامة ، وشغلانهم بأساطير موهومة تدور حول اسمه الساحر .

(١٩١٨)

الاسلام والنصرانية

من الكتب الاسلامية النفيسة كتاب (الاسلام والنصرانية مع العلم
والمدنية) للأستاذ الامام المغفور له الشيخ محمد عبده ، ولو أنه أخذ عليه
انزلاقه إلى وضع النصرانية في موضع الخصم للاسلام مع أن المفروض أن
الاسلام هو بمثابة تنمة للنصرانية . وعلى هذا يجب على المسلمين أن يفتسروا
الأنجيل باحترامٍ كلّيّ تفسيراً مقبولاً في ضوء الاسلام . وقد تحدّث الامام

عن المعايير والاضطهادات التي ارتكبت باسم النصرانية والنصرانية بريبة^١ منها براءة الاسلام من نظائرها في عصور الجهل والانحطاط، ويُجَيَّلُ إلى أنه - قدس الله روحه - تأثر في كتابته هذه الى حد ما بما كتبه إرنست هيكل ووندوود ريد وأمثالهما من الكتّاب الأحرار الذين تقدوا الكنيسة، وأخص بالذكر كتاب ريد الموسوم (استشهاد الانسان) The Martyrdom of Man By Winwood Read ، وقد ظهر هذا الكتاب العظيم لأول مرة في سنة ١٨٧٢ وكان له أثر بالغ في التفكير الانساني، وقد بيعت منه عشرات الآلاف من النسخ، واعترف الفيلسوف الاجتماعي هـ . ج . و . و ب تأثره به .

ولكن بين فصول كتاب الامام محمد عبده كلمة رائعة عن ملازمة العلم للدين أحسب أن المسيحيين أنفسهم فضلاً عن المسلمين أول من يقرّونها إذ يقول رحمه الله : « متى ولع المسلمون بالتفكير والتنسيق ، ورُمِيَ زيد بأنه مبتدعٌ وعمرو بأنه زنديق ؟ أشرنا فيما سبق في مبدأ هذا المرض ، ونقول إن ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف في الدين يظهر بينهم وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله (تلك الفتن التي كان يثيرها أعداء الدين في الشرق وفي الغرب لحفض سلطانه وتوهين أركانه) وتصدّر للقول في الدين برأيه من لم تمتزج روحه بروح الدين ، وأخذ المسلمون يظنون أن من البدع في الدين ما يحدث إحداثه لتعظيم شأنه تقليداً لمن كان بين أيديهم من الأمم المسيحية وغيرها . وأنشأوا ينسون ماضي الدين ومقالات سلفهم فيه ويكتفون برأى من يرونه من المتصدّرين المتعالمين . وتولى شئون المسلمين جهالهم وقام بارشادهم في الأغلب ضلالهم ، في أثناء ذلك حدث الغلو في الدين واستعرت نيران العداوات بين النظّار فيه ، وسهل على كل منهم لجهله بدينه أن يرمى الآخر بالمروق منه لأدنى سبب . وكلما ازدادوا جهلاً بدينهم ازدادوا غلوّاً فيه بالباطل ، ودخل العلم والفكر والنظر (وهي لوازم الدين الاسلامي) في جملة ما كرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجباً من الدين محظوراً فيه لا أكاد أخطيء القارىء إذا زعم أن المسلم إنما استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ما علمه جيرانه إذ كانوا يقولون : هرتقة وتهرتق وهو هرتوقى ، أو ما يماثل ذلك ، أو زعم أن قد قدمت في المسلمين سرعة التفكير بطريق العدوى من أهل الميل المتشددة

وأن الذي سهل سريان تلك العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الديني عند المسلمين بمجملهم بأصوله ومقوماته ، ومتى ضعف المزاج استعدت لقبول المرض كما هو معلوم . إن المسلمين لما كانوا علماء في دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم . أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل وطعمة الطاعم . هل وقف الجهل بالمسلمين عند تفكير من يخالفهم في مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة أو يقرب من ذلك ؟ لا بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين وخدمة السنة والكتاب ، فقد حُرِّمَتْ كُتُبُ الامام الغزالي الى غرناطة وبعد ما انتفع بها المسلمون أزماناً هاجَّ الجهلُ بأهل تلك المدينة وانطلقت السنة المتعللين من البربر بتفسيقه وتضليله فجمعت تلك الكتب خصوصاً تُسَخ (إحياء علوم الدين) ووُضعت في الشارع العام في المدينة وأُحْرِقَتْ ! قال قومٌ يعدّون أنفسهم مسلمين في ابن تيمية - وهو أعلمُ الناس بالسنة وأشدّهم غيرة على الدين - إنه ضالٌّ مُضِلٌّ ، وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملأون أفواههم بهذه الشتائم ، وعليهم إثمها وإثم من يقفون بها الى يوم القيامة . وقال أيضاً في متابعة العلم للإسلام ومباينته لسواه : « الحق أقول والحس يؤيدني : ما عادوا العلم إلا من يوم انحرافهم عن دينهم وأخذهم في الصدّ عن علمه ، فكلما بعد عنهم علمُ الدين بعد عنهم علمُ الدنيا وحُرِّموا ثمار العقل . وكانوا كلما توسّعوا في العلوم الدينية توسّعوا في العلوم الكونية وضربوا الزمان بسوط من العزة . أمّا غيرهم فكلما اتّصلوا بالدين وجدّوا في المحافظة عليه أنكرهم العلم وتجرّتهم واكفهرّ وجهه للقائهم ، وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبشّ في وجوههم ! ولذلك يصرّحون بأن العلم من ثمار العقل والعقل لا يصح أن يكون له في الدين عمل ولا أن يظهر منه فيه أثر ، والدين من وجدانات القلب ولا علاقة بين ما يجد القلب وما يكسب العقل ، فالفصل تام بين العقل والدين ولا سبيل الى الجمع بينهما . سألهم الله فيما يستّونه تسامحاً مع العلم ، وهم يصرّحون بأنه عدوّه الذي يستحيل أن يكون بينه وبينه سلم . هل عرفتَ السبب في اضطهاد المسلمين للعلم ؟ أقول (اضطهاد) ولا أريد به ما كان عند الأمم المسيحية من الاشتداد في إبادة أهله والتنكيل بهم واختراع ضروب التعذيب والتفنن في صنع آلات الهلاك

مع الأخذ بالشبهة والاكتفاء في الاعداد بمجرد التهمة ، فان ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم ولا في أزمنة جهلهم . ولكن أريد من الاضطهاد الاعراض عن العلم ورمي الألفاظ السخيفة في وجوه أهله وقذفهم بشيء من الشتائم مع الابتعاد عنهم . لا ريب أنك قد أيقنت بأن السبب في هذا الذي يسميه الأديبُ اضطهاداً إنما هو جهلهم بدينهم .

لا مشاحة في أن العالم الاسلامي مقدم الآن بعد هذه الحرب الكبرى على صراع خطير ، فليكن أقوى أسلحته العلم ، ثم العلم ، ثم العلم .
(١٩١٩)

المغرب في ترتيب المغرب

يقع هذا المعجمُ النفيسُ بذيو له في نحو أربعين وثلثمائة صفحة من القَطْع المتوسط ، وهو من مطبوعات الهند المجهولة في مصر فوجب التنبيهُ إليه ، خصوصاً في هذا الوقت الذي قاربت فيه الحربُ بيننا وبين اخواننا الهنود وازداد التبادلُ الفكري بيننا وبينهم على أثر خيبة آمالنا جميعاً .

وهو في عُرف النقاد اللغويين ومؤرخي الأدب أحسنُ كتاب صُنِّف في المبانى اللغوية المتعلقة بفقهِ الحنفيَّة ، إذ تكلم صاحبه فيه على الألفاظ التي يستعملها الفقهاء من الغريب ، وهو للحنفية بمثابة كتاب الأزهرى للشافعية . وضعه الامامُ العلامة أبو الفتح ناصر بن عبد السيد بن علي المُطَرِّزِي ، وقد وُلِدَ سنة ٥٣٨ هـ . وهي سنة وفاة الزمخشري ، وتوفي سنة ٦١٦ هـ . قال صاحب (الفوائد البهية في ترجمة الحنفية) إنه كان إماماً في الفقه العربية واللغة ، رأساً في الاعتزال ، لسان البرهان ، سحبان البيان ، عديم النظر في الفقه وأصوله ، وقد وُلِدَ بمرجانية خوارزم وقرأ على أبيه ثم على الموفق أحمد بن محمد الخطيب الخوارزمي تلميذ الزمخشري ، وله المغرب في لغات الفقه والايضاح في شرح مقامات الحريري والافتناع في اللغة ومختصر إصلاح المنطق ومقدمة في النحو سماها المصباح ... هذا وليس كتابه (المغرب) الذي نحن بصدده الا مختصر معجمه الكبير المسمى (المغرب) بالعين المهمة ، ولكنه لم يقع في يدي ولا أدري إذا كان مطبوعاً أم لا ، ولكن المختصر في ذاته

نقيسٌ وجديرٌ بالذِويوع وحسن الطبع لأن طبيعته الهندية رديئة ، وقد أهملت
معارفُ المطرّزي له أن يُنعت « خليفة الزمخشري » ولو أنه لم يُدرکه
وانما أدرك تلميذه الموفق خطيب خوارزم .

وذكر الشيخُ الحاجُّ مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الاسلامبولي المشهور
ما يأتي في التعريف بهذا المعجم وبتأليف المعاجم عامة وذلك في كتابه المسمّى
(كشف الظنون) : إن مقصد علم اللغة مبني على أسلوبين ، لأنّ منهم مَنْ
يذهب من جانب اللفظ الى المعنى بأن يسمع لفظاً ويطلب معناه ، فلكلِّ
من الطرفين قد وضعوا كتباً ليصل كلٌّ الى مبتغاه إذ لا ينفعه ما وُضع في
الباب الآخر ، فن وضع بالاعتبار الأول فطريقه ترتيب حروف التهجّي
إما باعتبار أواخرها أبواباً وباعتبار أوائلها فصولاً تسهيلاً للظفر بالمقصود ،
كما اختار الجوهري في الصحاح والشيخ مجد الدين في القاموس . وإما بالعكس
أى بإعتبار أوائلها أبواباً وباعتبار أواخرها فصولاً كما اختاره ابنُ فارس في
الجمهر والمطرّزي في المغرب . ومَنْ وضع بالاعتبار الثاني فالطريق اليه أن
يجمع الأجناس بحسب المعاني ويجعل لكل جنس باباً كما اختاره الزمخشري في
قسم الأسماء من مقدمة الأدب . ثم إن اختلاف الهمم قد أوجب إحداث
طرق شتى : فن واحد أدّى رأيه أن يفرد لغات القرآن ، ومن آخر الى أن
يفرد غريب الحديث ، ومن آخر الى أن يفرد لغات الفقه كالمطرّزي في
المُغرب ، وآخر الى أن يفرد اللغات الواقعة في أشعار العرب وقصائدهم
وما يجرى مجراها كمنظّام الغريب . والمقصود هو الارشاد عند مساس
الحاجات .

ما بين شِكِّ في حاجتنا الماسّة الى معجم عصريٍّ شاملٍ لا في الآداب
وحدها بل في العلوم كذلك ، بل نحن في حاجة الى معاجم مختلفة لشتّى
الصناعات والحِرَف تكون بمثابة طبعة عصرية منقحة مجددة من (المختص)
لابن سيده وأمثاله ، ولكنّ هذه الحاجات لاتنهض عذراً لاهمال المعاجم
الموجودة فعلاً أو التي يجب البحث عنها أو التي تنبغي إعادة طبعها ومنها -
على ما ذكر صاحب (مدينة العلوم) - كتاب (العين) للخليل بن احمد ،
(المنتخب) و(المجرد) لعلي بن حسن الهنائي المصري صاحب المنضد في اللغة المجردة ،

و(المجمل) لابن فارس ، و(المعلم) لأحمد بن إبان اللغوي ، و(التهذيب) و(الجامع) للأزهري ، و(العياب الزاخر) للصغاني ، دع عنك القاموس المحيط ولسان العرب والمحكم والصحاح والجمهرة والنهاية والسامى فى الأسامى للميدانى والدستور ومرقاة الأدب ومختصر الاصلاح وطلبة الطلبة ، وغيرها . فهذه كلها ذخائر وأعلاق ومراجع لا يستغنى عنها المؤلف المجدد .

وأختم هذا المقال الوجيز بمثال من طريقة المطرزي فى (المغرب) . قال فى مادة سلم : « سلم من الآفات ، ومنه قوله سلمت له الضيعة أى خلصت وعصده سميت سلامة بنت معقل أمة الحنات . . . ، وباسم الفاعل منه سلمي سلم بن عبد الله بن عمر راوى حديث رفع اليدين ، وبفعل المبالغة سمي والد أبى عبيد القاسم بن سلام وأبى نصر محمد بن سلام ، وبفعلان منه سلمان الفارسي وسلمان بن ربيعة الباهلي قاضى الكوفة . وسلمان أيضاً حتى من العرب اليه يُنسب عبيده السلماني من التابعين ، والمحدثون على التحريك ، وأنكره السيراني . وأمّا سليمان فأعجمى . والسلام بفتحتين من العضاة ، وبوحداته سمي سلمة بن صخر البياضى ، وكنى أبو سلمة زوج أم سلمة قبل النبي عليه السلام . وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ازهرى . وقوله السلم لا يدخل فى البيع من غير ذكر ، سواء كان من خشب أو مدر ، يعنى المعراج ، وهو ما يعرج فيه ويرتقى عليه ، وقد يؤنت . قال اللبث : يُقال هى السلم وهو السلم والجمع السلايم . قال الزجاج رحمه الله : سمي بهذا لأنه يسلمك الى حيث تريد . وأسلم الثوب الى الخياط ، وأسلم فى البر أسلف من السلم وأصله أسلم الثمن فيه نخذف ، وقد جاء على الأصل منه قوله اذا أسلم صوفاً فى لبد أو شعر فى مسح لم يجز ، وسلم اليه وديعته تسليماً . وأما قوله لأقيم الرهن حتى يقول الراهن بعد ما خرج من الدار سلمتها على حذف الجار فسهو ، والسلام اسم من التسليم كالسلام من التكليم ، وبه سمي والد عبد الله بن سلام ، وكذا سلام بن مشكم عن الأزهري وغيره ، وهو أبو زينب وكان من اليهود ، وينشد لأبى سفيان :

سقانى فروانى كيتاً مدامة
على ظمأ منى سلام بن مشكم

وأبو نصر محمد بن سلام ، واستسلم الحجر تناوله باليد أو بالقلة أو مسحه بالكف من المسلمة بفتح السين وكسر اللام وهى الحجر ، وبها سموا بنو سلمة بطن من الأنصار . وفى هذا ما يكفى للدلالة على روح المؤلف المستوعبة .

حافظ النبيل

لقد أحببت شاعرَ النبيل لمحامد مأثورة أعظمها وطنيته الصادقةُ وروحُه
الانسانيةُ . فأما عن وطنيته فلا توزن شعراً بعدد ما نظم من قصائد ولكن
بروح ما نظم ، ومن أقدمه قصيدته «العلمان على أطلال الخرطوم» وقصيدته
الخالدة في دنشواي . وأما عن روحه الانسانية فتتجلى في جميع شعره
الاجتماعي الفيّاض بالعطف على البائسين والمنكوبين من صميم وجدانه .
ليس حافظ الآن في شطف عيشه السابق حينما كان ينشد :

سَعَيْتُ إِلَى أَنْ كَدْتُ أَنْعَتِ الدَّمَآ وَعُدْتُ وَمَا أَعْقَبْتُ إِلَّا التَّنْدُمَا
لِحَى اللَّهِ عَهْدَ القَاسِطِينَ الَّذِي بِهِ تَهْدَمُ مِنْ بِنْيَانِنَا مَا تَهْدَمَا
إِذَا شِئْتَ أَنْ تَلْقَى السَّعَادَةَ بَيْنَهُمْ فَلَا تَكْ مُصْرِيًّا وَلَا تَكْ مُسَلَمَا
سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا سَلَامٌ مَوْدَعٌ . رَأَى فِي ظِلَامِ القَبْرِ أَنْسًا وَمَغْتَمَا
أَضْرَبَتْ بِهِ الْأُمُولى فَهَامَ بِأَخْتِهَا وَإِنْ سَاءَتْ الْأُخْرَى فَوَيْلَاهُ مِنْهُمَا
فَهَبِي رِيَّاحَ المَوْتِ نَكْبَاءَ وَأَطْفَى سِرَاجَ حَيَاتِي قَبْلَ أَنْ يَتَحَطَّمَا
فَا عَصَمْتَنِي فِي زَمَانِي فَضَائِلِي وَلَكِنْ رَأَيْتُ المَوْتَ لِأَحْرَِّ أَعْصَمَا !

ولعله الآن يؤلمه أن يذكر بمثل هذا الشعر ، فهو الآن في مجبوحة
نسبية من العيش ، ومع ذلك لا تزال لشعر حافظ رفته الانسانية كما رأينا في
منظومته التمثيلية التي وضعها في ضرب الأسطول الطلياني لمدينة بيروت ،
فهي إذن صفة أصيلة لشعره .

ولكنني أكبرت في حافظ بعد هذا نُبله النادر بين شعراء هذا الزمن
بل بين الشعراء في كل زمن . ويتمثل هذا النبيل في عنايته بالأدباء الناشئين
وفي حذبه على المغبونين ، بينما قد تفشَّى التكالب على الشهوات والتحاسد
بين الناس حتى ليحسد الأستاذ تلميذه !

جالستُ حافظ منذ طفولتي الأدبية وأنا في العقد الثاني من عمري وذلك
بفضل بيته والذي الأدبية . ولعل أول مرة رأني فيها مشغولاً بتصحيح

نبذة لي في جريدة (الظاهر) سنة ١٩٠٥ لم يكن مرتاحاً إلى هذا التذكير بتناول القلم وأنا لم أزل بعد حدثاً ، ولكن بعد خمس سنوات أخرى كان حافظ نفسه يرحب بديوانى الأول ويحييه كريماً بهذه الأبيات :

لله يا زكىُّ مه المحبة والثناء كفاءُ قدرِك
شعرُ التفوق والجمال العبقريِّ هَميلُ شعرِك
صدحت بليله بشرك مثلاً لنا بشرك
وتردد الأجيال صدحتها كترديدي لذكرِك
بُعثت القريضُ فروه رومٌ على أنداء نجرِك
حافظيهم

(نحية شاعر النيل بخطه)

وقد كان ولا يزال أستاذي مطران توأمَ حافظ في أُبله ، وهو الذي زاد من اهتمام حافظ وشوقي بي ، فكم جمعنا مجالس شبه عائلية في دار والدي ، وكنتُ أستمع بشغفٍ إلى المطارحات الأدبية بين والدي وأولئك الاعلام في دولة الشعر ، وخلافاً للمعروف كان حافظ أسبق من شوقي في ارتجال الشعر وكان مثله في خفة روحه ، وكنت أدوّن الكثير مما يقال في تلك المجالس الأدبية الحلوة ، ولكن أين هي الآن وقد فصلتني عنها مئات الأميال هذه السنين الطوال ؟

لقد انتفعتُ بالكثير من هذه المجالس وقد شكرتها لوالدي يافعاً ولازلتُ أشكرها له . وكيف أنسى الى جانب من ذكرتُ أمثال السيد محمد رشيد رضا وجورجي زيدان و ابراهيم اليازجي وشبلي شميل ومحمد لطفى جمعة ومحمد المويلحي وسعد زغلول ويعقوب صروف وأحمد زكي والسيد محمد البيلاوي وحفنى ناصف ومحمود واصف وحمزة فتح الله وعبد الله الانصارى وفارس نمر وقاسم أمين وعمر لطفى ومحمد

فريد وعبد كرد على وعبد القادر المغربي وعبد الفتاح بيهم ، وغيرهم ، وغيرهم ؟
ولم تكن الصداقة العائلية هي التي جعلت حافظ يُعنى بابن أخيه ،
وإنما هو نُبل طبعه ، بدليل حفاوته بالشاعر المجدد عبد الرحمن أفندي شكرى
بما لا يقل عن حفاوته بشعرى إذ قال بحبيبه عند ما أصدرَ الجزء الأول من
ديوانه سنة ١٩٠٩ :

أفى العشرين تعجز كل طوقـ وُترقصنا بأحكام القوافى
شهدتُ بأنْ شعرك لا يُجارى وزكَّيتُ الشهادة باعترافى
لقد بايعتُ قبل الناس (شكرى) فن هذا يكابر بالخلاف ؟

وهذا التشجيع لشاعرين من شعراء الشباب بل لجميع شعراء الشباب
المأمولين كان فطرياً عند حافظ ، مرجعه شعوره بالاستاذية الصادقة
وسماحة نفسه ، ولا أعرف أحداً يضاهيه فى ذلك من بين شعرائنا سوى
مطران الذى لم يُحى ديوانى الأول عند صدوره بأقل من تحية حافظ له
قبل صدوره .

ولأنتقل من الأدب العام ، تاركاً حذب حافظ على كثيرين من
الأدباء وفى مقدمتهم الشاعر الزجال البارع عبد إمام العبد ، فأذكر مثلاً رائعاً
لنبل حافظ فى انتصاره الموفّق الجرىء لآخواننا السوريين ضدّ التعصّبات
الغاشمة التى تَنسى ما بيننا وبين الأقطار الشقيقة من روابط تاريخية ولغوية
وأدبية واجتماعية فى حكم المقدّسة . وقد جاءت صيحة حافظ فى أوامها
وكانت بداية عهدٍ جديدٍ من التآخى والتعاطف . ولم تستطع التعصّبات أن
تقف فى وجه شاعر الوطنية المصرية . ولستُ أذيع سرّاً إذا قلتُ إنه كان
لوالدى ومطران أثرٌ بارزٌ فى توجيه حافظ لأن يكون شاعرَ هذا التآخى
الجديد ، ولكن لو لم يكن لحافظ ما له من نُبل الطبع وصفاء النفس لما
أفلحَ مع شاعريته ذلك التوجيهُ الودّى . وأعرف من كبار السوريين فى مصر
والخارج من قدّر لوالدى هذه الروح ، فكانت تأتبه كتبُ الثناء والمودة
تترى من هؤلاء الكرام ، وكانوا يعانقونه عند اللقاء بفرحة الوفاء .
وما كانت لوالدى أيةُ مصلحةٍ تربطه بآخواننا السوريين ، ولكنههُ تعاطفٌ
مبعثهُ تلك الروابط التى أعرف أن والدى يحرص عليها جدّاً الحرص كأنها من

فرائض الاسلام بل من أركانه ! فأنا مدينٌ لوالدي ولطرانٍ أولاً ثم لحافظ ثانياً بتغلغل مثل هذا الاحساس في نفسى .

أقول هذا وأنا أرى العوامل الجامعة والمفرقة في هذه الحرب العالمية الطاحنة ، فأتمنى لو زادت الروابط الفكرية والروحية بيننا وبين الأقطار الشقيقة ، فقد يكون مآلنا ومآلها في بوتقة واحدة ، ولنا أن نهيب بنبل حافظ مرة أخرى في هذا الوقت العصيب ، ولعل هذا الصوت الضئيل من تلميذه الصغير لن يضيع عنده .

(١٩١٩)

في صحبة ديكنز

لا أذكر أنى أنعمُ بقراءة ديكنز في شغفٍ أكيدٍ إلا عند ما أكون بقرب الموقد شتاءً وذلك حيث أقيم الآن في إنجلترا ، وأما في مصر فلم تكن قراءتى له لتعادل تفهمنى أو شغفى الحاضر . ولعلَّ مرَّةً ذلك يرجع لتمثلى الحياة الانجليزية في عهده أصدق التمثل بعد أن شاهدتُ حاضرهما ، كما يرجع الى استيعابى الروح الانسانية في جميع كتاباته وسخطه الحق للفقراء والبائسين ولويلاتهم والى افتتانه بتصوير الشتاء الانجليزى في عيد الميلاد ، فاذا بجلستى في فصل الشتاء أمام الموقد أمنٌ وذكري .

إنَّ قصص ديكنز على جلاله قدرها الفنى هي أناجيل إصلاحية ، وقد كان لها من الشأن والاثر في عهدها ما لكتابات برنارد شو ووز في عهدنا الحاضر وكان متأثراً الى حدٍ ما بتعاليم كارليل ، ولكنَّ انسانيته مستمدةٌ من طبيعته الرحيمة ومما عاناه من الفقر والمصاعب في طفولته كما ترى ذلك ماثلاً في الفصول الأولى من قصته (دافيد كوبرفيلد) David Copperfield وفي تصويره لدور Pip في قصته (آمال عظيمة) Great Expectations ، ومع أن للعاطفة شأنًا كبيراً في جميع قصصه حتى ما دارت منها حول التهاويل والأخيلة الشعرية مثل A Christmas Carol (أغنية لعيد الميلاد) إلا أن جميع هذه القصص مشبعة مع ذلك بعنصرين غالبين : أحدهما روح الفكاهة المبتكرة غالباً ، والآخر التصوير الواقعى .

ولقد عيبَ على ديكنز أنَّ الشخصيات التي يرسمها تتأثر بأهوائه ، ولكن هذا العيب هو حسنته لأنَّه يدلُّ على طبيعته الخلاقَّة من ناحيةٍ وعلى رُوحه المبشِّرة المصلحة من ناحيةٍ أخرى . أجل ، لقد كان ديكنز فنَّاناً مبتدعاً ، وإزاءَ هذه القدرة الفنيَّة الهائلة على الابتداع يذوب جميعُ النقد كما يذوب الثلجُ الذي يغطى الزنابق أمام أشعة الشمس القاهرة . وقد نُسيَ ناقدهوه أمَّا آثارهُ فلا تزال خالدةً وما تزال ذكراه ملءَ الامبراطورية الانجليزية بل ملءَ العالم الأدبي بأسره ، ومنذ سبعة عشر عاماً وعشاق ديكنز يراعون هيئة أدبية كبرى باسم (زمالة ديكنز) Dickens Fellowship ذات فروع عديدة الغرضُ منها إحياء ماثره والذبح على منوالها ، ولا يسع من يصحبه في مطالعاته إلاَّ أن ينضم من صميم قلبه بكل محبة وإجلال إلى هذه الزمالة التي تعزُّ القصص المصلح الانساني الذي أنجبه القرن التاسع عشر ، والذي استطاعت عبقريته أن تخلق عظام فنية من صغار الحوادث والأمر .

كان ديكنز مهوماً بالأمراض الاجتماعية والاقتصادية في عصره فصورها أصدق تصوير وأفاض من ينبوع قلبه على قرطاسه في رسم شخوصه الكثيرين الذين مهما انتقدتُ غرابية بعضهم أو شذوذهم أو اختراعهم فإنهم مع ذلك ينبضون جميعاً بالحياة الى درجة مذهشة .

كان ديكنز خصبَ الانتاج الى درجةٍ بالغةٍ ، ومع ذلك فجميعُ قصصه تقريباً تتَّسم بالأصالة . وهي ذخيرةُ أدبٍ ومعارف عامة وتجاريب جيوية وقد حفظت لها هذه الأصالةُ خلودها الى الآن وإلى ما بعد الآن ، بالرغم من تطوُّر الذوق الأدبي تطوُّراً سريعاً مبتدعاً عن مألوف الاطلاة والتكرار والتحليل المنسأهي مما كان شائعاً في عهد ديكنز . وهذه هي العبرةُ الفنيَّةُ التي يلحظها المتأدبون النابهون في كلِّ أمة والتي يجب علينا كذلك أن نلحظها ونحفل بها ونبتها في نفوس المؤلفين من أبناء العربية الذين ما يزال معظمهم يُعنى بالنقل والمحاكاة والاقتباس والاقطاف وما الى ذلك من آثار . القدامى دون أن يقدرُوا للابتداع قيمته وأثره . وكثيرون من قرأني لا بدَّ أن يكونوا قد اطلعوا على (قصة المدينتين) Tale of Two Cities التاريخية ، فهل لو كتب غيرُ ديكنز هذه القصة أ كان يلونها مثل هذا التلوين

العاطفي الانساني ؟ إنَّ أدب ديكنز في معظمه (أى بعد تجاوز آثار الصبا) أدب شخصي أصيل في نبعه النفسى وإنَّ يسكن أدباً عاماً في تطبيقه على الحياة الانجليزية — وبالأخص حياة لندن — وأدباً إنسانياً في شموله . فكيف لا يخلد مثل هذا الأدب وكيف لا يكون درساً بليغاً لكتابتنا المنشئين ؟

وبينما يتروَّع جبهة الكتاب عن شؤون العمال يعرف ديكنز أنهم العمود الفقري للأمة (شأنهم شأن الفلاحين عندنا) فيشغل نفسه أيما شغلان بشؤونهم وهمومهم ويعنى بحياتهم ويخلق من كل ذلك فناً رفيعاً بقصصه . لم يكن في عهد ديكنز شيء من مشاكل العمال الحالية التي تشغل سدنى وب ومكدونالد وولز وأضرابهم ، ولم تكن له دراية بمناطق العمال ولا بالريف الانجليزي ، فاقصر على اللندنيين غالباً في ما استمدّه من الصوَر والدراسات ولكنه جاء بالمعجب المدهش ، حتى كان معاصروه يعدّون كتاباته مرآة انجلترا المحبوبة ، وحتى أصبح أجنبي مثلى من عشاق الثقافة الانجليزية ينعم بصحبته ويعيش عيشاً حقيقياً في دنيا القرن التاسع عشر وفي الدنيا التي ابتدعتها ديكنز من رحمة وتسامح وخير وجمال في طائفة من معالمة ومن شخصوه الكثيرة . وإنَّ أنس لا أنس قدرته الوصفية الفذة التي تجعل القارئ يتخيّل أن القصة من قلمه هي ديوان من الشعر الوصفى قبل أن تكون رواية ، وإنَّ أنس لا أنس الحركة الدائمة والحياة السارية في جميع فصوله ، حتى لأقف متسائلاً : هل يجوز أن يؤخذ هذا الذهن العبقري على الاغراق في هذه الناحية أو تلك من كتابته حينما نجده يؤلف من عناصره المختلفة وحدة قوية ساحرة ؟ إن مثل هذا العقل لا يغفل بل يكاد يُعَدُّ معصوماً ، وما يؤخذ عليه من هذا الناقد أو ذاك هو تصرف متعمد لا أسباب اجتماعية واصلاحية وأسباب أدبية زمنية يرى وجاهتها كاطالته في الحوار وتحليله للمذاهب والأفكار وعنايته بالفكاهة وما الى ذلك .

إن ديكنز من العقليات الجبارة التي شغلت بخير الانسانية ، ومن أساتذة الفن الذين خدموا القصة بالمعيتهم وأصالتهم ، ومن أعز الأصدقاء الذين تُعَدُّ مطالعة آثارهم صحبة ماثورة .

نظرة في الشعر الايطالى

لعل شعر فرجيل Virgil يمثل أروع الشعر الايطالى فى قديمه أيام كانت اللاتينية هى اللغة الوطنية وأيام كانت رومة الجبارة غير إيطاليا الحديثة . ومع ذلك كان شعر فرجيل متأثراً الى حد بعيد بهومر فى الانيادة ، وقل أن نجد له شعراً أصيلاً بالرغم من مواهبه العالية ، فكأنما اطلعاه على الأدب الاغريقى قد جنى عليه . وهذا شأن غيره من الشعراء الرومانيين فى عصره وبعد عصره ، إذ الواقع أن أثينا انتقلت لنفسها من رومة انتقاماً ثقافياً مما فرضته رومة من السيطرة العسكرية ، فكان الرومانيون يحجبون الى أثينا للارتشاف من ينابيع آدابها وفلسفتها وفنونها فى الوقت الذى كانت فيه أثينا خاضعة خضوعاً عسكرياً لمنافستها . وحتى عند ما ندرس الشاعر هوراس Horace نجد أن تأثره بيندار Pindar وسافو Sappho وغيرها من شعراء الاغريق الذين كان يعجب بهم لم يتركه متحرراً ولم يخدم كفايته الشعرية . وكذلك الدراما الشعرية الرومانية يصح أن يقال إنها كانت معدومة حتى قال نيبور Niebuhr إن شعر رومة الحقيقى يتمثل فى تاريخها وفى أساطيرها الأولى قبل أن يتمثل فى إنتاج شعرائها المبتور .

وما حان القرن الثالث عشر حتى كانت إيطاليا أعظم سوق للمال فى العالم واحتفظت بمركزها هذا إلى ما بعد اكتشاف أمريكا بوقت قصير . وكان لهذه الثروة العظيمة أثرها فى رفاهية الشعب ثم فى نزوعه الى التسلية والمتعة الثقافية والذهنية (تراجع المؤلفات الآتية خاصة : (١) « دراسات فى الأدب الايطالى » Studies in Italian Literature تأليف كترين مارى فيليمور By Catherine Mary Phillimore (٢) وكتاب « الأدب الايطالى » A Manual of Italian Literature تأليف فرنميس هنرى كلف By Francis Henry Cliffe (٣) وكتاب « دراسات لشعر ايطاليا » تأليف فرانك جاستس ميلر Studies in The Poetry of Italy (By Frank Justus Miller) وبذلك شغف بالشعر بين ماشغف به من الفنون الزاهية . وكانت صقلية المباءة المختارة للامبراطور فردريك الثانى ، وكان شعراء التروبادور هم مبعث الإلهام فى ذلك الوقت لكثيرين من شعراء

إيطاليا . ولم تكن اللغة اللاتينية مُسعفة لهم في التناول الفني للموضوعات الشعرية ، ولكن اللغة اللاتينية قد تشعبت حينئذ لهجاتها ونشأت عنها لغات محلية مختلفة ، وكانت أعذبها وأفصحها لهجة تسكاني أو قس إن هذه المقاطعة كانت موفقةً بكثرة من ظهر فيها من الشعراء النابغين والأدباء البارعين فطوّعوا لغتها أحسن تطويع وزادوها مرونةً وسلاسةً وحلاوةً كما كان شأن لهجة قريش بين العرب ، وهكذا وثب الشعر الإيطالي وثبةً موفقةً نحو الحياة والنور . وهكذا نجد في آخر القرن الثالث عشر الشاعر البولوني جونسلبي Guincelli والشاعر الفلورنسي كافلكانتى Cavalcanti ينهجان مَنهجاً مَدْرَسِيّاً مُتَقَنّاً بعد ما كانا ومن سبقوهما يُشْعَلون بالشعر الغرامى المهلهل وحده مجازاةً لشعراء التروبادور .

وظهر دانتي أليجييري Dante Alighieri في أواخر القرن التاسع عشر فكسفت عبقريته كل شاعرية قبله دون استثناء شعراء المدرسة البروفنسية ، وانقضى بتألقه عهدُ التهافت على أساطير القرون الوسطى . وشاعريته المتصوفة الغرامية مثل وقصته مع بياترس مشهورة ، ومثلها شهرة « مهزلة الإلهية » Divina Comedia التي يُظن أن دانتي اعتمد في تأليفها على بعض المصادر الإسلامية كرسالة الغفران للمعري وبعض سُور القرآن الشريف وكتاب الفتوحات المكّية لمحي الدين بن العربي وذلك عن طريق الدراسات الإسلامية في إسبانيا ، وكان دانتي نفسه واسع الاطلاع فاستوعب الكثير من الثقافة الإسلامية ، ولكن هذا التأثير بالأدب الإسلامي كان من ناحية الموضوع ومن جهة بعض التناول والتنظيم الفني لا كله ، فليس بالذى ينتقص من قدر ملحمة الشعرية العظيمة . وفضل آخر لدانتي أنه ألف (المهزلة الآهية) باللهجة التسكانية في الوقت الذي كانت اللاتينية لغة أهل العلم والثقافة ، فساعد دانتي بذلك على تحرير الأدب من ربة القديم وصارت للهجة التسكانية مكانةً أرفع من ذي قبل ، وقد أودعها أعظم أثر أدبي وأكبر ملحمة شعرية وأروع ديوان رمزي في ذلك الأوان .

ثم جاء بترارك Petrarch فكان علم الأدب الإيطالي المفرد ، وكان عبقريته طاملاً هامماً في البعث الأدبي بأوروبا ، وكانت ولا تزال لسونيتاته الغرامية منزلة سامية بين الشعر العاطفي الصادق وبين الفن الأدبي الجميل ، وقد نسج على منوالها كثيرون في مقدمتهم شاعر الطبيعة الانجليزي وليم وردزورث

William Wordsworth ، واشتهر بوكاتشيو Boccaccio بقصصه كما اشتهر ميكافيلي بسياسته وبكتابه (الأمير) وكما اشتهر بنفوتو سيليني Benvenuto Cellini بترجمة سيرته ، وهكذا لا يتجلى الشعر الإيطالي كثيراً بجانب النثر . وقد مات بترارك باعث الريناسنس الأدبي الإيطالي في سنة ١٣٧٤ ، ومضى القرن الخامس عشر تهيئةً للحدث الأدبي العظيم المنتظر وهو العصر الذهبي الذي يمثلّه القرن السادس عشر وفيه ظهر الأديبان أريستو Ariosto ثم تاشو Tasso الى أن أصيبت إيطاليا بالاضمحلال السياسي فاضمحلت معه آدابها ، حتى اذا ما بلغنا القرن التاسع عشر تجلّى من الشعراء ألفييري Alfieri وليوباردي Leopardi العظيم ، والآن يهزّ عالم الشعر والسياسة معاً دانزيو D'Annunzio الذي كأنما هو مزيجٌ في روحه الشعرية من أبي نواس وابن الفارض لشهوانيته وتصوّفه ، مؤذناً بنفوذهِ وإيحائه بتطورٍ بالغٍ في الشعر الإيطالي يناسب إيطاليا الجديدة .

(١٩٢٠)

مزايا الادب البولاندى

ظهر في لندن أثناء الحرب عددٌ من الأدباء البولانديين ، وقد أُتيحت لي فرصٌ للاجتماع ببعضهم ، فخبّني ذلك في الاطلاع على الادب البولاندى .

لم يكن الادب البولاندى في أول نشأته ذا مزايا خاصة ، وكان الشعر والنثر على السواء مقصورين على الأناشيد الدينية أو الحماسية كما كان الحال في الممالك الأخرى في خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكان التأليف باللغة البولاندية نفسها قليلاً إذ كانت للغة اللاتينية الصدارة حتى بعد تأسيس جامعة كراكو وبعد إنشاء الطباعة في أواخر القرن الخامس عشر .

ولكن بظهور القرن السادس عشر وبالاقتراب من عصر النهضة أخذت التأليف البولاندية اللغة تزداد كما شرع المؤلفون يهتمون بالقصص الأملية في ذلك الوقت وفي مقدمتها الأساطير التي تحوم حول سير اسكندر المقدوني وحكايات إيسوب وأمثالها ، فضلاً عن أناشيد عيد الميلاد ونحوها . ولعلّ

أهمها كتاب تاريخ العالم لمارتن بيلسكى Martin Bielski الذى اشتهر كذلك بكتابه الأخرافية التهكمية ، وقد بزغ أدبه فى منتصف القرن العادس عشر .

ثم جاء عصرُ الأخرافاء أو الريناسنس وما زال للغة اللاتينية القدرُ المعلنى ، وانما نسامتُ التأليفُ فتناولت النقدَ اللاذعَ وفلسفةَ المجتمع وتاريخَ بولاندا ، وظهر الشاعرُ المعبقرى نيقولاس ريج Nicholas Rej فأبدعَ فى دواوين شعره التى صورَ بها المثاليةَ الانسانيةَ التى يشتهبها وفى مقدمتها ديوانه (المرأة) ، وأشهرُ منه الشاعرُ جان كوتشانوسكى Jan Kochanowski وقد أبدعَ فى الشعر السببسى وفى الشعر الدينى أيضاً ، ثم الشاعرُ زارزنسكى Nicholas Sep Szarzynski الذى أدخل السونيتة فى الشعر البولاندى . وكما ارتفع الشعر البولاندى فى القرن السادس عشر - الذى وُسمَ عن حقِّه « بالعصر الذهبى » - ارتفع أيضاً النثرُ وإن انصرف الى النقاش الدينى غالباً .

وفى القرن السابع عشر - حيث تكثرت الحروبُ - نجد الملاحمَ الحربيةَ هى أنفسُ الشعرِ الوطنى . وفى طليعة شعراء ذلك العهد بوتوكى Waclaw Potocki الذى صورَ أبدعَ تصويرَ انتصار البولانديين على الأتراك فى حروبهم ، ولا يجوز أن ننسى الشاعر الفكه اللاذع لوكاس أبالنسكى Lucas Opalinski الذى له - الى جانب شعره السببسى القوي - كتابات نقدية سياسية بليغة فضلاً عن بحثه فى فن الشعر ، وليس أقل منه بل ربما فاقه فى فنه الشاعر فسباسيان كوتشوسكى Vespasian Kochowski ، وقد اشترك نفسه فى الحروب البولاندية ولذلك استطاع أن يصف هذه الحروب فى ملاحم طويلة رائعة تعدّ من مزايا الأدب البولاندى ومفاخره ، كما أن ديوانه (ترانيم بولاندية) من نفائس الأدب الباقية وقد ترجم فيها لسيرته العاطفية . كذلك يهمننا الشاعر الميريكى الجذاب أندرو مورسزتين Andre Morsztyn وقد نقل الى البولاندية من روائع كورنيل ومارينى وتاسو فأفاد بذلك أدب لغته من الآداب الفرنسية والإيطالية .

وفى أناشيد الرعاة التى نظمها الشاعرُ جوزيف بارثوليمو Joseph Bartholomew صورَ صورةً جميلةً جذابةً للحياة البولاندية فى المدينة وفى الريف بخيرها وشرها ، كما أن للشاعر الغنائى سيمون زيمروكى Simon Zimorowicz

الذى مات قبل الأوان في الحادية والعشرين مئةً ليريكية في شعر الحبّ
تزدهى بها أية لغة .

وقد تألّق في سماء الأدب البولوندى من أعلام النثر في ذلك الحين
سيمون ستارولسكى Simon Starowolski الذى اشتهر بانتاجه الخصب الوفير
باللغة اللاتينية خاصة ، والكونت مكسميليان فردرو Count Maximilian
Fredro الذى اشتهر بأمثاله الأدبية وحكمه ، وجون پاسك John Pask
أشهر الأدباء البولونديين في كتابة المذكرات .

ثم جاء عهد الانحطاط السياسى من أواخر القرن السابع عشر الى ما بعد
منتصف القرن الثامن عشر فاضمحلّ الأدب القومى معه ، حتى جاء بعد ذلك
حكّم الملك بونياتوسكى Poniatowski آخر ملوك بولاندا فترعرع الأدب
من جديد في عهده ، وكان أدباً وطنياً قوياً قوامه الخوف على مصير الوطن
مع النقد اللاذع الذى اشتهر في أوروبا عامة حينئذ . وأبرز مثال لذلك
الشاعر كراسيكي Ignatius Krasicki الذى اشتهر بهزلياته النقدية للسياسة
والاجتماع ، ومن أهمها ملحمة الحماسية الهزلية الموسومة Myszeis عمّا
رمز اليه بالمعركة بين القطط والفيران ، كما أنه في نثره القصصى البارع نقد
الطبقة الأرستقراطية في بلاده أشدّ النقد ، وتعدّ هزلياته النقدية جملة
أبرع الأدب الكلاسيكى البولوندى في القرن الثامن عشر ، كما تعدّ أساطيره
في الذروة حتى نُعتت بلافوتين بولاندا . وكان للشاعر الناقد الساخر
وجيرسكى Wegierski أثر بارز في نقل الأدب الفرنسى الى البولاندية .
واشتهر الأب هيوجو كلاتاج Hugo Kollataj كصحفى وسياسى بل وفيلسوف
أيضاً وكان عمدة النافرين في القرن الثامن عشر . وتأثر بادلاب الفرنسى الكتاب
المسرحيون في ذلك القرن ، وبعد تأسيس مسرح وارسو ازدهر فنّ التمثيل
وظهر الأدب المسرحى البولوندى في قوته خصوصاً في الهزليات الساخرة
التي كان يُرعى بها الى الاصلاح الاجتماعى ومن أهمها رواية (عودة النائب)
للأديب المسرحى الكبير نيمسوكز Niemcewicz .

أمّا عن القرن التاسع عشر فهو عصر الرومانطيقية ، وكان لجامعة فلنا
أثر ثقافى عظيم ، ومن صفوف تلاميذها نبغ الشاعر العبقرى ميكويوكز
Mickiewicz ونشأت في وارسو جمعية أشبه بجمعية (إخوان الصفا) الشرقية

المشهورة وهي الجمعية المعروفة باسم (جمعية أصدقاء الثقافة) وذلك في سنة ١٨٠٠ ، فأخرجت تآليف قيمة من بينها معجم اللغة البولندية . وكانت وارسو بمثابة مركز للثقافة الكلاسيكية ومصدر النور الأسمى لأهل الوطنية . ومن إشعاعها ظهر الشاعر الناقد كوزميان Kajetan Kozmian والاسقف ورنكز Woronicz الذى استخرج من تاريخ بولاندا قصيدة فلسفية متفائلة باسم « سييلا » وذلك تنشيطاً للهمم والعزائم ، وفي ذلك العهد ظهرت أيضاً مدام كلمنتينا هُفمان التى أخرجت من القصص البولندية ما تُعَدُّ الى الآن في مقدمة النماذج الكلاسيكية . ومع أن بولندا خسرت سياسياً بتقسيمها فقد استفادت أدبياً من الاحتكاك بالفرنسيين وغيرهم . ومن أمثلة ذلك ظهور الكونت ألكسندر فردرو Count Alexander Fridro الذى حارب مع الفرنسيين وشاهد قصص مولير وغيره في باريس فنجح في كوميدياته التى ألفها على غرار الكوميديات الفرنسية . ويُعَدُّ آدم ميكويكز Adam Mickiewicz زعيم الأدب الرومانطيقى ، فقد كان شاعراً عظيماً بابداعه وجراوته التجديدية ، ولو أن مسلواكى Slowacki الذى كان متأثراً ببيرون (وخصوصاً بملحمته تشايلد هارولد) معدوداً منافساً له في الروح الرومانطيقية . وقد عُنِيَ الأخير بصفة خاصة بذلك النوع من التأليف القصصى الذى فيه عزاء وطنى للبولنديين المنفيين والمغتربين . وكان بارعاً في دراماته التى تتلمذ فيها على شكسبير وعلى فكتور هوجو متناولاً جوانب التاريخ البولندى وأحوال أبناء وطنه في بلادهم وفي منفاهم وقد اختلط بالجميع ، كما كانت له فلسفة قريبة الى فلسفة النشوء والارتقاء . ويُعَدُّ قريناً لهذين الأديبين الكسبيرين الأديبُ النابغة كراسنمكى Zygmunt Krasinski الذى كان أكثر ما يشغله الاهتمام بالنورة الاجتماعية وقد حللها في روايته المشهورة (الكوميديا غير الآلهية) كما ألف درامة أخرى باسم (إيريديون) موضوعها ثورة الاغريق ضد الامبراطورية الرومانية في القرن الثانى للميلاد ، وقد أدمج في الرواية بأسلوب فلسفى إيحائى خواطره عن أسباب شقاء بولاندا . وله من الشعر الوطنى العزائى أو الايحائى قصيدته (ترنيمة المستقبل) وملحمة (الفجر) .

ومن آثار الشقاء الوطنى في الأدب نبوغُ الأديب الكبير تويانسكى Andrzej Towianski وقد كان له في مهجره نفوذ عظيم على شعراء بولاندا

الرومانطيين ، وُلد في نهاية القرن الثامن عشر وعاش حتى سنة ١٨٧٨ ، وكانت طريقته مزج التصوف الدينى بالتصوف الوطنى خالقاً من ذلك مذهباً وطنياً دينياً وواضعاً بولاندا بين الأمم وضع المسيح بين مضطهديه !

ويعتدُّ الفيلسوف الألماني هيجل Hegel أستاذاً فى التفكير الفلسفى لكراسنسى وأضرا به من المفكرين ، وفى مقدمتهم الفيلسوف سيزكوسكى Ciezkowski كما يُعدُّ يرون أستاذاً لكثيرين من الشعراء الأكرانيين ومنهم من نظم سيرته عربوناً للاعجاب به مثل أنطونى ملكزوسكى Antoni Malczewski

ومن الشعراء البارزين فى وصف الطبيعة البولاندية بوهدان زالسى Joseph Bohdan Zaleski وقد جمع فى شعره الليريكى العذب بين الأخيلة الرومانطيقية وبين الترويح عن آلام بولاندا ، ناسباً هذه الآلام فى أسلوب فلسفى الى أخطائها السابقة . ومن أضرا به فى الاشادة بحمال الريف البولاندى وتحبيب الوطن الى أهليه تيوفيل لنارتوكز Teofil Lenartowicz ورونسنتى پول Wincenty Pol وكوندرا توكز Kondratowicz

ولم يكن أدباء بولاندا رجال أمان وأحلام فحسب بل كثيرون منهم امتشقوا الحسام فى الثورات الوطنية وما توارمته الأبطال كالشاعر ميكزسلا رومانوسكى Mieczyslaw Romanowski الذى قُتِلَ نائراً فى سنة ١٨٦٣ ، وقلَّ بينهم من تخلى عن جهاده كالأديب القصصى ميكائيل زاجكوسكى الذى بدأ حياته الوطنية نائراً ثم ختمها باعتراف الاسلام وصار قائداً فى الجيش التركى .

وبظهور الأديب كراسوسكى Ignatius Kraszewski أخذ الأدب البولاندى يتدرج من الرومانطيقية الى الواقعية . وقد ألَّفَ زهاء خمسمائة كتاب فى التاريخ والقصص والنقد والأدب العام حتى شُبِّهَ لرواياته التاريخية بالسير ولتر سكوت . ويُعدُّ فشل الثورة البولاندية الثانية فى سنة ١٨٦٣ السبب الأقوى فى تحوُّل الأدباء نحو الأدب الواقعى . وكان لتقدم الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والعلمية فى غربى أوروبا أثرٌ فعالٌ فى هذا التحوُّل أيضاً فأخذ الكتاب والشعراء والقصصيون يدعون الى الإصلاح الاجتماعى والصحى والثقافى

لطبقات الأمة ، وفي مقدمة هؤلاء الشاعر آدم أسنيك Adam Asnyk الذي أسس « جمعية مدرسة الشعب » لمثل هذه الأغراض ، والشاعرة ماري كونوبنيكا Marie Konopnicka التي كانت كلها عطف على الفقراء في قصصها وقصائدها وعلى المهاجرين البولنديين في ظلمات البرازيل . ومن الأعلام البارزين في ذلك الوقت الصحفية الحرّة الجريئة مدام إليزا أرسزكو Madame Eliza Orzeszko و ألكسندر جلوسكي Alexander Glowacki الذي يشبه ديكنز في الكثير من قصصه الاجتماعية الإصلاحية ، وهنريك سينكيوكز Henryk Sienkiewicz مؤلف « كوفادس » الشهيرة وقدمات منذ أربع سنوات ، وأدولف ديجاسنسكي Adolf Dygasinski تلميذ زولا والقصصى الحادب على ازارعين العائين في بولاندا الروسية وسزجسكي Szujski الذي اشتهر ببحوثه الأدبية التاريخية وأحد مؤسسي « مدرسة كراكو » من الأدباء المؤرخين ، وسيمون أسكنازي Simon Askenazy الذي عُنِيَ بجهود بولاندا في سبيل الحرية خاصة ، وأخيراً الكونت تارنوسكي Count Tarnowski رئيس الأكاديمية البولندية وقدمات منذ ثلاث سنين فقط ، وبيتر كميلوسكي Peter Chmielowski وألكسندر بركنر Aleksander Brückner ثم المدارس الأدبية الحديثة وفي مقدمتها أدباء الشباب وقد أخذوا بتقوية كل جانب من جوانب الحياة البولندية .

والخلاصة أن مزايا الأدب البولندي صدقُ تعابيره عن آماني أمة مضطهدة ثم عن ثورتها في سبيل الحرية ، فهو أدب تأميل ثم أدب علاج متفاعل غالباً تفاعلاً قوياً بحميوية أصيلة مع الآداب اللاتينية .

(١٩٢٠)



الجمال الاغريقي

لما زرتُ أثينا منذ عشر سنين كنتُ أنظر الى البارثينون نظرة الإعجاب بما فيه من التناسب قبل زخارفه الجميلة لأنّ هذا التناسب الرقيق معدومٌ في الواقع من معظم الآثار المصرية ، فقد ترى هياكلنا رائعة بضخامتها فقط لا بالانسجام المقبول في زخارفها ، والهياكل المصرية عادة طويلة بالنسبة

لارتفاعها كما أن فتحاتها قليلةٌ بالنسبة لحيطانها . وبعكس الهيكل الفرعوني نجد الكنيسة الخُوطية فان فتحاتها أكثر من مبانيها . وأمّا المعابد الاغريقية فهي الوسطُ الفنّي المقبول بين هذين النقيضين .

ولأمرٍ ما كنتُ أقارنُ بين المرأة اليونانية الرشيدة الجميلة كأنها فينوس الجديدة والى جانبها البارثينون ، وبين المرأة المصرية البدنية والى جانبها معبد الكرنك ! وخيّل إليّ أن طبيعة المرأة هي التي توحى إلى الفنان طبيعة الأعمال الفنية المقبولة في زمنه ، ثم خيّل إليّ أنه لو تطوّر الذوقُ المصري وأصبحت المرأةُ المصريةُ أقربَ إلى « الغلاميات » الأوروبيات الشائعات الآن بعد الحرب بفضل الرياضة البدنية ومزاولة المهن العامة لكان لهذا التطوّر ردُّ فعلٍ في الفن المصري ولتخلّصني عن الضخامة التي عُرفَ بها سابقاً . وهذه المناسبة أتمنى لو عُني أبناء وطني بزيارة بلاد اليونان للاصطياف والدراسة الفنية فهي أهلٌ حقاً لهذه العناية ، وإن الجمال اليوناني وحده - وقلّ ما نشاهده في مصر - ليستأهل هذا الحج السنوي إلى جنانه وهياكله ! وليست مياهُ النيل وحدها هي التي تثير الحنين إلى معاودة الارتشاف منها ، إذ لولا الأثر الوجداني الحيّ في نفسى والشوق إلى ربوع البارثينون والأكروبول لما جرى القلمُ بهذه السطور .

ومن العجيب أن الفنّ المصري احتكّ في وقتٍ ما بالفنّ الاغريقي ومع ذلك بقي محافظاً على تقاليدِهِ وقبوده ، على أنه ليس في الأمر عجبٌ من ناحية أخرى إذا ما تذكرنا أن تكييف الفنّ يتمّ طوعاً المزاج الشخصي والقوى .

ولعلّ أفلاطون هو المعبّرُ الأقوى عن روح الجمال عند الاغريق من حيث شغفهم باقتباسه من الطبيعة ، كما نجد في الكتاب العاشر من جمهوريته ، وإن تقدير الجمال الطبيعي له أثر في حسن السلوك . وفي ما يقرب من هذا المعنى يقول شكسبير « إن الحبّ في يفوعته أصغر من أن يعرف ما هو الضمير ، ولكن من ذا الذي لا يعرف أن الضميرَ وليدُ الحبّ ؟ » :

Love is too young to know what conscience is ;

Yet who knows not , conscience is born of love ?

وتندرج هذه النظرةُ الافلاطونية عند الفيلسوف كانت الى أن إبداع

الجمال وتقديره أعراض^١ (symptoms) لحالة خلقية رفيعة ، وبعبارة أخرى أن فرط الاحساس بالجمال الطبيعي وبالجمال الرفيع يشمل أو يكفى عن قابلية التأثير بالمبادئ الخلقية ، وهذه الفكرة يعتنقها كذلك رسكن في معالجته الخلقية للفن^٢ (أنظر كتابه « الرسَّامون المعاصرون » - Modern Painters) . على أن الاحساس بالجمال وتقديره (وما يتبع ذلك من التقدير الخلقى) ليس معناه التطبيق الخلقى العُرفي ، بل في الواقع نجد أن أخلاق الفنَّانين كثيراً ما تُعاب ، كما أن سكان المناطق الجميلة في طبيعتها ليسوا أكرم أخلاقاً من وجهة عملية من سواهم بل ربما حدث العكس . وهل نشأ الأوروبول نتيجة تقديرٍ للجمال أم نتيجة عبوديةٍ للحكام ؟

إنَّ الجمال الاغريقي فيَّاضٌ بالتعبير سواء أكان هذا الجمالُ آدمياً أم في عمل من الأعمال الفنية دون استثناء الموسيقى والرقص ، حتى قال الشاعر بيرون وهو تلميذ الثقافة الاغريقية « إنَّ الجبالَ السامقة إحساسٌ » high mountains are a feeling ، ويظهر أنَّ الاغريق كانوا ينظرون الى كل ما حولهم من مشاهد الطبيعة هذه النظرة الشعرية العميقة ففُتسروا بالجمال الطبيعي في حياتهم وفي إنتاجهم الفني ، ولئن وُصِف بعضهم بالقوة فهي من قسوة الطبيعة التي لها جمالها على أيِّ حالٍ في مناسباتها الخاصة - مناسبات الثورة والعاصفة . والمقياس الخلقى يختلف في شتى البيئات ، ولكن المهم هو الروح الخلقى من سماحة وأريحية . أمَّا الخلقُ الديني في ذاته فليس ثابتاً نظراً لاختلاف التعاليم الدينية وتناقضها في الشعوب المختلفة ، وإذن فرجع المبادئ الخلقية التي تمشي مع الاحساس بالجمال إلى إنسانيتها أو إلى اندماجها التصوّفي في الطبيعة .

وفي كثير من الآثار الاغريقية من خزفٍ وصوَرٍ أظهرتها الحفرياتُ (كالأثار الميسينية) نجد النقوش غالباً للتنباتات والحيوانات وعلى الأخص للأحياء البحرية ، وهذا من مظاهر الاندماج في الطبيعة ، كما أن الطبيعة نفسها قد اندمجت في التكوين الانساني فاذا بالمرأة المعدودة رمز الجمال شامخة بالعرّة كما تشمخ جبال اليونان ، رشيقة كرشاقتها ، طاهرة الروح كأزهارها العسليّة التي تغنى بها الشعراء من قديم . وقد اندثر مجد يونان الغابرة

وما اندثرت روحها الجميلة التي لا تزال ترفّ على هضابها وخلقجانها وبنابيعها
ومزارعها وإنسانها وحيوانها . وكما أن الثقافة الاغريقية مُستَمَدَّةٌ للأدب
والفنون الحديثة ، فكذلك الجمال الاغريقي الأثري والمعاصر توأمٌ هذه
الثقافة ، وهو حريٌّ بأن يُقدَّرَ وُيَمَّجَدَ من ذوى الألباب .

(١٩٢٠)

❦

مع أناتول فرانس

يتطوّر الأدبُ الفرنسيُّ بعد الحرب كما تتطوّر الآدابُ الأخرى نحو
أذواق جديدة تحت راية جيل جديد ، ولكن الأعلام المبرزين لا يمكن
نسيانهم مهما تقلّبت الظروف . وفي طليعة هؤلاء أديب فرنسا الأكبر
أناتول فرانس ، فإنّ ما انتابه من شيخوخة لم يؤثر مطلقاً على صيته الناضر
ومكانته الأدبية في أمته بل في عالم الأدب .

ولقد بدأ أناتول فرانس (أو أناتول ثيبولت كما هو اسمه الأصيل)
حياته الأدبية ناقداً صغيراً من أشياع المذهب التأثري impressionism مشغولاً
بالبحوث الأدبية ثم انتهى في كتاباته الأخيرة الى نزعة اشتراكية والى
الدعاية للسلام العالمى والى اعتناق الأدب الأنسانى الصّرف .

والحقُّ أنّ أناتول فرانس خصبٌ الإنتاج منوّعٌ ، وهو إن لم يكن
بطبيعته راغباً فى التّأليف قدرَ رغبته فى المطالعة التى ورثها عن والده
المؤلف الأديب بائع الكتب ، وعن والدته التى طالما كانت تُتَحَفِّة فى طفولته
بقراءة (سِير القديّمين) له ، إلاّ أنّ صُحْبَتَه لمدام أرمان دى كيلافيه
Madame Arman de Caillavet أفادته أجزلَ الفوائد إذ أنّها — وهى
صديقةٌ حياتية — مبعثُ الكثير من نشاطه الأدبى فى عمره الطويل وقد
اعترف بذلك فى إهداء درامته الاشتراكية الباريزية Crainquebille اليها منذ
سنة عشر عاماً .

وهنى أديبنا الكبير فى شبابه بالشعر فأخرج ديوان (الأشعار
الذهبية) Le poèmes dorés سنة ١٨٧٥ وأتبعه فى السنة التالية بدرامته

الشعرية المسماة (العرس الكورنثي) Le nocces corinthiennes فأثبتت تذوقه الفنى للشعر الجميل ، وما تزال هذه الحاسة الفنية المرهفة ملازمة له فى جميع تأليفه النثرية ، وكأنَّ عليها مسحة شعرية وإن كان قد ترك نظم الشعر منذ أمدٍ بعيدٍ .

لم يكن أناتول فرانس حتى سنة ١٩٠٠ أى فى السادسة والخمسين من عمره على نحو تفكيره الفلسفى الحاضر ، بل كان من المتشككين أو اللادريين فى نظراته الدينية وفى نظراته الى المجتمع ، ثم أخذت آراؤه تتطور فى هذه السن المتقدمة نحو الاشتراكية نافضاً عنه غبار الرجعية الآ فى أسلوبه الكلاسيكى . وهو معدود الآن خصماً للكنيسة وخصماً للحكومة الرأسمالية وبشيراً بثورة اجتماعية مصلحة .

ومهما تكن ميول القارئ المثقف فانه غالباً ان يسأم من أناتول فرانس ، لأن أسلوبه الفنى الساحر طاردٌ للسأم ، فهو أسلوبٌ مدرسى صافٍ يصح أن يُعدَّ مع ذلك من السهل الممتنع مع رشاقة ومرونة تمكنه من التعبير السائغ عن أدق المعانى وأعمق الخواطر الى درجة لم يبرها أديبٌ معاصرٌ ، وعلى قدر تبيُّنى لجمال الأسلوب الفرنسى المترجم وللطافة النفس وحدّة الذكاء لانزاع عندى فى أنه يتفوق أيضاً على بوالو الأستاذ القديم للأدب الكلاسيكى الفرنسى . ولكل منا الحق فى أن ينكر الأدب القديم أو لا ينكره ، ولكن القارئ المتذوق النصف لا يستطيع أن يجحد التذوق الفنى والانتاج الفنى قديماً كان أم حديثاً ، ولا شك فى أن أديبنا العبقرى هو فى الذروة من هذه الناحية .

ومع أنَّهُ قد بدأ حياته مستمعا الى سسير القديسين فانه لم يُرض أنصار القديسين فيما بعد حينما كتب تاريخ حياة جان دارك بعقلىة الرجل المفكر غير الروحانى .

ويعدّ كثيرون أهمّ مؤلفاته القصصية روايته المشهورة (جريمة سلفستر بونار) مع أنها أولى قصصه ، وقد ألفها سنة ١٨٨١ وله من العمر سبع وثلاثون سنة . وليس بونار فى الرواية سوى شخصية أناتول فرانس نفسه ، وقد ترجم فيها لعواطفه وتفكيره . ولأديبنا الكبير أربعة مجاميع من الأقاصيص الطريفة

أصدرها ما بين سنة ١٨٨٩ وسنة ١٩٠١ ، كما له من الروايات الرائعة قصة (تاييس) التي تصف الصراعَ بين امرأة خليعة وبين راهب في الصحراء ينصحها بأن تتخلى عن ملذات الدنيا وتعتزل في دير ، ولكن الشيطان يهاجمه في الصحراء فيقع أسيراً لجمالها ، وفي محاولته إنقاذ نفسها يفقد نفسه ! وفي هذه الرواية وصفٌ بديعٌ لحياة الزُهَّاد في الصحراء الإفريقية ، ووصفٌ للفساد المستشري بمدينة الإسكندرية في القرن الرابع للمسيح .

والقصةُ مليئةٌ بالسَّخرية اللاذعة وبالفكاهة الدقيقة وبالخواطر الرائعة ناهجاً في تأملاته الانسانية نهجَ أساتذته مونتين وفولتير وريزان . وهو في أدبه الواقعي يُصوِّر لنا حقائقَ الحياةِ بخيرها وشرّها بعد أن يُضفي عليها من فنِّه الرائع الذي يستشف صميمها . ولا تقوم أقاصيصُه ورواياته في الواقع على شيء من العُقد والمؤامرت والمفاجآت المعهودة ، وإنما هي أساليب حوارية في الغالب للتعبير عن آرائه في صورة مشوّقة . فهو قبل كل شيء أديبٌ ناقدٌ اعتبر النقدَ أسمى فنون الأدب ، فتوفّر على إتقانه .

ومن أبرع مؤلّفاته سلسلة كتبه الموسومة *Histoire Contemporaine* ومن أظهر آرائه الفلسفية فيها إيمانه بأنّ جميع المصائب والشقاوات في هذه الدنيا تنجم عن خواطرنا وليست ناشئة عن حقائق طبيعية أو خارجية . وهو في هذه السلسلة ينهج بأسلوبه التهكمي نهجَ المصلح الاجتماعي . ومعروفٌ أن أناتول فرانس اهتمّ الى جانب زولا اهتماماً عظيماً بقضية دريفوس ونصبَ نفسه لتحقيق العدالة وإنقاذ المنهبون المضطهد ، وهو في درامته *Crainquebille* السالفة الذكر واضحُ الظهور بمظهر المصلح الاجتماعي الذي يبحث عن علل الفقر والبؤس ليداويها ويهتم بخير الناس وفلاحهم وسعادتهم .

وكما بدأ ليمتد حياته الأدبية في زُمرّة البارناسيين كذلك فعلَ أناتول فرانس ، ثم نهجَ نهجَ التحليل العاطفي في قصصه والتحليل النقدي المستوعب في دراساته ، خالقاً لنا خواطر ومبادئ اجتماعية من مقالاته النقدية ، ثم أفرغ أعظم قواه في خدمة المعاني الانسانية في كتاباته المتنوعة المتعددة ، وكل ذلك بأسلوب هو آيةٌ في الفصاحة والبيان الناصع والنكتة البارة والسخرية العجيبة ، فلا بدع اذا اعترّ به الأدب الفرنسي الحديث وإنّ قال قائلٌ إنه حامى الأدب القديم .

جورج مردث

تنقسم مواهب مردث الشاعر القصصى البارع ثلاثُ أمم : فهو غالى من ناحية والده ، وإرلندى من ناحية أمته ، ثم أنه مدينٌ لألمانيا بثقافته الأولى حيث بقي في ربوعها من الثالثة على أثر وفاة والدته حتى بلغ السادسة عشرة ، وكان لذلك أثر عميق في نفسه التي استوعبت غير قليل من النزعة الفنية الألمانية في الموسيقى والشعر ، إذ نجدُهُ إلى جانب ليريكته مركزاً للأسلوب مشتبك المعانى ، ونرى أثرَ عنصره بارزاً في رومانطيقته وفي تقديسه للمثاليات وفي فنّه التأثرى (impressionist) وفي شخصيته المزدوجة التي تميل من ناحية إلى الجوانب العملية العقلية في الحياة (ولعل هذا هو أثر الدم الغالى في تكوينه) وتميل من ناحية أخرى إلى التأمّل الوجدانى وإلى الوثبات الشعرية (شأن المزاج الارلندى) . ولكن أثر ألمانيا في نفسه لم يتعدّ الناحية الثقافية ، أما من الناحية الخلقية فقد كان إعجابه منصرفاً إلى فرنسا ، وقد خصّ بطولتها بأناشيده النابوليونية .

اشتهر مردث بقصصه وهي في غنى عن التنويه بها . أمّا شعره فقلما يُعنى به مع أنه ثروة موسيقية تتعالى على التقليد ، وقد وصف النقّاد شعره بأنه ليريكية فلسفية ، وأنه كثيرٌ للكثير من تفكيره . خذْ على سبيل المثال هذه المقطوعة الموسومة (قبر الحب) :

Love's Grave

Mark where the pressing wind shoots javelin—like,
Its skeleton shadow on the broad—back'd wave !
Here is a fitting spot to dig Love's grave ;
Here where the ponderous breakers plunge and strike,
And dart their hissing tongues high up the sand :
In hearing of the ocean, and in sight
Of those ribb'd wind—streaks running into white.
If I the death of Love had deeply plann'd,
I never could have made it half so sure,

As by the unblest kisses which upbraid
The full—waked sense ; or failing that, degrade !
'Tis morning : but no morning can restore
What we have forfeited. I see no sin :
The wrong is mix'd. In tragic life, God wot,
No villain need be ! Passions spin the plot :
We are betrayed by what is false within .

فالى جانب ما فى هذا الشعر من البراعة التنظيمية تلاحظ نزعته السيكولوجية فى التحليل ، وما فى هذا الشعر من تركيز المعانى ، ومن الشغف بدراسة الانسان ، وهى الدراسة العليا فى نظره . وكما أنه يقدر للتغم الموحى أثره فى النظم فهو بمزاجه الثقافى يُعنى كذلك بالكلمات الرمزية التى تسكن إليها نفسه الرومانطيقية . هو شاعر ميتافيزيقى الى حدٍ غير قليل . ك شعراء القرن السابع عشر ، ولكنه كذلك مفكر اجتماعى يؤمن بالعلم والمعرفة وحقائق الحياة الواقعية ، ومن هذا التناقض يخلق مزيجاً عجيباً لعناصر شاعريته التى بدأت تشتعل وهو فى الحادية والعشرين فكان يوافى المجلات بشعره كما كان يرتزق من الاشتغال بالصحافة ، ولا أدل على مكانته الذهنية من تعلّقه وهو فى هذه السن المبكرة ببيئة الراديكاليين (المتطرفين) العقليين فى لندن ومن أشهرهم فردريك هاريسون والأميرال ماكس وجون مورلى ، وقد عاش مدة قنوعاً بهذه الأقلية من المفكرين الراجحين ، حتى فى الوقت الذى كان يخرج أهم قصصه . ولكن هذه الصداقة الفكرية أتاحت له فرصاً للتعاون الأدبى مع أفضل الناشرين ومع مجلة (الفورتنيتلى ريفيو) وربطته بخير العلاقات مع الأدباء الذين كانوا يلجؤون الى مؤازرته وفى مقدمتهم توماس هاردى وجورج جسنج .

بيد أنه من الحق المؤلم أن ميردث لم يُقدّر التقدير الواجب عند الخاصة إلا حين بلوغه السبعين حينما انتخب رئيساً لنادى المؤلفين ، وعند الجمهور لم يقدر أدبه إلا بعد وفاته ، وهى العادة التى تجسرى فى كثير من الأمم المحافظة وفى مقدمتها إنجلترا فى معظم الأحوال ، ولو أن الحرب قد بدت الكثير من هذه الروح . وهو فى قصصه المحبوبة يرمى أساسياً الى دراسة الشخصيات ، وله براعة خاصة فى تصوير الشخصيات النسائية بما لا يقل عن

براعة شكسبير نفسه . وقد كان مِرِدْث يؤثر من هذه القصص روايته (سيرة بيوكامب — Beauchamp's Career) التي ترمز شخصية البطل فيها الى صديقه الاميرال ماكس ، وهي قصة غنية بحوادثها وموضوعاتها كما هي غنية بديباجتها وجمالها التحليلي للعواطف وللشخصيات . ومن أهم قصصه بلا شك رواية (الأناي — The Egoist) وهي تحوم حول فكرة أن الرجل المجرد من روح المرح في حُكْم الميت . وأسلوبه في هذه الرواية معقدٌ بالنسبة لذوق الجمهور الذي يريد الأسلوب الروائي المؤلف لمحض التسلية ، ولكنه أسلوبٌ يرتضيه القارئ المثقف الذي يعنيه موضوعها النفساني التحليلي البديع وقوتها الدرامية الانسانية .

وأعودُ الى شعره الفلسفي الدَّيْم الذي مع ذلك لم يُجانب الموسيقى النظامية (وقد كانت أكبر شاغل لصديقه سونبرن) فأقول إنَّ غموضه الذي يشبه الغموضَ في شعر بروننج بسبب وثبات التفكير فيه بغير تمهيد أو تدرُّج ليس مما يبرّر للمتأدِّب عدمَ الاكباب على ينبوعه الفوار . ولم يَحُلْ نثره أيضاً من هذه الصبغة حتى في قصصه ، ولكنها أظهرُ ما تكون في شعره ، حتى اذا ما تعودنا القارئ استساغها فيما بعد كما يستسيغ أسلوبه التعقُّلي المشاهد والألوان ، السريُّ بكل ما يميز البيان الموهوب من دقائق التصوير كشأن أستاذه كارلايل ورتشاردسن وأساتذته الألمانين الذين ترعرع على أدبهم وأوحوا اليه خاصةً فلسفته النقدية للحياة وإيمانه بوحدة الوجود أو ألوهية الكون ، والى هذه العقيدة يُنسب تفاؤله بألوهية الكون pantheistic optimism كما كانت عقيدة شاعر الطبيعة وردزورث . وكان يدعو الى التعلق بأمنا الأرض كسِّلم لتعلقنا بالوحدة العالمية ، مع حرصه على الدعوة الى السموات فوق المطالب الحيوانية ، وبعبارة أخرى أن يكون الانسان مريد الطبيعة لا عبدها ، وأن يتمشى مع الفصول طائعاً وصيديقاً .

نمو التفكير العالمي

إنَّ مبدأ الجامعة العائلية هو بالذات مَبْدَأُ الجامعة الطائفية ثم الجامعة الوطنية ثم مبدأ الجامعة الانسانية أو العالمية ، فهو قائمٌ على مزيج من الايثار وتبادل المنفعة أو على الأصحّ هو قائمٌ على فكرة أن الايثار ينتهى فى النهاية إلى منفعة ذاتية ولو على أساس التبادل . هذه حقيقة لا يشوّهها إلا المغرضون من أهل التعصب والجهالة .

أمّا وقد انتهت الحرب العالمية المشؤومة فللنتظّر بعد أن تأسّست (عصبة الأمم) أن تكون الأمم أكثر رُشداً وكراميةً للحرب معتبرةً فى الأخوة الانسانية سلامتها جميعاً . نعم من الجائز جداً بعد الدروس القاسية التى مرّت بالعالم فى سنىّ الحرب أن لا تتمحى الحربُ تماماً فى المستقبل لمخالفة ذلك لطباع البشر فى الدّور الحاضر من التطوّر الانسانى سواء من ناحية الطبيعة أو من ناحية تنظيم الاجتماع والحُكم ، ولكنّ لاذراع فى أن الشعوب ستتردّد كثيراً قبل التورّط فى مثل الحرب الكبرى الطاحنة التى قَضَتْ على الكثير من الرجال والمال والجهود النافعة .

لقد تدرّج التفكير العالمى المشترك خطوةً خطوةً وعلى الأخصّ فى القرن التاسع عشر ، وساهم فيه الشرق والغرب بعد أن ازداد تعارفُ الشعوب ثقافياً وفنياً وتجارياً ، فخرجت اليابان من عُزلتها وفتحت الصين أبوابها ، وجاءت الفتوحات العلمية مسويةً بين الشعوب معترفةً بمساهمة الجميع على اختلاف أديانهم وألوانهم ، كما أن صيحة الاشتراكية الماركسية « يا عمّال العالم ، اتحدوا ! » كانت صيحةً للاخاء بين شعوب العالم لأنها موجّهة على كل حال الى الأغلبية فى كلّ أمة ، والآن بعد الحرب الكبرى يحسّ المحاربون السابقون قبل غيرهم بوجوب القضاء على ويلات الحرب قضاءً تاماً ، لا عن طريق (عصبة الأمم) وحدها بل عن طريق نظائرها فى الجمعيات الأُممية الكثيرة ولو كانت علميةً أو أدبيةً أو فنيّةً ، مع العناية بنزع مصانع الأسلحة من أيدي الشركات ووضعها فى أيدي الحكومات ، منعاً للثورات الممهودة لاستغلال الشركات التجارية هذه المصانع فى سبيل

إثارة الحروب إشباعاً لجشعها المادى ، ومع السعى المتواصل لتحديد السلاح ، فقد أثبتت التجاربُ الماضية أن التضخّم في التسلّح لا يمنع الحرب بقدر ما يثيرها ! ومع كلّ هذا فأغلب الظن أن البشرية ستتهيب الى زمنٍ طويلٍ على الأقل المغامرة في الحرب أو على الأقل في أية حربٍ كبرى .

ولسنا نحتاج الى منطقٍ عميقٍ لكي نقدر أن الألفة بين الناس سبيل الصداقة . ، فن الخير الجزيل إنشاء الجماعات المختلطة لتبادل الودّ والثقافة وللتعاون على ما فيه خير البشرية كإعانة الطفولة والأمومة ، ومكافحة الأوبئة وإذاعة المعارف العلمية وتيسير المساهمة الواسعة في المشروعات العمرانية الكبرى الخ . ، حتى يشعر الناسُ في شتّى الأقطار بأنهم جميعاً متآخون في السراء والضراء ، لا أن تحكم الانانيةُ على شعبٍ بعينه أو على امبراطورية بالاستئثار بالخيرات وحرمان غيرها ، فان مثل هذه الانانية في السياسة لانتيجة لها سوى إثارة الأحقاد والتمهيد للحرب والدمار .

وليس لى وأنا أنتسب الى محامٍ كبيرٍ أن أقسو على رجال القانون ، ولكنى لا أغالى في اعتقادي أن شأنهم في الحكم شأنُ أهل الظاهر في الدين ، وأنهم شغفوا بكثيرٍ من السفسة والدسائس السياسية عن الحكم الصحيح الذى يقوم على سَنَدِ الأخصائيين من رجال العلم الذين يفهمون الحاجات الانسانية وأسباب السّلام وأسباب الحرب فهماً عميقاً دقيقاً ، فيعملون على خير الانسانية لا خير مواطنيهم وحدهم ، ويترقون في سبيل ذلك أنسب الأبواب . وهذه العقليةُ ماثلةٌ لدى الولايات المتحدة الى حدٍّ ما ، وإن كان لأصحاب الشركات والرأسمالية نفوذٌ ضارٌ بالجاهير وسيطرةٌ من بعيدٍ على الحكومة .

نعم أعتقدُ باخلاصٍ أن الإيمانَ بمشورةِ رجالِ العلمِ في كلّ فرعٍ من فروع الحكم هو السلوكُ القويمُ لتكوين شعبٍ سليم التفكير سليم البنية على استعدادٍ لقبول أصول التفكير العالمى وتطبيقها تطبيقاً يؤدى الى تعاون الأمم بعضها مع بعض والى إختائها الصادق .

وبينما يَسمحُ رجالُ الحكم من أهل القانون وأشياعهم من أهل الدين باكتثار النسل مثلاً نحمد رجال العلم يحرصون على الدعوة الى ضبط النسل

وحسن اختياره . وكذلك شأنهم في موضوعات التغذية والتربية والرياضة وفي الكبير والصغير من الشؤون ، لأنهم لا يُشيرون بأمرٍ ما إن لم يكونوا معتمدين على الاحصائيات والمباحث العلمية ومدلولاتها . ورجال العلم هم الرائدون لنمو التفكير العالمى ، وهم المؤمنون به كل الايمان ، وهم الموقنون بأنه من الممكن تنظيم الثروات العالمية وتوزيعها الحسن بحيث لا توجد كثرة في الانتاج مع المجاعة في آنٍ ولا ثروة مع الفقر في وقتٍ واحدٍ .

هذه هي مهمة العلم التطبيقى ، ولن تسعد البشرية السعادة الكاملة ما لم يصبح العلم دليلها الهادى في كل شيء ، وأمّا ترك اكتشافات العلم في أيدي الساسة « الحقوقيين » ليستغلوها في تدمير العمران بدل صيانتها وتجميله فهو الجنون المطبق ، وهو ما وقع من قبل وما لا بد من وقوعه آجلاً اذا ما تكررت الاسباب المماثلة للفاجعة الماضية ، والعياذُ بالله

إن نمو التفكير العالمى مدينٌ للعلم قبل سواه ، والأدب الذى ينصر هذه الحركة هو قريبٌ الى العلم لا غريبٌ عنه ، لأنه مستمدٌ من المعرفة العميقة للنفس الانسانية بما لها وما عليها . وإنى أبتهلُ الى الله سبحانه وتعالى أن يُسدّد خطوات الأمم في تنظيمها الجديد الى تشرب هذه الروح العمرانية لتُنقذها من الويلات التى جرت عليها الحربُ ولتساعدنا بفضل التعاون والتآخى الجديد على تكوين نفسها تكويناً آخر يتمشى مع العقلية السامية البعيدة عن الأنانية والعزلة أو التهجم والانتهاب .

(١٩٢١)



رسالة ولز

أصدرَ في العام الماضى الفيلسوفُ الاجتماعى هـ . ج . ولز كتابه القيم (مجل التاريخ — The Outline Of History) فاهترت له الأوساط الأدبية لأنه عالِم التاريخ معالجةً جديدةً باعتباره وحدةً وباعتبار الانسانية أسرةً واحدةً ، وقد تتبع فيه سيرتها من أقدم الأزمنة الى يومنا هذا ، بحيث يرى القارىءُ مرآةَ حياتها والعوامل المتداخلة لانحطاطها ورقيها ، مما يؤهله

لأن يشخص أسباب فلاحها وفشلها ويتنبأ عن مستقبلها ومما يساعده على المساهمة فيما فيه خيرها .

ليس ولن اشتراكياً بحسب بل هو فيلسوف إنساني ، وقد أثار الحرب العالمية إشفاقه على حاضر البشرية ومصيرها ، فكان كتابه التاريخي هذا ترجمةً لنظراته الى الماضي والحاضر والمستقبل . وقد مهّد له بكتب أخرى أهمها *Mr. Britling Sees It Through* و *What Is Coming ?* و *In The Fourth Year*

وهذه الكتب عن الحرب ظهرت ما بين سنتي ١٩١٦ و ١٩١٨ أما *New Worlds For Old* و *First And Last Things* وقد صدر الأول منذ ثلاث عشرة سنة وظهر الثاني حينئذ أيضاً ثم أُعيد طبعه منقحاً منذ أربع سنوات . وليس بعجيب أن يكون مثله اشتراكياً وقد نشأ في أسرة متواضعة وكان يعمل في حانوت برزاق ، وخبر عملياً بؤس العمال ، وعرف أحوال الطبقات المتوسطة والوضعية فقمرها بعطفه في أدبه .

ووزن الانسانى الاشتراكى ثمرة طبيعته الوجدانية وزرعه الفلسفية ، وثمره نشأته الاجتماعية ، وثمره تعليمه العلمى . وهو عندى مثال عالٍ للزعيم المفكر المصلح ، وللأديب الرائد الملمهم .

وقد ظفر وزن بدرجة بكالوريوس في العلوم من جامعة لندن من رتبة الشرف الأولى ، فكان هذا التعليم الى جانب مواهبه الفطرية العُدّة القوية لحسن فهمه وتقديره ، ولاخراجه طائفة من قصص الأدب العلمى ، وتهذيب خياله الروائى حتى جاء بتنبؤات عجيبه صدق غير قليل منها ، ومن بينها استعمال الدبّابات في الحرب .

ولولا مواهبه الأديبية الفطرية لما هجر وزن منصبه في التدريس العلمى الى الصحافة ثم الى التأليف إذ استمر نجاحه المطرد منذ صدور كتابه الأول (أحاديث مختارة مع عمّ — *Select Conversations With An Uncle*) فى سنة ١٨٩٥ م .

وكما فاجأ عالم الأدب (بمجمل التاريخ) فى العام الماضى ، فقد أتحفه هذا العام بكتابه القيم (إنقاذ الحضارة *The Salvaging of Civilisation*)

وهو نتيجة اهتمامه بمصير الانسانية على اثر هذه الحرب الويلة . وتتصل
بالسانية آراؤه الفلسفية كما في كتابه God The Invisible King
The Soul of A Bishop وكلاهما من إنتاجه الحديث خلال الحرب التي أعدتها
العامل الأكبر في تنبيه مثاليته العليا وتصوّفه .

انضمّ ولز الى « جمعية المتروسي » أو « الجمعية الفابية » (The Fabian
Society) منذ نشأته الأدبية في سنة ١٩٠٣ ، وأصل هذه التسمية ترجع
الى نسبة الجمعية الى القائد الروماني Quintus Fabius Maximus الذي لقّب
Cunctator بمعنى « المتروسي » نظراً لشهرته في التدبير والتريّث في مناوأة
هانيبال ، والمرادُ عدم تهوّر الجمعية في تطبيق مبادئ الاشتراكية ، ولذلك
اكتفت منذ تأسيسها في سنة ١٨٨٣ بالتبشير الثقافي بمبادئ الاشتراكية
وفاقاً لتعاليم كارل ماركس ، ومن أعضائها غير ولز أمثال سدني وب و برناردشو
وجراهام والاس .

وقد كان لهذه الجمعية أثرٌ بليغٌ في تطوّر التفكير الانجليزي نحو
الاصلاح الاجتماعي ، بل أثرت سياسياً في تكوين حزب العمال المستقلّ وفي
ترقية حزب العمال من طريق غير مباشر . ومن هذا نرى أنّ ولز استمدّ
روح رسالته من تعاليم هذه الجمعية ، وإن ترك الجمعية فيما بعد ، ثم دعّمها
بثقافته العلمية التي هيأت له أسلوبه التشريحي في نقد المجتمع كما حوّلت اهتمامه
الى الابتداع الاصلاحى والى وظيفة التطبيب النفساني للانسانية الشقيّة ،
ومن أقدم تأليفه التي تشيع فيها هذه الروح كتابه Mankind In The
Making الذي ظهر في أول انضمامه للجمعية الفابية .

حقيقة أنّ لولز طرائف من القصص العلمية والروايات الخيالية الشعرية
ومن أشهرها The Stolen Bacillus أي الميكروب المسروق و The Wheels
Of Chance أي عجلات الحظّ و The War Of The Worlds أي حرب
العوالم ، و The Food Of The Gods أي غذاء الآلهة ، ولكنها مع ذلك
لم تكن تخلو غالباً من بذور تفكيره الاجتماعي ، ولعل من أبرزها في ذلك
كتابه A Modern Utopia أي مُطوبىي عصرية . ولكن ولز يُعنى قبل
كلّ شيء وبمد كلّ شيء بأحلامه الاصلاحية الاجتماعية ، على نحو ما كان

مُيعنى أفلاطون في جمهوريته ، بل انّ وِز في وقتٍ ما كان يفكر جهاراً في مثل الارستقراطية المختارة للحكم التي عُنَى أفلاطون بالدعوة الى تكوينها ولعله لا يزال يفكر فيها . أمّا عن آرائه الفلسفية الدينية فهذه عمادها أيضاً انسانيته ولكنى لا أريد معالجتها في هذه المناسبة .

إنّ وِز يجمع بين شرائط الأديب الكامل : فهو في أدبه يمثّل شخصيته ، ثم هو في أدبه يمثّل الروح البريطانية الديمقراطية ويعبّر عن بيئته وأمته ، ولكنّ أهمّ عناصر تكوينه انسانيته وروحه العالمية ، وهي الغالبة على تأليفه الخطيرة ، وهو في ذلك الرائد الذي يعمل على إخراج أمته من عزولتها لتتزعّم النهضة الفكرية الانسانية التي يريد أن تقوم عليها الحضارة الحديثة ، فهو في روايته الرائعة Kipps : The Story Of A Simple Soul يمثّل الحياة المصرية في وقتها (سنة ١٩٠٥) خير تمثيل ويُعجب بفنه قرّاءه ، ولكن عظمة وِز الأدبية تقوم على إنسانيته فيما أشرتُ اليه من تأليف وفي غيرها ، وكأنه الحبر الأعظم للانسانية المكثّف بحسن تنظيمها وبراعة خيرها . وهذه المناسبة أحبّ أن أوجّه أنظار الأديباء من مواطني الأفاضل — الذين قديحسون الأدب كلّ الأدب في التصوير المحلّي للحياة — الى مخالفة وِز وكلّ أديب جهير لهذه القاعدة ، فان اتساع آفاقهم في تناولهم الحياة والانسانية بأسرها موضوعاً شاملاً لدراساتهم هو الذي مما بهم فوق مرتبة الأديباء المؤلفين ، أمّا في مصر فهذا المنحى يعتبره الجامدون تفرنجاً ، وهذه نظرة قاصرة ، فليس في الأمر أيّ تفرنج وانما هو الشعور الانساني الشامل الذي يجعل الأديب وأدبه منتسبين للعالم كله .

(١٩٢١)



عبقريّة برنارد شو

على قدر شعف وِز — في غير بهرجة انشائية — بالتمهيد لايجاد دولة عالمية World - State في المستقبل بادئاً بالاصلاح الاجتماعي في وطنه وبتوسيع آفاق التفكير بين مواطنيه ، وهو ما أجمله في كتابه الحديث (مجمل التاريخ) ، دع عنك روح مؤلفاته السابقة على اختلاف أنواعها من خيالية أو علمية أو

نقدية للأخلاق والعادات والدين أو فلسفية اجتماعية — على قدر هذا الشغف نجد برنارد شو مشغولاً أيضاً بنقد المجتمع عن طريق الدراما ، وقد استطاع ببراعته الذهنية وتفنته أن يضمّن هذه الدرامات الكثير من الآراء في حوار قلما يُحتمل في تفاصيله وفي طوله من غيره ، كما بثّ في جميع هذه الدرامات فلمفته الدينية القائمة على أن الخالق نفسه (ولعله يريد الطبيعة أو قوة الحياة) غيرُ كامل وأنه يعمل بشتى الوسائل لبلوغ هذا الكمال وأنه دائم التجارب الحيوية ولا يبقى غير الأنسب والأصلح .

ذلك هو مظهر عبقرية برنارد شو الدرامي الناقد الساخر الذي لم تسلّم ناحيةٌ من نواحي المجتمع من هجائه . واقد اختار الأسلوب الساخر الهزلي مجالاً لأفكاره وضمّنه في شجاعة متناهية نقداته في أصالة ظاهرة . وهو يُعَدُّ في ذلك قرين صموئيل بتلر ، كما يُعدُّ في كثير من نظراته تلميذ إبسن وكارل ماركس ونيتشه . نقرؤه فنستمتع بروحه الخفيفة وطلاوة نكاته ، ولكننا نشعر في الوقت ذاته أننا أمام أستاذ متفضل له في كل وقت منزلته وشخصيته . وأعظم ميدان برزت فيه مواهبه هو ميدان النقد الاجتماعي ، إذ نجده لا يتهيب معالجة أدقّ المشكلات بطريقته العقلية . ولئن لم يكن تلميذاً مخلصاً لماركس ومريديه فإن هذا لا ينتقص إخلاصه لتفكيره الشخصي وتُعزّي روحه الإنسانية منذ شبابه الى إعجابه بالشاعر شيلي ، ومنه ومن ماركس قبس جراءة التعبير والنقد في شتى المسائل الاجتماعية التي عالجها . مثال ذلك في كتابه (الماجور باربارا) Major Barbara يصوّر شو الفقراً أساس الرذائل في المجتمع القائم على المال ، وفي كتابه (منازل الأرامل) Widowers' Houses يظهر لنا الرجل النزيه مسؤولاً عن تقيصة اجتماعية ، وقس على ذلك بقية مؤلفاته التي لم تترك الدين ولا العلم ولا الأسرة ولا المجتمع عامةً بدون تشریح فاحصٍ مُظهرٍ لعيوبها الخفية وعناصر ضعفها الكامنة ، وله أسلوبٌ معيّنٌ في دراماته قوامه النقاش بين الخواطر الممتلئة والشخصيات المختارة ، وهو في الدرامات الفكرية يجارى إبسن وإن لم يبلغ منزلته من التعمق ، وكلاهما لا يعتمد على شخصيات حيّة حقيقية وإنما على مخترعات من بنات تخيُّله للتعبير عن آرائه ، وعلى هذا لم يكن الخلقُ الدرامي الحى قوياً عند شو ، لأن حيويّته النسبية مستمدةٌ من الذكاء وليس

مصدرها الواقع ذاته في عالم الدنيا . ولكن أليست بغية شو تحويل التيارات الفكرية والعاطفية عن طريق إيحاءاته المثالي لا الوصف الواقعي ؟ وإذن فليس له أن يجارى الطبيعة .

لقد شهدتُ بعضَ درامات شو على المسرح الانجليزي ، ومع استمعاى أشعرُ أنها أصلحُ للقراءة منها للتمثيل ، وليس هذا مما يعيها فكثيرٌ من الدرامات يُكتب خاصةً للقراءة لأنَّ نسقَ تأليفه يجعل قراءته أبلغَ وقماً في النفس ، فان لبرنارد شو من التخيُّل الشعري ومن المثالية الثقافية ومن الروح الرمزية ومن التهافت على الإصلاح الاجتماعي ومن الذكاء الفاحص ومن الروح الرومانطيقية ومن المعارف المتنوعة ما يجعل تأليفه صُحبةً جميلةً للقارئ المتعلم في حين قد لا يقدرها تماماً المُشاهدُ في دور التمثيل . بيد أنه على قدر ما يُعزى من الفضل الى السير آرثر بينيرو Sir Arthur Pinero والى المستر هنرى آرثر جونز Henry Arthur Jones في نهوضهما الأول بالدرامة الانجليزية يُعزى بحقٍ الى شو نهايةُ التسامى بها من الوجهة الفكرية إذ أدخلَ فيها طرازَ المشاكل الجديرة بالدرس problem - play ، وإن كان قد تأثر في ذلك بكلِّ من إبسن وبتلر خاصةً ، فكان فريداً قومه في النقد الدرامى للسطم الاجتماعية . وإنَّ هذه المؤلفات القيمة التي تناهز الأربعين هي ثروةٌ عظيمةٌ للأدب الدرامى المعاصر وللتفكير الانسانى معاً .

يُناهز شو الآن الخامسة والستين ولكن لا تزال له روحُ الفتوة الفكرية ، وقد صدرت نخبَةٌ من تأليفه في السنين الأخيرة مثل Back to Methuselah وSaint Joan وHeartbreak House ، وهو إيرلندى الأصل وفيه تتمثل خصائص أمته من حبِّ النكتة البارة ومن الذكاء اللطاح ومن المثالية الرومانطيقية . وكما كتب أولَ رسالة من قلمه في سنة ١٨٧٥ يعلن فكره الحرَّ فيها هو بعد مرور ست وأربعين سنة لا يزال ذلك النَّائرَ الطليقَ الساخرَ بالأفكار الرثة والتقاليد السخيفة وفي مقدمتها النفاق الدينى . وقد تنقَّف شو منذ حدائته ثقافةً موسيقيةً واسعةً بفضل والدته التي كانت بارعةً في الغناء ، وحاول في صباه وضعَ روايةٍ عاطفيةٍ من الشعر المرسل ثم حالت دون ذلك حوائل ، ولكنَّ روحه الفنية هذه ما تزال متجليةً في جميع تأليفه ، كما أنَّ صلته الأولى بهنرى جورج - وإنَّ تدرَّج منها الى ما هو أشمل في اشتراكيته - تركت

أثرها في تفكيره . وعندى أن شو كان يستطيع أن يكون الشاعر المسرحى لو أراد بدليل روايته The Admirable Bashville وهى من الشعر المرسل ، مهما يكن . حكنا على طاقته فى وضع الحكمة المسرحية وعلى مبلغ عنايته أو عدم عنايته فى اختيار موضوعات رواياته ، إذ أن كل ما يعنيه أن يتخذ منها ذريعة لبث تعاليمه المعادية للنفاق والتصنع والمطهرة للمجتمع . وكما غم شو أعظم شهرة كناقد أدبى فى بريطانيا فقد غم شهرة رفيعة لأرائه الفلسفية الدينية التى تعتبر الألوهة قوة مجرّبة وأن آخر تجاربيها هو الانسان ذاته ، وكما تخلت عن غيره من الخلوقات قبلاً فقد تتخلى عنه إذا خذلها بأخطائه .

(١٩٢١)



الغرائز والتربية

من المقرر لدى علماء التربية أن الغرائز — باعتبارها قوى فطرية موروثية طبيعتها التغلب — جذيرة بأن تستغل أو تؤجج لما فيه خير النوع الانسانى فى أساليب التربية ، وأن أى تربية تتجاهل هذه الغرائز إنما تعد ناقصة وإن لم تكن ضارة أيضاً .

فمن هذه الغرائز غريزة الاثرة أو حبّ نفس ، وغريزة الخوف ، وغريزة التغلب ، وغريزة المحاكاة ، وغريزة الغضب ، وغريزة المنافسة ، وغريزة الاستطلاع ، وغريزة المباهاة ، وغريزة الطرب ، وغريزة اللهو ، والغريزة الجنسية . والتربية الحديثة القائمة على الأصول العلمية تعرف كيف تستغل هذه الغرائز وسواها فيما ينشئ الطفل أحسن نشئة .

فأذا نظرنا الى غريزة الاثرة التى قال فيها المتنبي :

ألا كلنا يبنى الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهماً بها صباً
فحبُّ الجبانِ النفسَ أوردته التثقي وحبُّ الشجاعِ النفسَ أوردته الحرباً
وجدناها متمكنة حتى من صغار الأطفال . وهذه الغريزة القوية يمكن تحويلها الى النفع بتفهم الناشئين بل والكبار أن الايثار بعض من الاثرة ، إذ أن سعادة الانسان تكمل بسعادة غيره معه ، فالعاقى وسط المرضى يكون

مهدداً بالمرض ، والغنى وسط الفقراء المعدمين يكون معرضاً لأخطار النعمة على أنانيته ، وهكذا من حبّ الانسان لنفسه أن يبرّ بغيره أيضاً وأن يجعل محيطه هائلاً مثل هنائه ، وبذلك لا يكون مهدداً منفصلاً . وهذه المبادئ اذا غُرسَت منذ الحداثة عن طريق الاستماعة بغريزة الاثرة ساعدت على تنمية روح الايثار أو على الأصح روح التعاون الصحيح . وقد فهم هذه الحقيقة غير واحد من كبار الأغنياء وفي مقدمتهم روكفلر المثرى والمحسن الأمريكى الشهير .

وغريزة الخوف — وهى غريزة قوية موروثية من الانسان البدائى ساكن الأدغال ، كما أنها من طبع المادة الحيّة الحذرة على كيانها — هذه الغريزة يمكن توجيهها لخير الانسان أولاً بنزع ما يعلق بها من الخرافات الموروثية ، وثانياً بتحويلها الى الحيطة وتقدير العواقب للأعمال قبل الإقدام عليها وفى حسابان الفشل على قدر حسابان النجاح واتخاذ ما ينبغى اتخاذه سلفاً على سبيل الاحتياط وبذلك يتعود الانسان الحكمة فى تصرفاته بتحويل هذه الغريزة .

وغريزة التغلب أو حبّ القهر يمكن تحويلها الى الرياضة البدنية والرياضة الفكرية والتنافس الأدبى والفنى ونحو ذلك ، بدل التدىلّ بها تدليلاً وحشياً إذا تركت وشأنها دون أى مقوم من تهذيب وثقافة .

وغريزة المحاكاة ضرورية لتنشئة الجيل الجديد متأثراً بالجيل المترعرع ، ولكنها خطيرة اذا تجاوزت هذا الحد لأنها تقضى على ملكة الابتكار وعلى روح الأصالة . ومن أجل آثار المحاكاة تطبّع الطفل بالبيئة الراقية التى يعيش فيها ، والعكس بالعكس . فيمكن للعربى أن يثير غريزة التغلب ويقويها على حساب غريزة المحاكاة حينما يجد أن الناشئ أصبح فى غنى عن التأثير بالآخيرة

وغريزة الغضب يمكن تحويلها الى حماسة العقيدة مع تلطيفها بسبل الاحتمال والتسامح . مثال ذلك أن يربى من طبيعته الغضب على أمرين : أولهما ضبط شكيمته وثانيهما العناية بالشؤون الاجتماعية العامة ، وبذلك يتيسر تحويل هذه الغريزة الى نوع من الايثار الاصلاحى العام كالعناية مثلاً بشؤون الفلاحين والعمال الذين يشقون ليل نهار على غير طائل ، أو كالاهتمام بالأمومة البائسة ، أو كالعامل على محاربة الرقيق الأبيض ، ونحو ذلك من الاصلاحات العامة حسب سنّ الشخص ودرجة ثقافته .

وغريزة المنافسة من الغرائز القوية التي تعتمد عليها الحياة في التجويد وإبراز الأصلح . وهي شائعة بين الادميين شيوعها بين الحيوانات ، وأكاد أقول بين النباتات أيضاً ، وإن كان ذلك بأساليب غير ظاهرة لنا ولكنها محسوسة في تكييفها وفي تتأرجحها . وعندى أنه لا يمكن لأى غريزة أن تكون مهذبة اعتماداً على ذاتها وحدها ، والتربية يجب أن تشمل الغرائز جميعها حتى يكون تفاعلها بعضها مع بعض سليماً من الشوائب والنقائص ، وهكذا يمكن إبعاد غريزة المنافسة عن روح الاثرة والحسد وتكييفها بحسب الاتقان على اعتبار أن ذلك واجب النفس المتسامية التي تعتبر إحراز الكمال غاية الشرف .

وغريزة الاستطلاع من الغرائز الأساسية التي تعتمد عليها الحياة كذلك لزيادة التجربة والمعرفة ، فهي تصحب الطفل منذ وجوده وتلازمنا طول حياتنا . والتربية العلمية تعمل على إبعاد هذه الغريزة عن فضول الجهلاء وتكييفها بصورة الكشف العلمى والشغف بالبحث الثقافى الجليل المقترن بالمعرفة والتؤدة والدقة والتواضع ، وهكذا تنمو فضائل أخرى إلى جانبها في نفس صاحبها .

وغريزة المباهاة شائعة كذلك بين الادميين والحيوانات كبارهم وصغارهم ذكورهم وإناثهم على السواء . وتهذيب الغريزة إنما يأتى من صقلها صقلًا علمياً بحيث يشعر صاحبها أنه لا يجوز له أن يعتز إلا بعمله الشخصى لأن الحياة تأبى الوقوف وليس لها أن تُشغَلَ بالماضى ، كما لا يليق به أن يفخر إلا بعمل صادق قيّم لاشكّ فيه ، وهذا ما يدعو إلى الدقة والتسامى بحيث ينأى عن الفخر بأعمال الحرب والتخريب وما إليها مما كانت تعتبراً جهلاً من الأمور العظيمة فى القرون المظلمة . وإنما تكون الآن المباهاة فى غير خشونة بالسانية المرء وإحسانه .

وغريزة الطرب من أصلح الغرائز للاستعانة بها على التهذيب بواسطة الغناء والموسيقى ، وهى إلى جانب غريزة المحاكاة تُخدم التمثيل التهذيبي فى المدارس خاصة وللجمهور عامة متى عرف ولاية الأمور كيف ينهضون بهذه الفنون الجميلة عن مهاوى الخلاعة والابتذال .

وغريزة اللهو هى أيضاً غريزة ضرورية للتنفيس عن القوى الكامنة فى الجسم والترويح عن النفس حتى لا يصيبها شئ من التسمم الذاتى نتيجة المهمّ الغالب . وقد استغلّ فروبل هذه الغريزة فى إنشاء روضة الأطفال فكان

اللعب أساس التربية عنده ، ونجحت رياض الأطفال نجاحاً عظيماً في أنحاء الدنيا .
والغريزة الجنسية هي مدار الحياة ، وهي من أقوى الغرائز ، فمن
الواجب على الوالدين والمربين أن يلمّوا بها إلاماً تاماً حتى يؤمنوا بأهميتها
وبراعتها ، وحتى يخلقوا منها في نفوس الناشئين حباً الطبيعة حباً بيولوجياً
ودراسة التناسل في عالم النبات والحيوان عامة بحيث يفهمون التناسل الانساني
فهماً طبيعياً لا غبار عليه . وان في توجيه المراهقين الى الألعاب الرياضية والى
التسامى (sublimation) بهذه الغريزة — إتفاقاً لهذه الحيوية في الفنون الجميلة
مثلاً — لتصرفاً صحيحاً حكيماً ، ولهذا يجب العناية بالفنون الجميلة وبالألعاب
الرياضية منذ الحداثة وبذلك يحسن استخدام هذه الغريزة الهامة في التربية .

(١٩٢١)

روح الاجتماع

منذ اثني عشر عاماً كتب أحمد لطفى الميذ بك في (الجريدة) يدعو
الى إلغاء الرتب والنياشين وينتقد الحكومات الملكية : « كفى الناس أن
يكونوا مختلفين في الصور الطبيعية والمواهب المعنوية ، فليس من حسن
تدبير الأمم أن يزيد هذا الخلاف بأيدينا ، ونوسّع دائرة الفروق فيما بيننا .
إنها تفرق بين الناس في معنى الشرف ، مع أنه يكفي في أن يكون الانسان
شريفاً ألا يكون قد ارتكب فاحشةً مبيّنةً . تأتي هذه الحكومات الى
الشرف الذى هو أظهر معنى استوى الناس فيه ، فتجعله طبقات لا لعلّة
ظاهرة ، ولكن لمجرد الجاذبية ، كأنها تعمل على التفريق بين المتشابهين ،
فتعطي زيدا رتبةً تكبر بها اسمه ونفسه ، وتعطي عمراً نوطاً يزين به صدره
ويُعلى قدره ، وتحرم الثالث كل ذلك . فلا ندري أنشكو الطبيعة في تفضيلها
بعضاً على بعض بالخلقة والمواهب والميول ؟ أم نشكو الحكومة لتفضيلها
بعضاً على بعض بالالقب والأنواط ؟ أم نشكو الحظ الانسانى الذى جعلنا
تحت رحمة الطبيعة مرة ، وتحت رحمة الحكومة مرة أخرى ؟ كلتاها تنمّر
شهوأتنا وتجرتنا من جهاتنا الضعيفة الى حيث تُفسد علينا أخلاقنا ، وتنمّص
علينا عيشتنا ، وتجعلنا دائماً كارهين لهذا الوجود المحبوب »

وقبل ظهور مقالة لطفى بك السيد فى (الجريدة) بنحو سنتين ظهر كتاب (روح الاجتماع) تأليف الدكتور جوستاف لوبون مترجماً الى العربية بقلم أحمد فتحى زغلول باشا ، وكنت أظن أن المبادئ والتحليل الفلسفية الاجتماعية التى ذكرها الدكتور جوستاف لوبون كافية لإقناع لطفى بك السيد بأنه يخطئ فى مثل تلك الملاحظات فى الوقت الذى أبدت فيه (سنة ١٩١١) ما دام لم يقيد بها بأى قيد .

إنى أحترم ديموقراطية لطفى السيد بك وأحب مصرته الخالصة وأجلّ حذبه على الفلاح وأقدر رغبته فى إزالة الفوارق بين الطبقات . ولكن يحيل الى أنه ما دامت الأمة غير مالكة لحريةها الصحيحة وما دامت الأمة متفشية بينها فهى أحوج ما تكون الى تمييز القادة والزعماء فيها . وقد قرر جوستاف لوبون أنه لا يمكن التأثير فى الجماعات الا من طريق مشاعرها الغريزية ، كما قرر أنه لا بدّ لبعض الأمم من بعض نظمات رديئة فى بعض أطوار حياتها . وهذه المشاعر الغريزية تتطلب وجود زعامة وقادة ، كما أنه مما يصون وطنية الأمة وجود طبقة ممتازة حقاً عاملة على تهيتها لمستقبل أفضل ما دامت لا تملك الحكم النيابى الصحيح . ليكن هذا نظاماً رديئاً ، ولكنه نظام وقتى لا غنى عنه لمثل مصر .

أما الذى فات لطفى بك السيد أن ينتقده فهو أن الرتب والنياشين لا يُدقق فى منحها بمصر ، وقديماً كانت تباع وتشترى وكان لها سيطرة معروفون حتى بين الأدباء والشعراء . وهذه الوصمة يجب أن لا تتكرر بأى حال . إن إبقاء نظام الرتب والنياشين لا غبار عليه عملياً لولا أنه اقترن بالتدقيق الشديد فى المنح كما هو جارٍ فى إنجلترا مثلاً ، ولو أنى أوتر الديمقراطية الكاملة والتخلى التام عن ذلك ، ولتعتبر المراكز (التي تعطى الرتب عادة من أجلها) تكليفاً لا تشريفاً .

ولكننا أمة لم تظفر بعد باستقلالها الكامل ، وهى لا تستغنى عن هذه السمات المميزة لزعمائها وكبرائها المقدرين ، لو أننا نعى بتخصيص الرتب والنياشين لأمنالهم . فهل الواقع كذلك ، حتى فى هذا الطور من جهادنا القومى ؟ أخشى أن أعدّ مبالغاً اذا قلت إن منح الرتب والنياشين فى مصر يكاد

يكون مفسدةً لأنها توزع بتأثير أهواء واعتبارات منوَّعة ليست دائماً متفقةً مع المصلحة العامة . والنتيجةُ أن طبقات حاملي هذه الرتب والنياشين ليست بالتي تمثل الشخصيات الممتازة في الأمة ، وبعبارة أخرى أن الجمهور حين يتطلع الى هؤلاء الممتازين في الظاهر إنما يُخدعُ فيهم أو في أغلبهم وبذلك يكونون وبالاً عليه ، وعلى هذا فقد أصابنا شرٌّ من هذا النظام نتيجة سوء تطبيقه .

وعند ما تستكمل الأمةُ استقلالها الموموقَ فمن الواجب إلغاء هذا النظام لأن روح الاجتماع حينئذ تتشجّع على تشرب الديمقراطية الصحيحة بالغائه ، ولن يكون للإلغاء حينئذ ردُّ فعلٍ سوى بل على العكس .

وليس الشعبُ المصريُّ بالشعب الباذخ الغني كالشعب الانجليزيُّ ، فلا معنى لخفضة الألقاب والرتب . إن أغلبية الأمة المصرية مسلمون ونبيّ الاسلام كان رجلاً ديمقراطياً بكل معنى الكلمة . وأمّا أقليتها المسيحية فتتبع عيسى الذي قال عن الفلاحين إنهم ملحُ الأرض وكاد يكون شيوخاً في تعاليمه . وعلى هذا فالشعب المصري في جلته مستعد لتشرب الديمقراطية الكاملة إن لم يكن عن نضوجٍ سياسيٍّ بعد فعن إحساس أو تقليد ديني .

وإذن فروحُ الاجتماع المصري هي غيرُ روحِ الاجتماع الهندي مثلاً حيث توجد فوارق هائلة بين الطبقات من أشع مظاهرها وجودُ طبقة الأنجاس أو المنبوذين . وقد شاعت سياسة بريطانيا أن لا تتعرض للتقاليد الوطنية ، فكان وجود هذه الفوارق داعياً لما يلازمها من الأسماء والالقب ونحوها ، وكان حجر عثرة في سبيل الديمقراطية الهندية ، ولن يزول هذا البلاء حتى يضع سلطانُ الأديان والتقاليد من الهند ، وهذا سيحتاج الى أجيال وأجيال . وأما في مصر فعضلتنا هيئة ، وكل ما نحتاج اليه إنما هو التجرد الصحيح للخدمة القومية الخالصة وأن يكون زعمائنا القدوة في ذلك .

الحركة الاشتراكية

الراسخ في الأذهان هو أن الاشتراكية نوعٌ من الحكم تتجلى فيه سيطرة طبقة العمال ، ولكن الحقيقة أن الاشتراكية مرادفٌ للتعاون المشترك . وبطبيعة الحال للاشتراكية مدارس متعددة : فمنها المتطرفة التي تلبس لبوس البلشفية ، ومنها المعتدلة التي ترمى الى اهتمام الجماعة بترقية الفرد بقدر ما ترمى الى منع الأنانية الفردية . والاشتراكية بصورتها المعتدلة أظهر ما تكون في بريطانيا العظمى ، ومن أعلامها المستر رمزي ماكدونالد ، وكتابه « الحركة الاشتراكية The Socialist Movement » أشهر من أن يُعرف .

يبد أنه لا فكران أن الروح الغالبة في الحركة الاشتراكية هي روحٌ شبه طائفيّة وغرضها انتزاع السلطة من الرأسماليين وتحويل المجتمع الرأسمالي الى مجتمع اشتراكي على أن يكون للعمال السلطة السياسية فيه . وقد لظفت بريطانيا من هذه الروح باعتبارها « العمال » جميع العاملين بالعقل والجسم لا العاملين بأبدانهم فقط ، ومن ثمة تطوّر حزبُ العمال في إنجلترا تطوراً هاماً فضمّ اليه نفراً معدوداً من الرجال الموسرين الذين لهم نزعة انسانيةٌ اصلاحيةٌ ولا يهمّهم تكديس الثروات بقدر ما يهمّهم نقاء المجتمع مما يشينه وسعادة البشرية ، وترفع هذا الحزبُ عن العنف الذي تؤمن به البلشفية كوسيلةٍ مبدئيةٍ للاصلاح مؤثراً التجارب المقنعة والتدرّج التعاوني مع مخالفه نحو فائته الاصلاحية .

ومما ذكرته في مقال سابقٍ عن جمهورية أفلاطون يعرف قارئ أن الفكرة الاشتراكية قديمةٌ أو أنها من الأحلام الانسانية البعيدة للقضاء على الفقر أو على الأقل للترفيه عن الفقراء ، ولكن أفلاطون لم ينس أن الناس مراتبٌ في مواهبهم واستعداداتهم فقسّمهم الى طبقات من أجل الانتفاع الأوفى بهم غير سامحٍ لأيّ طبقةٍ أن تكون طالةً على الأخرى ، بل غايته التعاون المشترك على أتم صورة اعتماداً على حُسن التخصص . وكان أرسطو من مُعزّزي الاشتراكية المعتدلة وشايع أفلاطون في الاهتمام بضبط النسل وذهب الى ضرورة جعل عدد السكان ملائماً لثروة الأمة . وهو مبدأ

معقول لا أعرف أن ديننا الحنيف يعترض عليه ، ولكن مع الأسف حُوربَ هذا المبدأ في القرون الوسطى خاصة من رجال الدين محاربةً عنيفةً ولا يزال يحارب ، وأعنى بهم رجال الكنيسة في الغرب ، وهذا سلوكٌ خاطئٌ يجعل التناسل الآدمي لا ضوابط له بل ينزله دون تناسل الدواجن والحيوانات المعتنى بها .

لقد احتضنت إنجلترا الاقتصادي الألماني العظيم كارل ماركس بعد نفيه من وطنه ألمانيا سنين مديدة ، وكان تأثيره عظيماً في تكوين الاشتراكية الحديثة ، ولكن أثره البالغ كان في روسيا إذ تقوم المبادئ البلشفية على تعاليمه التي تخالف التعاليم الأفلاطونية في اهتمامها بالفرد على قدر اهتمامها بالمجموع ، بينما الاشتراكية القديمة لا تبالي بتضحية الفرد في سبيل المجموع . وأن من أهم ما تعنى به الاشتراكية الحديثة حسن تنظيم الانتاج وعدالة توزيع الثروات . وقد تفرع عن هذه الاشتراكية الحديثة أو على الأصح قام لأجل التوفيق بينها وبين الرأسماليين مذهب اقتصادي جديد يسمى مذهب « الاعتماد الأهلئ » Social Credit ، هو في رأيي خير ما يجب على المصريين — بعد أن نالوا الاعتراف باستقلالهم في تصريح ٢٨ فبراير — الالتفات إليه لتحسين أحوالهم ، وإلاّ كان هذا الاستقلال زائفاً ، فإن حالة الفلاح المصري آية في الشقاء والتعاسة وقد أذلته الأمراض الفطرية فأصبح يحتمل بؤسه القاتل في ضعف المريض .

يمثل مذهب « الاعتماد الأهلئ » العقلية الإنجليزية المصلحة ، وعلى رأس المنادين به الميجور دجلاس ، وكتابه الديمقراطية الاقتصادية Economic Democracy الذي أصدره منذ عامين وكان له شأن أيّ شأن عند صدوره يُعتبر انجيل هؤلاء المصلحين من رجال هذا الاقتصاد الجديد . وخلاصة هذا المذهب أن الاعتماد المالي للأمة (الكريديتو) هو من حقوقها الأصلية ولايجوز أن تتخلّى عنه لأي بنك من البنوك ، وأن النظام المالي الحاضر افتتاتٌ على سلطة الأمة ، وأن من الغفلة الكبرى الاستمرار على قبول ذلك ، وأن الكريديتو الذي تعتمد البنوك هو كريديتو وهمي لا يمثل ثروة الأمة الحقيقية . فهو يدعو أولاً الى أن تكون الدولة نفسها

ووحدها صاحبة الحق في إصدار الأوراق المالية ، وثانياً الى تقدير الكريديتو بناءً على ثروه الأمة الحقيقية من مناجم ومصانع ومنتجات زراعية وغيرها ومن قدرتها على الانتاج وإصدار الأوراق المالية على هذا الأساس ، وثالثاً الى إنشاء إيراد ثابت لكل فرد من أفراد الأمة مهما يكن هذا الإيراد قليلاً وأن لا تكون الاعانة مقصورة على العاطلين وتعمد الدولة بتخفيض أسعار البيع للمستهلكات الفردية وذلك بمعاونة التجار ، ومن حيث أن هذه الاعانة مرتبطة بالمبيعات فلا يؤدي السماح بها الى أي تضخيم في النقد . والنتيجة العملية لكل هذا هو التيسير للناس فيمتطيعون الشراء بما في يدهم من النقد وتروج بذلك التجارة وتتمتع مرافق الأمة ، إذ من المحال أن يحلّ الاقتعاش والمال غير ميسور ومتروك للبنوك اللاعب به كما تشاء ، كذلك تؤدي مثل هذه السياسة الى ترك التنافس الخطر على الأسواق الخارجية فيُخدم بذلك السلام كما تؤدي الى التعاون بين جميع طبقات الأمة فتنشأ بذلك اشتراكية وطنية صالحة بدل الاشتراكية الطائفية المؤدية الى التطاحن الويل .

(١٩٢٢)

— ١٩٠ —

أبو العتاهية

يقول الأصمعي إن شعر أبي العتاهية « كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى » . ومثل هذا النقد لا يعيب أبا العتاهية فقد كان منلاً مدهشاً للشاعر الأصيل الموهوب الذي يجهل العروض جهلاً تاماً ، فكان يبتدع بسليقته الأوزان وكان يسحُّ بالشعر سحاً ، حتى أنه يؤثر عنه قوله : « لو شئتُ أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت ! » وقد خدم فعلاً بأصالته الشعر العربي خدمات باقية .

كان في أول نشأته يصطنع الجرار ويبيعها ، ولكن مواهبه انتهت به الى قصور الخلفاء . ونشأ فقيراً فعاش بخيلاً . وكان يتخنث في أول أمره ، فانقلب أمره الى الزهد المعنوي لا المادي في أواخر أيامه . وكان كثير الذبذبة فأدبى

به ذلك الى التردد الطويل في شؤون الدين بله المعاملات ، فليس مثل أبي
العتاهية من الوجه الخلقية أو الانسانية بالذي يؤبه له ، ولست أكتب
هذه السطور من أجل أبي العتاهية الرجل فلو كان مثله الآن حياً يوزق
لآثرت الابتعاد عنه كفرد وهربت من صداقته المشكوك فيها . ولكني أتحدث
عن أبي العتاهية الشاعر الفنان الذي لم يتأثر فنته بمركب النقص فأثراً شيئاً
كما تأثرت أخلاقه ، فكان من زعماء الثورة التجديدية في عهده .

مثل هذا الشاعر لا يترحمى عنه كثيرون من القدامى الا لرهده ، مع
أن هذا الوجد غير سليم بل هو ظاهرة مرضية ، وأما فنته الشعرى المتمسم
بالسهولة والحلاوة والطلاقة والابتداع فقلما يفهمون منه شيئاً .

ولعل قرأني يذكر أن الرشيد أمر بضربه تعسفاً منه لاقلاع أبي
العتاهية عن الغزل ، فاسمع عتاب الشاعر الى الرشيد :

تَذَكَّرْتُ أَمِينَ اللَّهِ حَقِّي وَحُرْمَتِي وَمَا كُنْتَ تُؤَلِّينِي لِعَلَّكَ تَذَكَّرُ
لِيَالِي تُدْنِي مِنْكَ بِالتَّحْرِبِ بَجَلْسِي وَوَجْهِكَ مِنْ مَلِوِ البِشَاةِ يَنْقَطِرُ
فَتَنِّي لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتَ مَرَّةً إِلَى بَهَا فِي مَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ 15

وهذه الأبيات تدل في سهولتها وطبيعتها على شاعر متمكن مطبوع .
وثبتت عفة الغافلها راجعة الى أنه يخاطب الخليفة حسب ، بل هذه من
حسناته الماثورة حتى في هجوه الذي لم يُعرف عنه أنه أخش فيه مرة .
أليس هو القائل في عبد الله بن معن :

فَصَنَعُ مَا كُنْتَ حَلَّيْتَهُ بِهِ سَيْفَكَ خَلْخَالاً ا
وَمَا تَصْنَعُ بِالسَّيْفِ إِذَا لَمْ تَكُ قِتَالاً ؟
وَلَوْ مَدَّ إِلَى أُذُنِي كَفَّيْتَهُ لِمَا نَالَ ا
أَرَى قَوْمَكَ أَبْطَالَاً وَقَدْ أَصْبَحْتَ بَطَالاً ا

كان أبو العتاهية سريع الخاطر صمخ الشاعرية سيئال القريحة ، فلا عجب
إذا وقعت إحدى أراجيزه في أربعة آلاف من الأبيات ، ولا غرابة
إذا أثر في نفوس العامة كما أثر في نفوس الخاصة ، شأنه في

ذلك شأن الأديب البقري محمود يريم . وان سهولته النظمية لتعدّ من النسق الممتنع كما يمدّ من هذا الطراز شعر إليها زهير ، فليس من الوصف الصادق أن ينعت بالابتذال . وكيف يكون في حكم المبتذل مثل هذا الشعر الغزلي :

عيني على (عتبة) مُنهلّةٌ بدمعِها المنسكبِ السائلِ
كأنّهما من حُسْنها درّةٌ أخرجها اليمُّ الى السّاحلِ
كأنّ في فيها وفي طرفها سواحراً أقبلنَ من (بابلِ)
بسطتُ كفتي نحوكم سائلاً ماذا تردّون على السائلِ ؟
إن لم تُنيلوهُ فقولوا له قولاً جميلاً بدلَ النَّائلِ
لم يُبقِ مني حُبّها ما خلا حُشاشةً في بدنِ تاحلِ
يا مَنْ رأى قبلي قتيلاً بكى من شدّةِ الوجدِ على القاتلِ !

ومثل هذا الشعر :

إذا المرءُ لم يعتق من المالِ نفسه تملكه المالُ الذي هو مالِكُهُ
ألا إنّما مالى الذى أنا منفقٌ وليس لى المالُ الذى أنا تاركُهُ

إن ديوان أبي العتاهية الذى أخرجه الآباء اليسوعيون سنة ١٨٨٦ م . هو من النماذج الجميلة للشاعرية الأصيلة ، وإن لم يكن متمعناً في معظم شعره . ولكن في الوقت الذى تمشى التقليد وانعدمت الأصالة أوصى الأدباء الشباب بدراسة ديوانه بغض النظر عن آرائه الشخصية التى لا أوافق على معظمها ، وعلى الأخص آراءه فى الزهد ، فان الانسانية أحوج ما تكون الى الشعور ببهجة الحياة الدنيا وتعمير الأرض وتوفير السعادة للجنس البشرى لا لأفرادنا لحمب ، وعلى هذا فالزهد صورة من الأنانية فى الشكل الذى يرسمه أبو العتاهية كما أنه عقوقٌ سخيفٌ بالحياة .

تحرير المرأة

لقد انقضى خمسة عشر عاماً على وفاة قاسم أمين الذى قال عنه جورجى زيدان بلسان المؤرخ الأمين : « اذا تحررت المرأة المسلمة فلقاسم أمين الفضل الأكبر فى ذلك » . وانى أعود الى وطنى بعد اغتراب طويل فأجد أثره واضحاً وفضله بارزاً ، ولا يجوز أن تمرّ هذه الذكرى الكريمة لوفاته دون أن أحيى شجاعته الأدبية ووطنيته الصادقة وانسانيته العالية اذا ما تناساه السادرون ، بل عندى أن ذكره واجبة الاقتران بذكرى مصطفى كامل ، فقد توفى مثله فى سنة ١٩٠٨ ، وكان مصطفى الزعيم السياسى كما كان قاسم الزعيم الاجتماعى . ولقد مشيتُ فى جنازتيهما ، وعلى رغم كثر السنين أشعر كأنى لم أنقض بعد عن ملايسى تراب التشيع ، فمن الذكريات الوطنية الأليمة ما لا تقضى عليه الحوادثُ ولا تعاقبُ الليالى ، وأعتقد أن كل انسان مثقف فى مصر بل فى العالم العربى يشعر بمثل هذه الخسارة الفادحة التى ناءت بها مصر فى سنة ١٩٠٨ وما تزال تشعر بعبئها الى الآن .

إن كتابى قاسم أمين « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » فى غنى عن التعريف بها ولا بدّ أنهما فى مكثبات كثيرين من القراء بجانب المكتبات العامة ، ولا أريد هنا أن أعود الى نقاش آراء فُرغ منها وقد تصدّى لها حينئذ بالنقد الشديد مجد طلعت حرب بك وشيعته من المحافظين . ولكنى أستلهم الذكرى المجيدة لأنبّه الى أهمّ الحقوق التى لا تزال المرأة المصرية مفتقرة إليها لعلّ حكومتنا الوطنية فى هذا العهد الجديد تُعنى بتحقيقها أو على الأقل بتحقيق جانب منها .

لقد تحقّق اختلاط الجنسين فى مصر الى درجة لا بأس بها ، ونتيجة ذلك العمل على توسيع مدارك المرأة المصرية فتستطيع أن تكمل عمل النهوض بالمجتمع المصرى . وقد أصبح من المعقول ومن الواجب الآن فتح أبواب الوظائف أمامها ما دامت تبرز الكفاءة التى تؤهلها للاشتراك فى الخدمة العامة وما دامت بيدها الشهادات الدراسية المطلوبة ، وما دامت تجتاز امتحانات المسابقة بتفوق . وعندى أن امتحانات المسابقة إذا أُجريت بنزاهة كانت أقوم وسيلة لمنع المحسوبيات والعصبيات على اختلاف أشكالها لا بين المرأة والرجل فقط بل بين أفراد الطوائف

المختلفة إذ يجب أن يتماوى الناسُ جميعاً في الحقوق والواجبات ما داموا يرغبون في الحياة الديمقراطية الصادقة .

وقد اشتركت مصرُ هذا العام في المؤتمر النسائي الدولي الذي عُقد بمدينة روما ، وبذلك أتيحت الفرصة لنسائنا لمعرفة مدى التقدم العالمى الذى بلغته المرأة . وما أظن الحركة النسائية في مصر تقنع بعد الآن بالحرمان من الحقوق الانتخابية والنيابية ، خصوصاً والمرأة المصرية تُعتبر بحقٍّ أسلمَ صحةً وعقلاً بوجه الاجمال من الرجل المصرى ، بسبب صياتها من الأمراض الطفيلية الى حدٍّ كبيرٍ ، فقد جنت البلهارسيا والانكاستوما خاصةً على الرجولة المصرية جنابةً بالغةً في التاريخ القديم وفي التاريخ الحديث على السواء وتركت شعباً ضعيفاً في صحته ومعنويته مما سمح للغاصبين باستعباده أجيالاً طويلةً . ولهذا أعتقد أن مصر أحوج من أمم كثيرة الى تحرير المرأة حتى يمكن أن تعوض النقص في حيوية الرجولة المصرية الى جانب استغلال مزاياها ومواهبها الخاصة لخدمة الوطن .

إن المجلس الدولي للنساء الذى ترأسه الليدى أبردين (وهو هيئةٌ عالميةٌ أُسِّسَتْ عام ١٨٨٨ فى مدينة واشنطن) يضمّ ملايين من العضوات من أمم عديدة ، وان اشترك مصر فيه لكفيل بفتح صفحة جديدة خطيرة في تاريخ الحركة النسائية المصرية ، فان جهود هذا المجلس لترقية شأن المرأة والدفاع عن حقوقها وإنالتها إيّاها فى شتى بقاع المسكونة أشهر من أن تُعرّف . ومن حسن حظ مصر أن على رأس حركتها النسائية زعيمة مخلصه غيورة هى السيدة الجليلة هدى هانم شعراوى ، وقد جمعت من الصفات العالية فى محتدها وثقافتها وإحسانها وإيثارها للخير العام ما يجعلنى أتفاهل كلّ التفاهل بنتائج جهودها النبيلة للنهوض بينات وطنها وإنالتهن حقوقهنّ وحمايتهن من الجور والإجحاف .

وسواء أرادت مصر أن تنخرط فى سلك الأمم الغربية المتحضرة أم شاءت تزرعهم الأمم الاسلاميه أم رغبت فى الجمع بين الميزتين فحالٌ أن تبلغ هذا المأمّل أو ذاك أو كليهما اذا رضيت ببقاء المرأة شبه مهملة فيها أو على الأقلّ عاجزةً عن المماهة الكاملة التى تمتطيعها فى بناء الوطن

المصرى ونشر نفوذه . وعندى أن نفسية المرأة من أهم عناصر السلام في العالم فهى بطبيعتها تكره الحرب وتندد التعمير والاصلاح الاجتماعى ، وعلى هذا فمن الخير الأکید للانسانية تقوية تقوذة المرأة ورفع كل حيف عنها .

هذه مصر بلاد اسلامية على ما يُقال ، وقد اشتهر الاسلام باعزاز مكانة المرأة ، ومع ذلك نجد للرقيق الأبيض وللبغاء حرمة في مصر ، ونجد المرأة مجردة من جميع الحقوق السياسية ومن كثير من الحقوق المدنية . وانى فى تحية ذكرى قاسم أمين أحيى الاتحاد النسائى المصرى فى شخص زعيمته المتفانية السيدة هدى هانم شعراوى واثقا من أن جهودها العظيمة لا يمكن فى النهاية أن تخيب .

(١٩٢٢)

•••••

حرية الرأى وعقابها

لا يذكر العنت أو الأذى أو الاضطهاد الذى أصيب به نفر من خيرة أعلام الاسلام كأحمد بن حنبل وابن رشد والحلاج وغيرهم الا ويقشعرون بدن كل مسلم غيور يعرف أن السماحة وحرية الرأى من أهم عناصر الاسلام . ومع هذا فإن الجرائم والشناعات ضد حرية الرأى التى ارتكبت فى الغرب باسم المسيحية وما تزال ترتكب تربو بكثير على نظائرها فى الاقطار الاسلامية ، ولا يدري المفكر متى ينقرض هذا العيب والتعصب الأعمى اذا كانت الحكومات لا تشجع حرية الرأى فى حدود القانون العام بغير التفات الى جبرية العقائد .

إن دستور المملكة المصرية الذى أعلن حديثاً تنص مادته الثانية عشرة على أن « حرية الاعتقاد مطلقة » كما تنص المادة الرابعة عشرة منه على أن « حرية الرأى مكفولة ، ولكل انمان الاعراب عن فكره بالقول أو الكتابة أو بالتصوير أو بغير ذلك فى حدود القانون » . ولمعرفة حدود القانون المشار اليها يُرجع الى قانون العقوبات ، وتصفحه لا يُوقفنا على شيء جديد

يخالف المنطق بالنسبة للجنح المتعلقة بالأديان (راجع المادتين ١٣٨ و ١٣٩) ،
فثلايها عقب مَنْ يتعمد تحريف كتاب مقدس في نصه ، ولكن لا يُعاقب من
له رأى خاص في التفسير . ومعنى هذا أن الدستور والقانون العام يحميان
حرية العقيدة والتفكير الى أبعد حدّ . وأمامهما يتساوى المسلم والمسيحي
والاسرائيليّ والمتصوّف والمتشكك والملحد ، وكلّ ما يعنيه أداء الواجبات
التي يفرضها القانون ، وما عدا ذلك فهو خاصّ بالفرد ذاته ولا شأن للدولة
به . وقد نصّت المادة ١٤٩ من الدستور المصرى على أن « الاسلام دين
الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية » ، ولكن هذه المادة شكلية فحسب كما
يدلّ على ذلك الرجوع الى محاضر لجنة الدستور ، وليس معناها الترخيص
لشيوخ الدين الاسلامى بالسيطرة على عقائد الناس وتفكيرهم والحجر على
الآراء ما دام القانون العام يرتضيها ، كما أنه ليس معناها التفويض للدراعمة
بالقضاء على غير الثقافة العربية في مصر في الوقت الذى يدرّس كثير من
العلوم العالية باللغة الانجليزية .

وإذا كان هذا هو الواقع الذى لا شكّ فيه فيحق لمصر الحديثة أن
تفتخر بتشريعيها وأن تحرص على حرّياتها المكتسبة وأن لا تفرط فيها منقلاً
ذرة ، فليس أصون للحقوق من استعمالها وليس أضيع لها مثل التسامح فيها ،
وقد أثبت التاريخ أن أكبر الجناة على حرية الرأى هم رجال الدين إذ أنهم
عادة مركز المؤامرات ضدّ الحريات السياسية والاجتماعية والفكرية على السواء ،
فهم من أسرع المتطوّعين ضدّ الحرية السياسية مفتين بأنها ضلال وفتنة ،
وهم في طليعة المقاومين للحرية الاجتماعية كاختلاط الجنسيتين على زعم أنها
مفسدة للأخلاق ، وهم خصوم الحرية الفكرية بدعوى أنها إلحادٌ وبيدل
وطعنٌ في الاسلام ؛ فيجب أن تقننه مصر المستقلة الى كل هذا ، ويجدر بها
أن تحرص على سمعتها من قديم باعتبارها مثابة الأحرار والمفكرين غير آبهة
لتنطع أولئك الجامدين .

إن حرية الرأى لا يجوز أن يُفرض عليها أى عقاب . حُدّ مثلاً
الأدب الإلحادى الذى قد لا أرتضيه ولا ترتضيه ، فإنّ هذا الأدب لا
يجوز أن يُمنع بتاتا إذ يهمننا أن يكون إيمان الناس عن اقتناع لا

عن إرغامٍ أو تقليدٍ ، ولا يعنى الوطن سوى أن يكون أبناؤه بررةً به ،
وأما الدينُ فأمرٌ خاصٌ بكل منهم وهو صلةُ الانسان بالخالق فعليه وحده
تبعات ذلك وليس على الدولة بأى حال . واذا نظرنا الى الاسلام بالذات فأتى
أعتقد أن نشر الأدب الالحادى مما يخدم الاسلام عن طريقين : أولهما النقاش
الفكرى المفيد الذى يثيره ، وثانيها أنه يقلم أظافر الفقهاء الذين يتوقون من
وقت لآخر الى خلق بابوية فى الاسلام مع أن من أكبر ميزات الاسلام
ابتعاده عن نظام التساوسة والبابوية . وعلى هذا أرى أن الأدب الحرّ به
الدين نفسه هو المستفيد باطلاق الأقلام من عقاها وتنشيط حرية الرأى
الى أبعد الحدود فى دائرة القانون العام .

وإذا كان الناسُ يهتئ بعضهم بعضاً بهذا الدستور الراقى من الوجهة
السياسية فإن التهئة به من الوجهة الفكرية لا يجوز أن تكون دون ذلك .
فنحن على الأقل نضمن الآن أن لا يحدث فى بلادنا نظيرُ ما حدث لتشارلس
برادلو وجولد المفكرين وشيلى الشاعر فى انجلترا ، وإن كانت حرية الفكر فى
انجلترا قد بلغت الآن الذروة دون أن تبالى بتفقيح قانونها العتيق ، فكأنما التقاليد
الحرّة التى تفرضها البيئة الانجليزية الحديثة هى بمثابة القانون المكتوب المنقح .
وقد رأيتُ الناسَ يهتمون بتعرّف حدود السلطات المختلفة فى الدستور
المصرى من الوجهة السياسية ، ولهم أن يتعرّفوا هذه الحدود من الوجهة
الفكرية فإن خطر ذلك ليس أقلّ أثراً . نعم علينا أن نتعرّف ذلك جيداً
وأن نحسن استعمالَ هذه الحرية ، وفى الوقت ذاته لا يجوز أن نجامل فيها
ويجب أن نغار على حرية خصومنا فى الفكر كما نغار على نفس حريتنا ، فهذه
هى الروح الدستورية الصحيحة . وإنّ مَنْ يهرعون الى مقاومة هذا الرأى
أو ذاك مقاومةً المنع أو الاضطهاد سواء أكان الرأى سياسياً أم دينياً أم
اجتماعياً أم فلسفياً أم غير ذلك بحجةٍ من الحجج لقوم لا يفهمون من روح
الدستور شيئاً ولا يستحقون أن ينتسبوا الى الديمقراطية . وإذن فالواجب على
كل مصرى مخلص لوطنه وللحياة الدستورية أن يقيم من نفسه حارساً على
حرياتها وأن يرتضى لغيره ما يرتضيه لنفسه ، وكلُّ مساومةٍ على هذه المبادئ
الاساسية خيانةٌ لأقدس ما يعتز به الوطن .

فلسفة اللاأدرية

قرأتُ مرةً لأحد المتحمسين من رجال الدين أن فلسفة اللاأدرية ليست من الفلسفة في شيء وإنما هي صورةٌ لوساوس الشيطان ومظهرٌ للمعرفة الضيقة . ولمناسبة ما يتكرر الآن ذكره عن اللاأدرين في بعض الصحف والمجلات الأدبية خطر لي تحجيرُ هذه السطور تعريفاً بهذه الفلسفة وإنصافاً لها من بعض الوجوه وإن لم أكن من مشايعها جملةً ولا من مقدري منطقها النسبي . وأولُ ما يخطر لي تقريره هو أن فلسفة اللاأدرية فلسفةٌ علميةٌ أو على الأقل علميةٌ الروح لأن أصحابها بعيدون عن المسكورة والابهام والأوهام بالنسبة إلى سواهم ، فهم لا يترددون في الاعتراف بمجزمهم وقصورهم إذا لم يستطيعوا تفسير لغز الوجود التفسير التام ، وهم يؤثرون هذه الصراحة على التخبط في الأخيصة الجامحة والأوهام الشعرية . ومن أجل هذه النزعة الشريفة على الأقل يستحقون منا الاحترام ، وإن لم يسلموا كذلك من التناقض في تفكيرهم .

يقول القس بوتيير في (كتاب الفلسفة) (١) : « الارتباب هو حالة التردد حيث يجد الفهم أسباباً كافية تصده عن إيجاب قضية أو سلبها ، وقد جعل بعض الفلاسفة القدماء كل الحقائق خاضعة للارتباب منهم هيراقليطوس وأرجيزلاس وكاريناردس ، فهؤلاء كانوا يزعمون أن الفهم البشري لا يستطيع إدراك الحق بتأكيده، وكانوا يدعون أكاديميين نسبة إلى محل اجتماعهم المسمى أكاديميا ، وغيرهم كان يذهب في أثر الحق فلا يدركه أو إن شئت فقل لا يسلم به لو أدركه . فن هؤلاء بيرون وسيستوس امبيريك ، ومن المحدثين مونتان وبييل وهوم . ولما كان بيرون أشهرهم عم اسمه على مذهبهم ، إلا أن القسم الأكبر والأكثر شهرة من الفلاسفة قد أدرك الحق واعترف به في دواعي شتى ، فن هؤلاء أريسطوطاليس وزنيون وأبيكوروس فكانوا يدعون إذذاك أهل العقائد نسبة إلى عقيدة باليونانية ، وجلاء الأمر هو أن من المواد ما يخضع للشك ومنها ما يتنزه عنه فيكون صدقاً مبيناً لا ريب به . » وقال في موضع آخر : « إن المعلم ديسكارتوس (ديكارت) المولود في تورين سنة ١٥٩٦ قد أحسن الدراسة ولم يكن ليقنع إلا قليلاً بالمبادئ الفلسفية

(١) أنظر ترجمته طبعة بيروت سنة ١٨٨٣ بقلم جرجس صعب .

الكائنة حينئذ ، فأراد أن يعترض عنها بغيرها وحوال أن لا يسلم بأمر كحقيقى ما لم يكن بينا بذاته أو ناتجاً باستقامة وصوابية عن الصدق المبين ، فارتباه هذا يعرف بالارتباب المنطقى . ولكن المحقق المشار اليه قد التزم بترك هذا الارتباب بازاء البرهان الآتى وهو : (أنا مفكر ، لأن الارتباب فى كونى مفكراً هو فكر ، وذلك بين ، فاذن أنا مفكر . والفكر يستلزم الوجود فاذن أنا موجود ، إلا أنى لست كائناً عن مسمى طبيعى لأنى لست كاملاً ولم أعط نفسى الكيان لأن ذلك يستلزم أن أكون قبل كيانى . فاذن كيان آخر أوجدنى ، وذلك الكيان هو لازم الوجود ضرورة ، إذ لا معنول دون علة فأنا معلول ، إذن هناك علة لا علة لها أو علة ابتدائية ومبدأ لكل المعلولات . وهذه العلة كائنات من ذات طبعها السامى وهى غير محدودة فى كمالاتها ، لأنه لا يقدر كيان آخر أن يضع حداً لكمالها إذ أن ذلك يفترض إمّا كياناً متقدماً عليها ومعاصراً لها ، والحال هى العلة الأولى فلا علة لها ، وإمّا أن تكون هى ذاتها رسمت حداً لكمالها . والحال أنه مما يصادف الصواب والطبيعة أن الكيان القادر أن يتسع بكمالاته على مراده وأن يجعلها غير محدودة يختار أن يخضعها لحداً . فصحّ إذن أنه توجد علة أولى وهى غير محدودة فى كمالاتها ضرورة فهى الله تعالى . ومن ثم فالوجود الإلهى بين ولزم ، وهذا الآله هو ضرورة ذو حكمة وحقانية لاحد لها وهو غير قابل الخداع طبعاً ، وبالتبعية فهو غير مريد أنى أعقد على حقيقة وجود العالم المادى لو لم يكن العالم حقاً كائناً ، فاذن العالم المادى موجود . فمن كذا مبدأ أخذ ديسكارتوس ، واستناداً عليه لم يرتب هذا الفيلسوف قط فى الحقايق المعلنة التى كانت عنده ذات مرتبة سامية يصدقها لأنها صادرة عن ينبوع الحق فهى غير خاضعة للارتباب . »

هذا ما يقوله القسّ بوتيير ، وبمباراة أخرى ما يفهمه رجل الدين المنتقف من فلسفة اللاأدرية أى الارتباب . والحقيقة أن ديكارت كان رجل الفلسفة الروحية المطمئنة بالمنطق الرياضى لا رجل الارتباب . وإنما هذا الرجل المرتاب هو هيوم الذى ذهب الى أن الرياضيات نفسها ليست يقينية وأن غاية ما يمكن فرضه لأى شىء هو الاحتمال ، وليست حياتنا إلا مجموعة من

التجارب والاحساسات ، فدراسة هيوم تعطينا نموذجاً للفلسفة اللاأدرية . وهو صريحٌ في اعتقاده بأنه لا يمكننا أن نجد عقلاً مستقلاً عن الاحساسات ، فاذا ذهبنا الى الاحساساتُ فما للعقل وجود ، وأن أي فكرة ليس لها أثر مستقل واضح يعين مصدرها فليست فكرة صادقة ، وعلى هذا فالمصدر الوحيد للمعرفة الحقيقية عنده هو التجربة الحسية الواقعية . وقد فات هيوم أن ما يعدّه احساساً واقعياً قد لا يتجاوز عند شخص من الأشخاص بالنسبة لأعصابه ومشاعره الإحساس الوهمي الصرف أو المتدرّج . وعلى هذا الاعتبار فالاحكامُ والحقائقُ عرضةٌ للاختلاف تبعاً للاحساسات المختلفة عند شئى الناس . وهذا التناقضُ في فلسفته جديرٌ بها وجديرةٌ به ما دامت قائمة على الارتباب والشك واللاأدرية ! وربما كانت الفلسفة الواقعية التي يمتدحها سنتيانا في وقتنا هذا أصدق تمثيل وليدة الفلسفة اللاأدرية الى حد ما وإن لاحت عكسها ، وهى على كل حال أجدى على الانسانية لأنها تعنى بجواهر الأشياء وتسلم بوجود حقائق فوق الادراك والدراية ، ولأنها تبشر بأن الخير للوجود هو في رياضة العقل رياضة متسامية .

(١٩٢٣)

سر النجاح

لا أظنّ أديباً من أدباء العربية يجمل كتاب (سرّ النجاح) الذي وضعه صموئيل صميلز وعرّب به الصديقان العلاّمتان الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر ، ولكن هذا الكتاب فيما أعلم غير متداول في مدارسنا المصرية مع أنه أولى بالذبوع فيها من كتاب (أدب الدنيا والدين) ، ولا أقول هذا خطأ من قدر الأخير ولكن من التأليف الحديثة أو الحديثة نسبياً ما هو أصلحُ للتنشئة الحديثة ، وفي مقدمة هذه التأليف كتاب (سرّ النجاح) الذي وشّاه الدكتور صروف والدكتور نمر بالكثير من الاضافات والأمثلة التي تناسب بيئتنا الشرقية فجاء فريداً بين كتب التربية المثالية .

يقع هذا الكتاب (وعندى منذ سنين الطبعة الثانية منه) في ثلاثة عشر فصلاً ،

وهي تتناول الاعتماد على النفس ، وأرباب الصنائع ، والخزافين الثلاثة العظام ، والمزاولة والثبات ، والفُرص ومعدّات النجاح ، والمصوِّرين والنقاشين ، والعمل وذوى السيادة ، والنشاط والشجاعة ، ورجال الأعمال ، واستعمال المال ، وتهذيب الانسان لنفسه ، والقُدوة ، والأدب واللفظ . وليس في إمكانى لتصوير مزايا هذا الكتاب في مثل هذا المقال الوجيز سوى عرض نجبة من الآراء الناضجة فيه ومناقشة بعضها .

فأما عن الاعتماد على النفس فمحور اهتمام المؤلف هو الاصلاحُ الشخصى إذ أن أفضل الشرائع لا يجدى الانسان نفعاً أكثر من جعله حراً ليعتمد على نفسه وينكب على إصلاح شأنه ، وما حكومتُ الشعب سوى صورة أفراده فاذا فاقت الشعب لم تلبث أن تتقهقر اليه واذا انحطت عنه لم تلبث أن ترقى اليه ، وهذا ما يجب أن لا يغيب عن بالنا في هذا العهد الجديد من الاستقلال والدستور . وقد صدق المؤلفُ في ملاحظته أن الغيرة الوطنية لاصلاح الوطن يجب ان تُبذل في إصلاح سياسته وشرائعه بل في إنهاض أهله لكي يُصلحوا شأنهم بيدهم ، فان الاستبداد لا يضرّ كثيراً ما دام كلُّ شخص مستقلاً بنفسه ، ولكن كل ما يحطّم الاستقلال الشخصى هو استبداد مها اختلفت أسماؤه ، على حدّ تعبير جون ستورت ملّ . والاختبارُ اليومى شاهدٌ بأن قدوة المجتهدين تؤثر في غيرهم تأثيراً قوياً يفوق تأثير العلوم ، بل ما من علمٍ يؤثر في حياة الانسان مثل العلم الذى يراه يومياً في البيوت والشوارع والحقول والمعامل . والغنى والراحة ليسا ضروريّين للنجاح ، وإلا لما كان الناسُ مديونين دائماً للذين نشأوا من أدنى الرتب وإن كان لا يُنكر أن الانسان يحتاج أيضاً الى مَنْ يعصّده ويُعينه ، والغلاصةُ أن القواعل التى تفعل بأخلاق البشر كثيرة فمنها العلم والعمل والقول والقُدوة والأصحاب والجيران والدنيا وسكانها من حاضرين وغايرين ، ولكن مها كان لهذه القواعل من التأثير الشديد يبقى سعىُ الناس واعتمادهم على أنفسهم أقدر على رفع شأنهم من كل القواعل الخارجية .

وأما عن أرباب الصنائع فقد أصاب المؤلفُ بملاحظته أن العمل لا يحط من شأن الانمان ولو كان أذكى الناس عقلاً وأوسعهم علماً . وذكر أن

حجة الصناعة صفة من أشهر صفات الشعب الانكليزي فقد امتازوا بها في الأزمنة الغابرة كما هم ممتازون الآن ، فتوطدت أركان مملكتهم باجتهد طامتهم وازدادت عظمة أمتهم باجتهد آحادهم سواء كانوا من حارثي الأرض أو صانعي الأمتعة أو حاملي الآلات أو مؤلفي الكتب . ولم يقتصر اجتهادهم في الأعمال على ترفيتهم بل أنقذهم من شر ما وقع في سياستهم وشرائعهم من الخلل حيناً بعد حين وهذب أخلاقهم ونظّم أحوال مملكتهم . وأودّ أن أضيف الى ذلك أنه صحب هذا التهذيب نشوء نزعة إنسانية في السياسة الانجليزية والحياة الانجليزية ليست معهودة بهذه الدرجة في أيّ أمة أخرى وخاصة في الأمم الكبيرة التي لها مستعمرات إذ هذا محكّ الامتحان للنزعة الانسانية ، وها قد رأينا ما صنعته إيطاليا أمة الفنون والآداب في طرابلس ، وما صنعته البلجيك المتحضرة في الكونغو ، فان أعمالها الاستعمارية أبعد ما تكون عن الروح الانسانية . ولكن انكثرا المنقفة العظيمة التي ربت نفسها بنفسها بفضل ظروفها ودمها وشؤونها عرفت ضبط النفس والاحساس بالمسؤولية نحو الحضارة الراهنة واصلاح البشرية بما لم تبلغ مستواه أية أمة أخرى دون أن أستثنى أمم الشمال كالدينمارك والسويد والنرويج المشهورة بفرديتها فحسب ، وأصبحت تنبرأ فعلاً لا قولاً فقط من تاريخ القسوة الاستعمارية . وإذا التفتنا الى أنواع الصناعات التي أغنت الأمة الانكليزية وميزتها بين الممالك المتعدنة رأينا أنها ابتدأت عن أيدي أناس من العملة والصنّاع ، وهذا يدلّ على اهتمام الأمة في روح ديمقراطية صادقة باعطاء فرص النبوغ والنجاح لكل فرد من أفرادها كما أن كل فرد من أفرادها يشعر بأن عليه واجبات مقدسة نحو المجموع (أنظر كتاب « سر تقدم الانجليز السكسونيين ») .

وأما عن المزاولة والنبات فملوّف يلاحظ أن أكثر الأعمال العظيمة تمتّ بالوسائل البسيطة وباستخدام القوى الاعتيادية ، وفي سبيل الحياة العام فرص كثيرة للاختبار بل أن طرق الحياة المطروقة أكثر من غيرها تولى المجتهد قوة كافية ليسعى في إصلاح شأنه ، والنجاح منوطٌ بناصية النبات والاقدام فأكثر الناس نباتاً وإقداماً أكثرهم نجاحاً . وكثيراً ما عَدَّ الناس السعدَ أعمى وما العمى إلاّ هم ، فانا إذا أمعنا النظرَ في أحوال أهل الأعمال رأينا أن السعد لأكثرهم اجتهاداً ، كما أن الرياح والأمواج توافق الناخذة

الماهر ، بل إن أسمى مطالب البشر يمكن البلوغ إليها باستخدام القوى الاعتيادية كالانتباه والاجتهاد والمواظبة ولا لزوم لما يسمونه قريحة أو موهبة فائقة ، على أن القريحة وإن كانت من أسمى القرائح لا تنافي القوى الاعتيادية ولا تزدري بها . ولي أن أضيف أن التكيف مع البيئة سندٌ عظيمٌ للمزاولة والنبات ، فاذا سبق الانسان بيئة أو لم تطاوعه نفسيته على التكيف معها فمن العسير بل ربما كان من المستحيل إحرازه النجاح المادى وإن أصاب شيئاً من النجاح المعنوى قد يكون وحده لذته وعزاه وسعادته . هذه لمعةٌ من بعض فصول الكتاب وكلها آياتٌ في الرجاحة .

(١٩٢٣)

الأخلاق وهربرت سبنسر

يُعدُّ كتاب (التربية) لهربرت سبنسر Education by Herbert Spencer الذى نقله الى العربية بأسلوبه الرصين صديقى الأديب الألمى محمد السباعى حينما كان محرراً بصحيفة « الجريدة » - وذلك لحس عشرة سنة - من النفائس التى يجب أن يقبس منها رجالُ التعليم والتربية فى الشرق العربى إذ ليس كتابه مقصوراً على البيئة الانجليزية فحسب ، فما كان سبنسر بتعاليمه ووقفاً على أمة من الأمم كما تدل على ذلك مؤلفاته المتعددة فى السيكولوجيا والفلسفة والاجتماع والأخلاق والتربية .

ينبه سبنسر الى أن الطبيعة تعاقب الانمان على قدر غلظته وكان عقابها ثواب لأنها تقبه شرّاً التكرار والوقوع فى غلط أعظم ، ثم يقول : « فما أجدر الآباء أن يجعلوا عقاب الطفل المسىء نتيجة ذنبه وعاقبة جرمه لا يزيدون فيها ولا ينقصون ولا يبدلون بنتائج متكلفة وهواقب مصنوعة . وقد ينتصر للآباء مَنْ يقول ما عقوبات الآباء لأطفالهم الاّ طبيعية ، وماهى الاّ نتائج سيئاتهم ، وماذا يكون غضب الوالد وشتمه الطفل وضربه إيتاه إلاّ العواقب الطبيعية لما جناه واقرّفه ، فأقول ليس قولك هذا بحق صريح وإنما باطل مشوب بشيء من الحق ، ولا أعارضك فى أن غضب الوالد أو الأم عاقبة طبيعية لاساءة الطفل وأن ما يحدث

ذلك الغضب في نفس الطفل من لوازع المضض ولو ادغ الندم هو وازع قوى للطفل ، ثم أقول بعد ذلك إنَّ وعيد الآباء للأطفال وشتهم لهم وضربهم إياهم ربما كان غير مستنكر في حالة واحدة أعني بها حالة الآباء السبئي التدبير مع الأبناء الأشراس ذوى العقوق والعصيان ، وقد قدّمنا أن نظام التربية كنظام الحكومة كلاهما يلائم طباع المحكومين ، فالأطفال الفظاظ الأخلاق أبناء الآباء الفظاظ المعاملة لا ينقادون إلاّ بالوسائل القظة ، وخضوعهم لتلك الأحكام القظة أعظم مرشّح لهم للجهد في معترك الحياة القظة التي لا بدّ لهم من مكافحة أهوالها . أمّا أهل الطبقة المهذبة فلن تجدهم يسلكون بأبنائهم ذوى اللين والدمائة إلاّ كل خطة دمنة كفيّة تهذيب الطفل وتأديبة . ومن هذا نرى أن سبنسر لا يرى أنه في الامكان تكييف الأخلاق تكييفاً صالحاً إلاّ بالوسائل الطبيعية ، وهو ينعت العقوبات غير الطبيعية بالعقوبات « الأجنبية » ويعتبر من فضل الخطة الطبيعية أنها تفتن الغلام الى إدراك الأسباب والنتائج ، فاذا لزما عاد ذلك الإدراك قوياً كاملاً ، وخيرٌ للمرء أن يفهم العواقب عن خبرة من أن لا يزال يحذرهما من مؤدبه ، وكذلك لا يمنح الطفل على والده إذا علم أن العقاب لم يحدث منه مباشرة بل رأى أن الوالد ما زاد على أن كان منفذاً لعقاب الطبيعة ، ولكنه يمنح على والده ويمقته إذا وقع منه العقاب مباشرة بالضرب أو الحبس . على أنه يجب منع الطفل قطعياً إذا كان فيما يحاوله خطرٌ كبيرٌ كاتلاف عضو من أعضائه أو نحو ذلك ، فيجب أن تتّبع خطة التحذير والنصح لا خطة المحافظة والاحتياط ، ولا تخلو هذه الخطة من إحداث محبة بين الوالد والولد أقوى وأشدّ مما هو كائن الآن بين معظم الآباء وأبنائهم .

ويقول سبنسر : إقنع في تربية أخلاق الطفل بالسياسة الرقيقة والخطة الوسطى ولا تولع بالجهد العنيف والمذهب الاسمي ، واعلم أن المرتبة العالية في معارج الأخلاق لا تُبلغ إلاّ بالأناة والرفق ، فانك إذا علمت ذلك كنت حريصاً أن لا يُخرج صدرك ما لا يزال يبدو لك من عيوب الوليد وكنت قيناً أن تقلّ من وعيدك ومثلين من قسوتك عليه مما يوغر صدره عليك ويغذو ضعيفته لك فاحفظ ذلك واجتنبه ما استطعت ، واعلم أن من أنجم الوسائل في تهذيب الطفل أن تعدل به طُرق الاستبداد الذي يحدث في النفوس الطيّعة خشوع الذلّة وفي الآية شغب المغالطة ، ثم لا تنسَ

ما يقتضيه إيقاع العقاب الطبيعي من تسكين غضب المؤدب . ولقد يسوءنا أن ما يأتيه معظم الآباء من تأديب الغلام إنما هو إلقاء غضبهم على الأفعال بأي صورة يخرج منها ذلك الغضب . فاللطم والدفع والشم الذي يفيضه المؤدب على غلامه إنما هي دلائل غيظه وأحق بأن تكون من وحى الاحتياط لا من رغبة في إصلاح الطفل . فإذا تأنتى المؤدب بعد وقوع الذنب برهة قدر أثناءها العقاب الطبيعي ووزنه كان له من تلك البرهة مسكنٌ لغضبه فضبط نفسه ومملك زمامها فسكنت ریحُ جهله ووقع طائرُ شره ثم ينبغي عليك أن تعامل كل طفل بحسب طبعه ، ثم تغير في معاملته متى آنت في طبع الغلام تغيراً وانتقالاً الى طور جديد ، ثم يجب عليك مع ذلك أن تلتفت الى نفسك فتزهرها عن العناد والاستبداد وحب السلطة . بلى ، انه ينبغي لك أن تقرر ان تأديب غلامك تأديب نفسك ، فاذا فعلت ذلك عادت مساعيك بالنفع لك ولغلامك .

يعدُّ هربوت سبنسر بحق من أعظم الفلاسفة العلماء في القرن التاسع عشر ، وهو أصيلٌ في ملاحظاته عن التربية الخلقية كأصلته في جميع مباحثه ، ومن أهمها آراؤه في الخلود الذي يتمثل في تحويل المادة الى طاقة بدورها الى مادة ، وهكذا يسير العالم في نظام دوري لا يفنى . ونظريته عن النتائج الطبيعية في التربية Theory of Natural Consequences لها بلا شك قيمتها ، ولكن العقاب الطبيعي الذي يعلق عليه كل هذه الأهمية قد يختلف اختلافاً كبيراً في وقوعه وفي مداه وفي عواقبه ، فمن الخير إذن أن لا يُعتمد على الطبيعة في مغالاة ، وأعتقد أن سبنسر نفسه يقدر ذلك ويشير اليه (١) . وعندى أن أهم أثر لسبنسر في التربية الخلقية دعوته الى تقدير السعادة في المصلحة المشتركة بتحقيق الانسجام بين طوائف الانسانية وتبنيانه أن تضحية هذا الانسجام معناه التمهيد لخراب البشرية لا لشقاها بحسب ، ولهذا الآراء خطرهما في الأدب الانساني .

(١٩٢٣)

أبراهام لنكن

يسجّل التاريخ بين العظماء الساسة البعدي النظر كافور موحد إيطاليا ولنكن موحد الولايات الأمريكية ، بيد أن لنكن صاحب فضل أعظم لأنه في الوقت الذي عمل على توحيد أمته نصر قضية الحرية وقضى قضاء تاماً على الرقّ في بلاده ، فكان سلوكه قدوةً للامم الأخرى المتحضرة .

وقد نشأت في الولايات المتحدة سنة ١٨٣٣ م . جمعية انسانية لتحرير السود المستعبدين وبذلت جهوداً قوية لهذه الغاية ولكن الولايات الجنوبية كانت حريصة على بقاء الرقّ لأسباب اقتصادية أُنانية . وما جاءت سنة ١٨٦٠ إلا وكانت مسألة إلغاء الرقّ أو بقاءه الشغل الشاغل للبلاد . ولكن في هذه السنة ظفر أبراهام لنكن بأغلبية الأصوات للرئاسة على أساس إلغاء الرقّ وتحرير العبيد ، وبدل أن ترضخ الولايات الجنوبية لحكم الأمة عامة كما تقضى بذلك الروح الدستورية لجأت الى حركة ثورية انفصالية لا معنى لها ولا نتيجة سوى القضاء على هيبة الولايات المتحدة وقوتها كأمة عظيمة . وعلى هذا انشقت الأمة الى شقين : الولايات الشمالية برئاسة أبراهام لنكن ، والولايات الجنوبية برئاسة جفرسن ديفز ، وشعار الأولى المساواة الانسانية والحرية والاخاء ، وشعار الثانية حصر هذه المبادئ في البيض واستبقاء الرقّ للسود .

وكان لنكن من صميم الشعب ، وقد ثقّف نفسه بنفسه ، وكان لوالده الفضل في تعليمه القراءة والكتابة في سن مبكرة فاستطاع أن يطّلع اطلاعاً وفيراً منذ نشأته الأولى . واشتغل في أعمال صغيرة متنوعة لم تحل دون ثقافته الذاتية التي شملت في حدائته شكسبير وبيرونز وتواريخ الأعلام وفي مقدمتهم واشنطن وتاريخ الولايات المتحدة ، وكان الى ذلك كاتباً وشاعراً . غير أنه ما لبث أن اجتذبه السياسة فلم يبلغ الخامسة والعشرين (سنة ١٨٣٤) إلا وكان عضواً في مجلس النواب عن مقاطعة إيلينويس . ولم يكتف بذلك بل درس الحقوق وانخرط في سلك المحاماة سنة ١٨٣٦ واشتغل بها زمناً أكثر من اشتغاله بالسياسة . ثم تطوّر هذا العصامي النابغة فاهتم بكبريات المسائل التي تشغل وطنه وفي مقدمتها مسألة الرقّ أو النخاسة . ومن مصادفات

القدر أن لنسكن أحبّ الألسنة ماري طود (وقد تزوج منها في سنة ١٨٤٢) بينما كان يحبها كذلك السناتور دجلاس خصيمه السياسي الذي كان ينادى بإبقاء نظام العبيد . وربما كان لذلك العامل الوجداني أثره في اشتعال تلك الخصومة بينهما . وكان دجلاس من ذوى الصكرامة والمواهب الفكرية والذلاقة البيانية .

وكان في مجلس الشيوخ زعيم الحزب الداعي الى التوسّع في الاسترقاق بحيث يشمل رقّ السود الولايات الشمالية أيضاً لا الجنوبية وحدها ، وبذلك كانت المناقشة بينه وبين لنسكن متغلغلةً قويةً . ولبت الاثنان يتصارعان بالقلم واللسان حتى جاءت المعركة الانتخابية لرئاسة الجمهورية في سنة ١٨٦٠ فكان للنسكن القدح المعلى وانتخب رئيساً في ٤ مارس سنة ١٨٦١ ، ومن ثمة بدأت الحركة الانفصالية بين ولايات الشمال وولايات الجنوب حتى تطورت الى حرب أهلية بضرب الجنوبيين لحصن سمر Fort Sumter في ١٢ أبريل سنة ١٨٦١ . ولبتت الحرب أربع سنوات أتت فيها على الأخضر واليابس والزرع والضرع كما لبتت الحرب الأوروبية الأخيرة وقد أطالتها براعة قيادة الانفصاليين تحت إمرة الجنرال لي Lee كما أطالت الحرب الأوروبية براعة القيادة الألمانية . وفي مدة هذه السنوات انقسمت الآراء وفترت العزائم وقاسى الناس أمراً الشدائد وواجه لنسكن الخذلان مراراً من أقرب المقرّبين اليه ، ومع ذلك لبت لنسكن تمثال العزيمة التي لا تقهر في إصراره على التغلب النهائي على الحركة الانفصالية بما يصون للأمة على الدوام وحدثها وعزّتها .

ولما انتصر لنسكن نهائياً في أوائل سنة ١٨٦٥ كانت فكرة الانتقام أبعد الأشياء عن ذهنه ، وكان همه المصالحة والتعمير ، ولولا اغتياله المفاجيء في مسرح فورد في منتصف أبريل سنة ١٨٦٥ بيد ممثل حاقدر عليه ، لكانت روحه المتصوّفة المتسامحة عاملاً هاماً في التنفيذ السريع لسياسة الانشاء التي دان بها ولأفاد أمته أجلّ القوائد من أقرب الطرق . وبعد ، فإن سيرة هذا البطل الأنساني لتلهمنا الدروس الآتية : —

(١) أن الروح الانسانية الشعبية متى وجدت القيادة القوية الخُلصة فلا بُدّ لها من الانتصار في النهاية .

- (٢) أن إحقاق الحق يؤخره تخاذلُ المنقذين أو عجزهم ولو كانت القيادة العليا صالحة ، وهذا سبب استمرار هذه الحرب الأمريكية مدة طويلة .
- (٣) من أعظم صفات الزعامة ساعة النصر حبّ التسامح والتعمير .
- (٤) وحدة الأمة يجب أن تكون الدعامة الراسخة لعزتها القومية وبأمرها .
- (٥) الأناية الطائفية لا تتفق وتكوين أمة عظيمة .
- (٦) قد تستغنى العبقرية العصامية بذاتها عن عون كثير ، وقد تكفيها نزاهتها المطلقة لاجتذاب الناس في أشد الظروف .
- (١٩٢٣)

•••••

مونتسكيو وروح القوانين

من ذا يصدّق أن كتاب مونتسكيو الخالد (روح القوانين L' Esprit des Lois) الذي يُعدّ من أنفس الكتب العالمية هو بعينه الكتاب الذي أشارت لجنة أدبية من أصدقائه الأعلام النقاد في عصره بأمره ١٩ إن هذا الحادث الأدبي التاريخي يجب أن يبقى عزاء المؤلفين النابيين الذين لا ينصفهم أقرانهم عن قصور في التقدير سببه الألفة أو غير ذلك ، ويجب أن يُلهم الكاتب الذي يؤمن بنفسه ورسالته الثقة العميقة بعمله فلا يغفل إكراماً لعبون النقاد الذين ربما لم يصلوا إلى مستوى ذكائه وإشعاعه .

يُعدّ مونتسكيو أول أديب انساني ثائر على البيئة المتعقّنة التي خلقها حكم لويس الخامس عشر ، فان هذا الملك كما قيل ورث جميع مساوىء جده الأكبر دون أن يرث شيئاً من محامده في السياسة والوقار ، فاذا بفرنسا تعاني شر أنواع الحكومات الاستبدادية وما يصحبها من إرهاب الضرائب وانعدام العدالة للفقراء وضياع حرية الخطابة والكتابة وذهاب الإدارة الصالحة حتى أن النبلاء أنفسهم فقدوا اهتمامهم بالمآثور بالأدب ، وحتى أن الكنيسة ذاتها كادت تطرح اهتمامها برسالتها الدينية ، وكان الجيشُ جائعاً مخزراً مما

أدّى الى إتباع انتصارات القرن السابع عشر بانهزومات القرن الثامن عشر لفرنسا . وفي هذا الجوّ بدأ مونتسكيو حملته الرائعة على هذه البيئة في صورة رسائل عنوانها « الرسائل الفارسية » *Lettres Persanes* على اعتبار أنها من أقلام سائحين من الفرس وافدين على باريز ، وهي مكتوبة بأسلوب رشيق فكّه ، وفيها من الأوصاف العجيبة لمفاسد الحياة الفرنسية ما لا تجود به إلاّ براعة عبقرى ، ولم يكتف بالتحليل والوصف بل شفع ذلك بالمشورات القيمة عن علاج تلك الحالة . وقد طبعت هذه الرسائل سنة ١٧٢١ في مدينة أمستردام ولو أنه ذكر على الغلاف اسم مدينة كولون زيادةً في الاحتراس ، ولم يُذكر عليها اسمه إذ أنه لم يدع شيئاً من الحياة الفرنسية الاجتماعية أو السياسية أو الدينية أو الأدبية في عهده إلاّ سخر بما فيه من عُيوب أشدّ السُّخر . ونالت هذه الرسائل شهرةً فائقةً بين الجماهير حتى أنها طبعت أربع طبعات في سنة واحدة الى أن مُنع تداولها مدة تسع سنوات . وصحيح أن فولتير حاول كعادته انتقاص هذا الكتاب النقدي الذي يُعدّ بداية « الحركة الفلسفية » في فرنسا (*Philosophe Movement*) كما تُنعت ، وصحيح أن مثل فلورى *Fleury* وقف حجرَ عثرة بسبب هذا الكتاب في سبيل دخول مونتسكيو في الأكاديمية الفرنسية سنة ١٧٢٨ ، ولكن مواهبه الأدبية تغلبت على كل انتقاص فدخل الأكاديمية بالفعل . وعلى أثر ذلك ساحَ سياحةً طويلةً في أوروبا دارساً أحوال شعوبها حتى انتهى به المطاف الى انجلترا وفيها أقام نحو عام ونصف عامٍ معجباً كلّ الاعجاب بالأخلاق والآداب الانجليزية التي اقتبس منها الكثير في عاداته لدى عودته الى بلاده . وفي الواقع إنّ من يعاشر الانجليز كما حاشرتهم يدرك أنّ الشعب الانجليزي ممثلاً في سياسة حكومته التقليدية هو بعينه الشعب الانجليزي ممثلاً في أفراده من حيث أنه لا يوجد لانجلترا صداقات دائمة ولا عداوات دائمة كما قال بالمستون وإنما ما يعينها رماية مصالحها ، وعلى هذا تبني خططها ومحالفاتها وخصوماتها ، ولكنها جميعاً وقتية حسب ما تمليه مصالحها وحدها ، غير أنه الى جانب كلّ هذا توجد نزعة انسانية متأصلة في العنصر الانجلوسكسوني ترمي الى التعمير والاصلاح والقضاء على النخاسة وحب الخير ، وقد تدرجت هذه النزعة حتى بلغت قمتها في الوقت الحاضر ،

ومن السننها الأدبية المفصحة ف. ج. جولد F. J. Gould و ه. ج. وز
H. G. Wells . فهذه النزعة الاصلاحية الانسانية وحب البر والاتزان
في المعيشة والروح المسيحية الصادقة المحببة للسلام والكارهة للعنف
تجعلنا نفهم سياسة انجلترا التقليدية التي أعلنها بالمرستون فهما آخر غير
ما يُظن لأول وهلة من أنها سياسة أنانية — ذلك أنها لا تعنى أكثر من
الاعتدال والاتزان وتحكيم العقل بدل الأهواء مع تمتشي كل ذلك والروح
المسيحية الانسانية التي تتجلى في المنزل الانجليزي كما تتجلى في المجتمع الانجليزي
وفي السياسة الانجليزية ، بحيث تفرض انجلترا على نفسها أن لا تتدخل فيما لا
يعنيها الا اذا مس ذلك مستقبل البشرية ، وهذا بالضبط حال الفرد
الانجليزي الذي قد لا يفهمه الغريب عنه ولكن يفهمه ويعجب به من
عاشره طويلاً كما عاشرته ، وهو الآن خير من أجداده في عهد مونتسكيو .

اقتبس مونتسكيو هذه المبادئ وتشيع بها ثم عاد الى بلاده فكان من
أثر مشاهداته وتأملاته وثقافته الواسعة وضعه كتاب (روح القوانين) الذي
نحن بصددده ، متنازلاً عن شهرته السابقة كمنقّاد فكر ومنكباً على خدمة
الأدب والحق الانساني بأوسع المعاني . وهو يقابل لوك Locke في انجلترا
من وجهة العمل على محاربة الأفكار السخيفة والمبادئ الخاطئة والجهالات
القاسية التي كانت تحول دون تنظيم المجتمع الانساني على أساس معقول ،
بحيث أن الأجيال التي جاءت من بعده منذ منتصف القرن الثامن عشر وجدت
من بحوثه مادة عظيمة وأساساً متيناً للبناء عليه بعد ما بذله من جهد
كبير للتنقية الفكرية . وإن ننس لا ننس نشوء الجماعة الفكرية المعروفة
باسم « الانسيكلوبيديين » (The Encyclopaedists) سنة ١٧٦٦ تحت زمامة
ديدروه Diderot بقصد التنظيم الاجتماعي الجديد والاصلاح العمراني بروح
طالمة فألقوا على هذا النهج نخبة من التأليف العظيمة التي تجلي فيها سخطهم
على الظلم والاضطهاد وعلى النخاسة وعلى عدم المساواة في الضرائب وعلى فساد
القضاء ، الى جانب تنديدهم بالحروب ورسمهم لأحلام جديدة من الاصلاح
الاجتماعي ، ولم يكن يعيب هؤلاء المصلحين سوى معاداتهم العمياء للدين .
ونشأ الى جانب هؤلاء نتيجة لهذا التطور الفكري فريق الاقتصاديين أو
الايسكونومستس Economists والفزيوقراطيين Physiocrats الذين سبقوا

ظهور الاشتراكيين ، وجميع هؤلاء من أهل الفكر المتعمق والتفانى في الخدمة الانسانية .

ولأعدُّ بعد هذا العرض الى كتاب (روح القوانين) ذاته فأقول إنه في مجمله ينم عن أصالة في التفكير الفلسفي في لب القوانين قبل تطبيقها ، ولكنه لم يقم على نظريات بل سنده المشاهدات الطويلة في رحلة مؤلفه الى أوروبا كما أسلفت ، وقد استغرق منه وضعه عشرين عاماً ، ولا عجب فانه يعرض فيه جميع النظم السياسية ما بين قديمة وحديثة ويتناولها بالنقد الدقيق ثم ينتهي الى تحييد الدستور الانجليزي كمثل عالمي . فلا غرابة اذا كان هذا الكتاب قد دفع الى الأمام الحركة الفكرية في فرنسا وانتهى بها الى الثورة الفرنسية ، كما ألهم أئماً أخرى أكيس صور الديمقراطية والحكم الدستوري على الطابع الانجليزي ، وهو يعد الى جانب ذلك خير تمهيد لدراسة فلسفة التاريخ . واذا كان الدستور المصري الحديث قد وُضع أساسياً في لفظه على غرار الدستور البلجيكي فالفهم أنه في روحه مستمد من الدستور الانجليزي ، وعلى هذا كان كتاب مونتسكيو ذا أهمية خاصة لنا في حياتنا الدستورية الجديدة ، وكم أتمنى لو ترجمه ترجمة أمينة أحد المشتريين المصريين سواء عن الأصل الفرنسي أو عن الترجمة الانجليزية . وقد امتدحه النقادة الانجليزي الكبير الأستاذ سينتسبري Prof. Saintsbury فقال عنه :-

" The real importance of the *Esprit des Lois*, however, is not of a formal treatise on law, or even on polity. It is that of an assemblage of the most fertile, original and inspiring views on legal and political subjects, put in language of singular suggestiveness and vigour, illustrated by examples which are always apt and luminous, permeated by the spirit of temperate and tolerant desire for human improvement and happiness, and almost unique in its entire freedom at once from doctrinairism, from visionary enthusiasm, from egotism, and from an undue spirit of system. ..

وهذه أسمى شهادة من أديب عالمي عن خصب هذا التأليف وأصالته ، وقوته الملهمة في مجال القانون والسياسة ، وعن لغته الحية الموحية ،

وشروحه الملائمة النيّرة ، ونزعته الاصلاحية الانسانية ، الى جانب تجرّده عن النظريات المهمة والحماسة الخيالية والصّلف وعن التقيّد الشديد بنمطٍ خاصّ . وقد كافّاه الأمة الفرنسية بالاقبال العظيم على كتابه حتى طُبعت منه اثنتان وعشرون طبعه في ثمانية عشر شهراً .

وإذا كان للغة العربية أن تحيا حياةً حديثةً فلا بدّ أن تزدهم مكتبتها بترجمات أمثال هذا التّأليف ، وإذا كان للأمة أن تنعم حياةً دستوريةً صادقةً فيجب أن يتشبع مشترعوها بمثل هذا الإلهام وعليهم أن يبثوه بعد ذلك في الأمة على درجاتٍ ابتداءً من صميم القرى .

(١٩٢٤)

الشعر الصيني

لنا أن نعتزّ من غير شكّ بأدبنا المصريّ القديم الذي يرجع الى الآف السنين قبل الميلاد (أنظر كتاب « أدب قدماء المصريين » للدكتور بدج The Literature of the Ancient Egyptians By E. A. Wallis Budge ، وكتابه « تاريخ الأمة المصرية » A History of the Egyptian People) ، ولكن ليس لنا أن ندّعي التفردَ بهذه الميزة ، إذ أن الأدب الصيني يمتدّ الى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد ويمتاز على الأدب المصريّ بالاستمرار الى يومنا هذا ، بعكس الأدب المصريّ الذي قضى عليه إهمالنا لغتنا المصرية (اللغة القبطية) على أثر الفتح العربيّ .

ومن أجل مميزات الأدب الصيني ما فيه من شعرٍ بديع . وقد كان لكونفوشيوس وحده نصيبٌ غيرٌ قليل في إبداع الغنائيات في هذا الشعر ، إذ وضع ما لا يقلّ عن ثلثمائة أغنية . وظهر في عهد الامبراطور منج هوانج في القرن الثامن بعد الميلاد ثلاثة من الشعراء الفطاحل في طليعتهم الشاعر الغنائي العذب لي تاي بو الذي كان شعره دائماً من وحى خمره ، حتى أن خاتمه كانت شبيهة بخاتمة ابن هانيء الاندلسي على إحدى الروايات إذ يقال إن لي تاي بو مات غريقاً حيث سقط في الماء وهو يحاول من القارب تقبيل القمر على

صفحة الماء ! وكما نتحدث في مصر عن الشعراء الثلاثة مطران وشوقي وحافظ ،
فكذلك كانوا يتحدثون في الصين القديمة عن لي تاى بو وعن زميليه توفو
وبوتشو آى ، وقد مات توفو كصاحبه الأول ميتة غريبة من نهمه في الطعام
على أثر صيام ، ولكن بوتشو آى اعتاض عن هذه الشهرة في الموت الغريب
بما هو خيرٌ منها إذ كانت أشعاره تحفر بأمر امبراطورى على اللوحات الحجرية
التذكارية .

وبطبيعة الحال لا أعرف اللغة الصينية ، ولكنى اطلعتُ على ترجمة مختارات
رائعة من الشعر الصينى فشاقتنى كثيراً . وإنى على سبيل المثال أذكر منها
« أغنية نهر الخريف » للشاعر لي تاى بو :

Song of the Autumn River

In the green clear water
The moon shimmering,
In the moon glimmer
White herons flying, flying.
A young man hears a sound —
The sound of a girl plucking water - chestnuts.
They paddle home together,
And the night also is singing.

ومن نماذج شعر كونفوشيوس الذى يقول « لا أبالي من يحكم الشعب إذا
كنتُ أنا أضع أغانيه » هذه الغنائية اللطيفة المعنونة « بهاء الصبح » :

The Morning Glory

The morning glory climbs above my head,
Pale flowers of white and purple, blue and red.
I am disquieted.

Down in the withered grasses something stirred ;
I thought it was his footfall that I heard.

Then a grasshopper chirred.

I climbed the hill just as the new moon showed,

I saw him coming on the southern road.

My heart lays down its load.

ومن أراد أن يقف على نماذج مسهبة للشعر الصيني الكلاسيكي فليقرأ مترجمات وليم جينجز ، ومنها ما هو منشورٌ في دائرة المعارف الأعمية للآداب الشهيرة (International Library of Famous Literature, Vol. XI. , p. 5261) ومعظم الشعر الصيني القديم هو شعرٌ دينيٌّ ، على أن غيره منوع الغايات والنغمات إذ يتناول الحربَ والحبَّ ، كما يتناول شؤون الحياة المألوفة من أكل وشراب وشكوى ونزهة ورقص وغراميات ، دون أن تفوته الغايات الانسانية العليا وإصلاح البشرية والتنديد بمفاسد الحكام والاعلان عن آلام الناس وأفراحهم في نماذج أخرى .

وأسرة تانج Tang dynasty هي راعية الشعر الصيني القديم . والى جانب الشعراء الذين سبقت الإشارة اليهم لايجوز أن ننسى منج هاو جان الذي بلغ من حياته انه اختبأ تحت السرير عندما حضر الامبراطور لزيارته تقديراً لفته كذلك لايجوز أن ننسى وانج وي الذي كان رساماً بارعاً الى جانب براعته في الشعر ، كذلك تنبغى الاشارة الى شعراء الأسرة السنجية من القرن العاشر الى القرن الثالث عشر بعد الميلاد فقد كثر الشعراء في هذا العهد وكانت لهم نظرات جديدة الى الحياة بمكس سلفائهم المرحين .

أمّا عن عناية الشعر الصيني فوجهة أصلاً الى مظاهر الطبيعة المنوعة ثم الى الحياة الانسانية وخصوصاً الى أتراحها ، وفي هذا يتجلّى الشعر الصيني على أحسن صورة فوق ما يتجلّى في الشعر الوجداني وإن كان هذا الشعر يمتاز بروحه الانسانية الحزينة . والشاعر الصيني في حال فرحه وترحه يستلهم الكأس . أما الشاعر الصيني الحديث كالشاعر العربي الحديث فلا يكتفي باستلهم ماضيه وإنما يستلهم كذلك موحيات الغرب .

بوكاتشيو القصصى

يعدُّ بوكاتشيو وبترا ك أعظم أدبيين إيطاليين بعد دانتي وقبل عهد الريناسنس (البعث الأدبى) وقد ألف بوكاتشيو كتابه القصصى (الديكاميرون Il Decameron) ما بين سنة ١٣٤٤ وسنة ١٣٥٠ وكان بمثابة الرائد فى النثر الايطالى كما كانت أقاصيصه مرآة لطبيعة الشعب الايطالى وما اتصف به من ظرف وكياسة وبساطة ، وإن عدّه أهل الشمال خشناً بالنسبة اليهم . ومن العجيب أن دانتي وبوكاتشيو وبترا ك جميعهم نشأوا فى مدينة فلورنسة ولو أنهم لم يقضوا حياتهم فيها ، على أن بوكاتشيو نفسه وُلد فى باريز وكانت أمه فرنسية وأبوه ايطالياً . ولم تكن طفولة بوكاتشو بالهنيئة بل عاش بفضل سوء معاملة زوجة والده الايطالية عيشة الشريد تقريباً . ودرس الحقوق بناءً على رغبة والده الذى كان من رجال المال كما درس التجارة ولسكنه فشل فى كليهما ، فانقطع لغرامياته وللأدب متطلعاً الى ابنة عاهل نابولى الملك روبرت الذى كان يقدر بوكاتشيو ، وفى غرامها عاش سنوات مقتدياً بدانتي فى تقديسه إياها كما كان دانتي يقدر بيترس ، وفى حبّها نظم أعذب الأناشيد المتحرّقة ، ولم تنقطع أوتاره إلا بعد وفاة محبوبته بوباء الطاعون فى سنة ١٣٤٨ ، فعاد الى فلورنسة .

ونحن نجد بوكاتشيو فى تصوير بطلات قصصه الأولى مشغولاً بالرمز الى محبوبته باسم فياممتا Fiammetta كما كان يدعوها (واسمها الاصلى ماريا داكوينو Maria d' Aquino) الى درجة لازمتها ملازمة ميكانيكية فيما بعد ، ومع هذا فالأدبُ مدينٌ لهذا التفانى الذى ألهمه إبداعه المتواصل على كسر السنين ، وكان لذلك أثر بليغ فى إيجاده طراز القصة المصرية بدل أقاصيص الفروسية القديمة ، فقد أدخل بوكاتشيو فى عالم القصة بطلّة من لحم ودم بدل الاعتماد على الحكايات الشعبية الوهمية وعلى الميثولوجيا القديمة ، وهذه البطلّة هى معشوقته ماريا ، وإنّ إصراره على إحضار بطلته فى قصصه هو على حدّ تعبير هتون فى كتابه « جيوفانى بوكاتشيو » Giovanni Boccaccio By E. Hutton أول تأليف للقصة السيكلوجية فى أوروبا ، وبذلك انتقل الأدب الأوروبى انتقالاً محسوساً من القرون الوسطى الى الروح المصرية وبذلك كان بوكاتشيو إمام القصة الحيّة فى القرن الرابع عشر .

وبالرغم من الروح الجديدة التي اتسم بها بوكاتشيو فقد نشأ غير مقصّر في دراسة الأدب الكلاسيكي بل شأى بترارك في هذه العناية وأكبّ على دراسة الأدب الاغريقي والكلاسيكيات عامة ، وهو بذلك قدوة صالحة لكل أديب مجدّد ، أعنى من وجهة تكوين الأساس الأدبي أولاً ثم التجديد بعد ذلك ، وإلاّ حرم المجدّد نفسه من أدوات التعبير ولو كانت له ملكة الابتداع . وكانت من مزايا بوكاتشيو نفسه الرضيّة الكريمة ، فلم يكن متكبراً مثل دانتي ولم يكن مغروراً مثل بترارك بل أن بترارك لما مات في سنة ١٣٧٤ كتب بوكاتشيو الى أسرته معزياً ومهتماً بآثاره وممجداً ذكره في اخلاص و إعجاب لا مزيد عليها . كذلك كان رجل ثقافة واسعة حتى أنه لما قررت مدينة فلورنسة إيجاد كرسي لدراسة كوميديّة دانتي الالهية اختير بوكاتشيو لهذا المنصب . وقد ألف كتاباً في سيرة دانتي وراح يضع شرحاً لكتاب (الجحيم) Inferno ولكنه لم يعش ليكمله إذ توفى في مدينة سرتالدو في ديسمبر سنة ١٣٧٥ .

كان بوكاتشيو كاتباً خصب الخيال بارع التعبير سخى الانتاج في اللغتين اللاتينية والايطالية كما كان أديباً انسانيّ الروح (humanist) ولكن كتاباته اللاتينية هي دون مستوى تأليفه الايطالية ، ومع أن شعره لم يكن خفيف الظلّ فيؤثر له أنه واضع وزن الموشّح stanza المعروف باسم « Ottava Rima » وقد تابعه فيه من الشعراء أريستو وتاسو ولكن ما يعنينا بل ما يعنى تاريخ الأدب الايطالى منه أنه كان أول نائر عظيم في اللغة الايطالية ، وتجلّى هذه العظمة بصفة خاصة في كتابه الخالد « الديكاميرون Il Decamerone » وهو ما أريد الكلام عنه في هذا المقال ، راجياً أن تتاح الفرصة لأحد أدبائنا القديرين لينقل قصصه الى العربية كيفما كانت نظرات الجيل الحاضر من الوجهة الفنيّة الذوقية الى تلك القصص الصادقة الصريحة ، إذ لا يمكن أن تكون للغة العربية المنزلة اللاتينة بها ما لم تستوعب أشهر التأليف العالمية وإلاّ كانت في حكم الميتة . وما أضاع لغتنا المصرية (اللغة القبطية) الا قصرها على شؤون الدين وعدم نقل العلوم والآداب اليها فانصرف الناس عنها ، يُضاف الى ذلك تأثير الفتح الاسلامي ، وأصبحنا الآن نصطنع لغة دخيلة بديلة عنها لساناً قومياً ، فاذا أهملنا هذه اللغة فمالها ولو ثقافياً مآل سابقتها .

وقد أشرتُ في مستهلِّ هذا المقال الى وفاة معشوقة بوكاتشيو بوباء الطاعون في سنة ١٣٤٨ - وهو الوباءُ الذي اجتاح الدنيا حينئذٍ وعُرف باسم « الموت الأسود » - فكان حظ فلورنسة منه أسوأ حظ . ومن هذه المأساة يبدأ بوكاتشيو بذكر لجوء خمس سيدات مع فرسانهنَّ الى كَرْمَةٍ في جيرة المدينة وكيف أنفقوا وأنفقنَ الوقتَ للمواساة والتسلية بسرد القصص ، ومن هذه المجموعة تتألف « الديكاميرون » . ويقول البعض إنها هي التي أوحى الى الشاعر تشوسر Chaucer فيما بعد كتابه المعروف باسم « حكايات كانتربري Canterbury Tales » وإن لم يعش تشوسر ليكملهُ ، ولكن يلوح لي أن تشوسر تأثر بالشعر القصصي لبوكاتشيو لا بنثره . ويبدأ بوكاتشيو كتابه بوصف الوباء في فلورنسة ، ولكن سرعان ما ينتقل الى حكاياته الخلابَّة المسلية الشعرية النفحات التي لم توح الى تشوسر وحده بل كذلك الى شكسبير ودريدن وكيتس وغيرهم . وكانت لبوكاتشيو جميع الصفات المطلوبة في القصصي المتفوق ، فكان أسلوبه منوعاً حياً مرناً ، وما عيب عليه سوى ثروة مترادفاتهِ التي كان يلقيها من غير حساب . أمَّا شخصياتُ قصصه فجميعها مرسومةٌ بوضوحٍ فنيٍّ وبراعةٍ ودقَّةٍ ، وكذلك الحوار في هذه القصص نجده طبيعياً وملاءماً كلَّ الملاءمة للشخصيات . ونجد الحوادث ذاتها تدل على ذكاء وابتداع وقدرة فطرية على التسلية ، ولو أنه أحياناً يتخطى حدود اللياقة بالنسبة للاحتشام المتواضع عليه ، ولكنه بالاجمال يعرض على مسرح الأدب عرضاً شائقاً صورَ الحياة والعادات الإيطالية في القرن الرابع عشر . فلا غرابة اذا دان له كثيرون من الكتاب والشعراء والمصوِّرين بالالهام الوفير ، وبذلك لم يكن أثره محصوراً في البيئَة الإيطالية بل شمل عالم الأدب . وقد أصاب لُوري ماجنسن Laurie Magnus في كتابه « صورة عامة للأدب الأوروبي في عصور الرومانطيقية » A General Sketch of European Literature in the Centuries of Romance إذ قال إنه من الصعب أن يؤلف كاتب في أثناء الحرب من دون أن يتأثر أدبه بها ، ولكن بوكاتشيو الذي كتب « الديكاميرون » في أثناء وباء طامى خطير جرَّد قصص ذلك الكتاب من المأساة السوداء وجعلها كلها بهجة مسلّية . وقد خلَّد بوكاتشيو في كتابه الحياةَ الفلورنسيةَ في عهده بصنفة خاصة ، ولئن عيب أحياناً على الكتاب ما فيه من شهوانية فيجب أن لا ننسى ما قاله

سيمونديز في كتابه عن الريناسنس في ايطاليا Renaissance in Italy ألا وهو أن أدب بوكاتشيو يمثل ردّ الفعل لجمود القرون الوسطى ، كما أنه يمثل الفرحة المخلصة بالحياة وبالطبيعة الصادقة وبالروح الانسانية ، مع شغفٍ بالتعبير الفني لم يجد به قلمٌ قبله في ايطاليا ، مع أنه كتب قصصه هذه في أوائل العقد الرابع من عمره أي في سنّ الشباب ، ولكنه كان يعيش في عهد ملك حكيم ازدهرت بحكمه مدينة نابولي وترعرعت فيها المعارفُ وتألقت المدنية ، وكان بوكاتشيو إذ ذاك في سنّ الخامسة عشرة فعرف كيف يقدر بيئته الراقية وكيف يستلهم الجمالَ في تلك المدينة البديعة وعلى هامش القصر الملكي . ويلوم بوكاتشيو والده لارغامه إتياءه على الاشتغال بالتجارة أو دراستها ست سنوات كاملة بدل الاشتغال بفنّ الأدب الذي كان حبيباً الى نفسه من البداية ، وكان يقول « لو أنّ والدي عاملني برجاجة لربما صرتُ بين أطاظم الشعراء » . ولم لا وهو الذي هام بحبّ ماريّا دا كوينو من خطف نظرة في كنيسة سان لورنزو يوم ٣٠ مارس سنة ١٣٣٦ مع أنها كانت سيدة متزوجة ؟ ولكنها تعلقت به ثم عادت فغدرت به ، ثم جاء الموت فغدر بهما ، إلاّ في عالم الأدب الخالد فان حبهما ووحيهما ملآ حياته التي ترجم عنها في أقاصيصه ترجمة العباقرة .

(١٩٢٥)

٤١٥

الكوزموس

تكررت هذه اللفظة حديثاً في بعض الكتابات العلمية الفلسفية فخطر لي أن أتناول مدلولها وموضوعها بشيء من البيان اعتماداً على أدقّ المصادر وذلك خدمة للأدب الجديد . ولفظة « كوزموس » Cosmos كثيراً ما تُقرنُ بلفظة كوزمولوجيا Cosmology ، والمقصود بالكوزمولوجيا نظرية النظام الكوني وتفسيره ، وعلى هذا تُستعمل لفظة « الكوزموس » معارضةً للفظة « الكاءوس » أي الفوضى ، فهي إذن تعنى هذا النظام بالذات .

فما يدخل في باب الكوزمولوجيا كتابات ديكارت عن كيفية نشوء عالمنا المنظم من خليطٍ سابقٍ من الفوضى في المادة والحركة ، وكذلك نظريات

هيرشل وكانت ولا بلاس عن نشوء النظام الشمسي ، وكذلك كل ما يُتناول عادةً في باب فلسفة الطبيعة (Philosophy of Nature) . وقد أوضح العلامة تيلور في كتابه مبادئ الميتافيزيقا Elements of Metaphysics By A. E. Taylor اختصاص مسائل الكوزمولوجيا بما يأتي : (١) حقيقة طبيعة الوجود المادّي ، وبعبارة أخرى المغزى النهائي للتفريق ما بين الوجود الطبيعي والذهني والروحي ، (٢) تبرير التفريق ما بين المناهج الميكانيكية والأساليب التليولوجية ، وتفهُّم النظام الطبيعي على أنه متمشٍ مع قانونٍ مطردٍ ، (٣) الصعوبات الرئيسية في تفهُّم الفضاء والوقت وعلاقتها بدرجة الواقعية النسبوية الى النظام الطبيعي ، (٤) التضمين الفلسفي لتطبيق فكرة النشوء على حوادث النظام الطبيعي ، (٥) مكانة علم الطبيعة الوصفي إجمالاً بالنسبة الى بقية المعارف الانسانية .

وبعد هذا التمهيد علينا أن نتناول بالذكر والتقدير تأليف البارون ألكسندر فون هبلت Baron Alexander von Humboldt في موضوع الكوزموس ، وهو كتابه الضخم الذي أخرجه في سنّ متقدمة إذ كان يقارب الثمانين وذلك في منتصف القرن الماضي ، ورمى به الى تبيان وحدة الوجود وحسن نظامه وإن بدا في ظاهره عكس ذلك ، وهو بعد هذا صورةٌ دقيقةٌ مستوعبةٌ للعقلية العامة الفلسفية في القرن التاسع عشر .

أمّا عن الدراسة الطبيعية للعالم فيرى فون هبلت أنه وإنّ عدّ العالم الطبيعي مضافاً للعالم الفكري لكن ليس معنى ذلك فصل المجال الطبيعي عن المجال الفكري فصلاً تاماً ، إذ ليس العلم سوى مظهر تألف الذهن مع الطبيعة . وليس العالم الخارجي موجوداً إلاّ بدرجة تخيلنا له في داخل أنفسنا وعلى الصورة التي يتكيّف بها في وجداننا إثر تأملنا في الطبيعة . وكما أنّ الفهم واللغة والفكر وأماراته تتحد بروابط خفيّة لا تنفصم ، فكذلك يتحد العالم الخارجي بدون علمٍ منا تقريباً مع أفكارنا وأحاسيسنا بحيث تتألف من ذلك وحدة متماسكة . وعلى حدّ تعبير هجل تُترجم الظواهر الخارجية بما تتمثله داخلياً في أنفسنا . والعالم المحسوس عند عكسه في أنفسنا يُنضج للأشكال المكيفة لكياننا الفكري ، وهي أشكال ضرورية مشروطة

لا تتغيّر . وإنّ نشاط العقل ليوجّه جهده الى العناصر التي يقدّمها إليه إدراك الحواس . وهكذا في طفولة الأمم يتجلّى هذا الشباب في أبسط صور الإدراك البديهيّ للحقائق الطبيعية في المحاولات الأولى لفهمها . ولو قدرنا الظاهرات الطبيعية لا في ضوء احتياجات الانسان المادية ولكن في ضوء تقدّمه الفكري العام ، لوجدنا أن أرقى نتائجهما هي التي تتصل بمعرفة العلاقات المتبادلة التي تربط فيما بينها القوى العامة للطبيعة . وإنّ إدراكنا الفطري لوجود هذه العلاقات هو الذي يوسّع آفاق تفكيرنا ويسمو به ويزيد إحساسنا بالحبور . وهذه الآراء هي ثمرة الملاحظة والتأمل وروح العصر الذي ينعكس في أعمال الذهن الانساني كيفما كانت وجهاتها . ومنذ بدأ الانسان في استنطاقه الطبيعة يجرب أو يحدث ظاهرات معيّنة في ظروف معيّنة ويسجّل ما يجمعه من نتائج اختباراته حتى لا يبقى البحث محدوداً بحياته صاحبه أخذت فلسفة الطبيعة تخلع عنها الاشكال المهمة أو الشعرية التي كانت تبدو فيها واتخذت بدلها صوراً جديدة . ونبؤنا تاريخ العلم كيف أن الملاحظات الناقصة وغير الدقيقة أدّت بسبب الاستنتاجات الخاطئة الى أحكام عديدة خاطئة في الآراء الطبيعية ، وكيف أن هذه الأخطاء استمرت في صور من التعصّب الأعمى بين جميع طبقات المجتمع ، وهكذا استمرت هذه الأوهام هائشة الى جانب الحقائق العلمية الصحيحة . وهذا الحكم الاختباري الذي يقارب التجديد empiricism هو موروث الأزمنة السالفة وهو حريص عادة على الأوليات التي قررها الى جانب ما له من عجرفة مألوفة مع كل شيء قصير النظر ضيق التفكير ، بينما الفلسفة الطبيعية الحقّة المؤسسة على العلم تشكّل لأنها ترمي الى البحث المستقصى ، وعلى هذا تميّز ما بين الشيء الأكيد والشيء المحتمل ، وتعمل بلا انقطاع لتقريب نظرياتها من الكمال وذلك بتوسيع دائرة البحث . وليس ضرراً الأوهام الموروثة والتجارب الناقصة محصوراً في التعصّب لأخطاء متناقضة من جيل الى جيل مع ما يصحب ذلك من تعصّب وعناد ومحاربة للآراء المخالفة ، ولكنه يتجاوز ذلك الى حرمان التفكير من النهوض الى المستوى الرفيع اللائق بفلسفة الطبيعة . ومن مظاهر ذلك « العلم » الذي يشغف به النقليون التثبيت بالشواذ وبناء

قواعد عليها مما يؤدي الى قلب القوانين الطبيعية رأساً على عقب ، وأغلب رجال الدين الثقليين هم من هذا الطراز وهم مفسدةٌ للعلم وللدين معاً .

إن القيام بالتجارب العلمية الاصولية الدقيقة هو الذي أدى الى الثروة العلمية الحاضرة واكتشاف ما ألمانا به من قوانين الطبيعة مستعينين خاصة بالرياضيات والكيمياء .

أمّا عن توزيع المادة في فضاء الوجود ومركز الأرض من كل ذلك فيرى المؤلف أنه من الخطأ إدخال العاطفة في هذا التقدير كما كان يفعل رجال الدين خاصة في القرون الوسطى ، فما الأرض الا نقطة صغيرة في العالم الذي يجب أن ننظر اليه نظرة فسيحة ، وعلى هذا ينبغي أن نتأمل فيما يشغل الفضاء لا في الكرة الأرضية فحسب . ومع كل في الكرة الأرضية ذاتها من مجال الدراسات للقوانين الطبيعية والتفاعل بين عواملها ولصفات المادة وتركيبها ما هو جدير بالذهن العلمي الذي يريد أن يتبين عظمة الوجود ووحدته . إن الانسان يدرك العالم الخارجي بفضل ما له من أعضاء الحس ، فظواهر الضوء تعلن وجود المادة في الفضاء السحيق ، وهكذا تكون العين أداة للتفكير في الوجود وتأمّله ، وقد أعطى اختراع التلسكوب والاستمرار في تجويده للأجيال الحديثة قوّة عظيمة يصعب تقدير حدودها في فهم « الكزموغرافيا » أي جغرافيا العالم ، وأهم عناصرها معرفة محتويات الفضاء العالمي بالنسبة لخلقها وتوزيعها . إننا نرى المادة كائنة في الفضاء بصورة كرويات حائمة دائر كل منها حول مركزها وفي تجاذب معين ومختلفة اختلافاً كبيراً في الجسامه ، كما نراها بصورة بخار يسر من ذاته مشّتت في نقط أو رقع سديمية . وتتجلى السدُم للعين في هيئة أقراص صغيرة ما بين منفردة ومزدوجة وأحياناً يصل بينها خيط من الضوء . وعندما يزداد قطرها تختلف أشكالها ، فبعضها يكون مستطيلاً ، وبعضها يكون متفرعاً فروعاً كثيرة ، وبعضها يشبه المروحة في شكله ، وبعضها يكون حلقياً بحيث تكون الحلقة جلية وداخلها قاتماً . والمظنون أن هذه السدُم متطورة باستمرار في أشكالها إذ يجري تكشّف فيها حول نواة أو أكثر حسب قوانين الجاذبية ، وقد عدّ زهاء ثلاثة آلاف من هذه السدُم المتطورة . وإذا تركنا هذه الأبخرة الكونية في هذا الفضاء الشاسع سواء أكانت أميراً

لا شكل له ولا حدود ، أم سُدمًا معيَّنة ، وانتقلنا الى الأجرام الكروية ، فاننا نواجه حينئذ العوالم النجمية وفيها كذلك نجد اختلافات متدرّجة في جسامة المواد المكوّنة لها وكثافتها . واذا شبَّهنا مناطق الفضاء بمناطق الجُزُر في البحار على كرتنا الأرضية فاننا نستطيع حينئذ أن نتخيّل كيف تتجمّع المادة الكونية في مجاميع سواء أكانت في صورة سُدم غير متحوّلة متكتنفة كغازات حول نواة أو أكثر ، أم في صورة مجاميع نجمية ، أم في هيئة نجوم منفردة . وان مجموعتنا النجمية ، أى الجزيرة الفضائية التى نتبعها ، هى أشبه بعمدة مفرطحة ، ونشوؤها وعلاقتها تبرّر هذا الشكل .

وهو على هذا النسق يتناول تاريخ الأرض ، ويُرينا كيف أن هذا التنوّع العظيم للأحياء إنما تنتظمه وحدة النشوء والارتقاء ، كما يُرينا إجمالاً أن سلطان العلم قوىٌّ دائمٌ وأن اتساع آفاقه واتقان أدواته مما يزيد ثباتاً على ثباتٍ وهدايةً للإنسانية عن ماضيها وحاضرهما ومستقبلها وعن علاقاتها الكونية ونظام هذا الوجود الشاسع العجيب .

(١٩٢٥)



محتوى

المنحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٠٠	سيبويه وفضله	٣	مقدمة
١٠٨	شعراء الشام	٤	قدوة الأمير
١١٥	رسائل بديع الزمان	٦	الشعر الجديد
١١٨	نظرة في سقط الزند	٢٥	التعاون المالى
١٢٤	فاوست	٢٧	ذكرى مصطفى
١٢٦	أدب الانجيل	٢٩	ثمار القلوب
١٣١	فى الأدب الرومى	٣١	تاريخ علم الأدب عند الافرنج والعرب
١٣٣	العامى والدخيل	٤١	الاستسلام أم الكفاح ؟
١٣٦	جمهورية أفلاطون	٤٣	شجاعة المعرفة
١٣٨	إرنست هيسكل	٤٥	سحر الموسيقى
١٤١	ألمعية أبى فواس	٤٧	نهج البلاغة
١٤٦	الاسلام والنصرانية	٥٧	ابن هانىء الاندلسى
١٤٩	المغرب فى ترتيب المغرب	٧٤	الفلاسفة المسلمون
١٥٢	حافظ النبيل	٨١	ماثيو أرنولد
١٥٥	فى صحبة ديكنز	٨٣	أدب القرآن
١٥٨	نظرة فى الشعر الايطالى	٨٥	جون بنيان
١٦٠	مزايا الأدب البولوندى	٨٨	أوليفر جولدسمت
١٦٥	الجمال الاغريقى	٩٠	فلسفة المعرى
١٦٨	مع أقاتول فرانس	٩٢	خصائص ابن الرومى
١٧١	جورج مردث	٩٧	المذهب المادى

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٩٨	فلسفة اللاأدرية	١٧٤	نمو التفكير العالمي
٢٠٠	سرّ النجاح	١٧٦	رسالة ولز
٢٠٣	الأخلاق وهربرت سبنسر	١٧٩	عبقرية برنارد شو
٢٠٦	أبراهام لنكولن	١٨٢	الفرائز والتربية
٢٠٨	مونتسكيو وروح القوانين	١٨٥	روح الاجتماع
٢١٢	الشعر الصيني	١٨٨	الحركة الاشتراكية
٢١٥	بولاتشيو القصصى	١٩٠	أبو العتاهية
٢١٨	الكوزموس	١٩٣	تحرير المرأة
		١٩٥	حرية الرأى وعقابها

